Princeton University Library
32101 060770177

PRINCETON UNIVERSITY LIBRARY

This book is due on the latest date stamped below. Please return or renew by this date.

مطبوعات لجنة نشر الثقافة الحديثة

ذكريات ماكسيم جوركي

ترجمة عبد المعين الملوحي

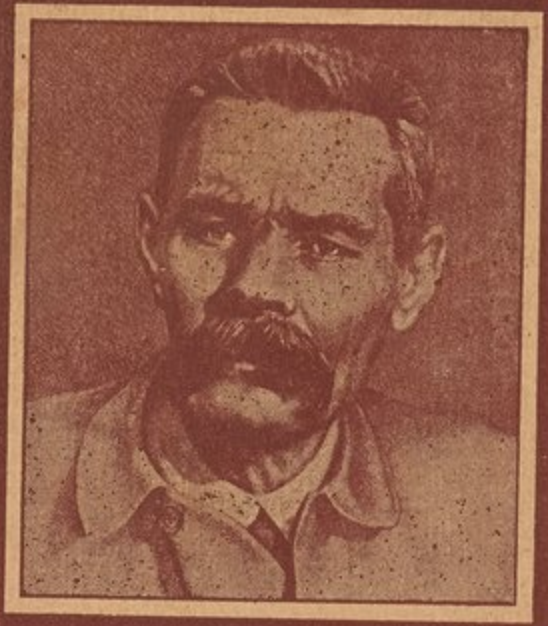

مهنية أبو شادي

لجنة نشر الثقافة الحديثة

Gorky

ذكريات ماكسيم جوركى

ترجمة عبد المعين الملوحى

الناشر: دار القرن العشرين للنشر
ص.ب ١٩٢٠ - القاهرة

(RECAP)
(AT23)
PG3465
.A627

PRINCETON UNIVERSITY LIBRARY PAIR>
32101 014476277

الى الذين انبثقوا من صميم الشعب العربي الجريح ، ليكونوا له رفاقاً يرفعونه الى ذروة الحرية والكرامة والخلود .

يقدم هذا الكتاب :

عبد المعين الملوحي

مقدّمة

قدم رومان رولان ترجمة « والفولاذ سقيناه » للكاتب السوفيتى أوستروفسكى فقال :

« أعظم الآثار الفنية فى الثورة الرجال الذين تبدعهم ، ففى انفجار الحياة الجديدة التى تشق الأرض المنكمشة تبدو هنا وهناك أرواح من نار كأنها أناشيد تملأ آفاق السماء بصرخات الايمان ، ودعوات العقيدة ، فتتمدد أصداؤها لتعيش بعد أن يزول أصحابها . »

وهذا أثر فنى أقدمه إلى المكتبة العربية لكاتب كان هو أثراً فنياً لثورة ، هو مكسيم جوركى صانع الثورة الاشتراكية الأدبى .

ستلمس فى هذا الكتاب تطور الكاتب فى حياته العاطفية والفكرية والأدبية . وستلمس فى عرض هذا التطور ثلاث ميزات على الخصوص :

أما الميزة الأولى فهى صدقه فى عرض مراحل هذا التطور ، فتعجب كيف مشى مكسيم فى طريقه الواضحة البيضاء الأخيرة بعد تلك البنيات والمنعطفات الكثيرة السود التى كادت لولا أن جوركى كان جوركى ، أن تستبد به ؛ « والعجب أن كل هذا كان يقصينى عن باشكين وتروسوف ، وإن كنت أحبهما . ولقد كان منطقياً ، ومنطقياً جداً أن يقودنى ما قاسيته فى الحياة إلى السير على منوالهما ، ولطالما دفعتنى إليهما خيبة أملى فى أن أرتقى وأتعلم ، ولطالما شعرت فى ساعات الجوع والتعب والقلق أنى قادر قدرة تامة على أن أرتكب جريمة لن تنال « حق الملكية المقدس » وحده ، ولكن رومانطيقية الشباب حالت بينى وبين أن أجور عن قصد السبيل التى كان على أن أسير فيها . »

ولربما شعرت أن مكسيم كان فى عرضه لبنيات الطريق أكثر وضوحاً وصراحة من عرضه لطريقه نفسها .

والميزة الثانية فى كتابه هى أنه لا يتدخل فى عواطف من يتصل به ولا فى أفكار من يتحدث عنه أو إليه ، فتراه يعرضها علينا مهما كانت مخالفة لعواطفه وأفكاره الخاصة ، فى قوة لا تحس معها أبداً أن قد دخلها نوع من أنواع التبديل والتحريف ، ولقد التقى مكسيم بلصوص وقتلة وحمالين وخبازين وشرطة وقواد وطلاب وشعبيين وثوريين ومؤمنين وملاحدة ، وتولوستيين وماركسيين ومثقفين بورجوازيين وغير بورجوازيين ، وتحدث عنهم كلهم ونقل عنهم ما كانوا يعتقدون فى إخلاص ووفاء .

أما الميزة الثالثة فهى أن مكسيم كان يقدر كل إنسان حق قدره ، ولم تكن عواطفه تمنعه الحكم الصحيح الصادق على الاشخاص الذين عرفهم وعرفوه ، والذين أثروا فى تطوره ، والذين أحب ، والذين كره ، ولقد شعرت فى كثير من مواقف الذكريات أن لو كنت أنا مكان مكسيم لم يكن موقفى من الشخص الذى ذكره غير موقفه .

ستقرأ هذا الكتاب فتشعر ، ولكن لم أفرض عليك أن تشعر بما شعرت أنا به ؟ فلأغير هذه اللهجة الخطابية ولأتحدث عما شعرت أنا به عند قراءته : شعرت أنى أرفرف على هذه الأرض التى أحيا عليها وأحبها بجناح يمسها حينا ويحلق فوقها حيناً ، ولكنى كنت إذا استمتعت بهذا الطيران الناعم الدقيق أحسست فجأة أنى استبدلت بجناحى هذا الضعيف الصغير ، جناحى نسر يحلق ثم يحلق ويرتقى ثم يرتقى ليملأ عينيه بنور الشمس ويفعم قلبه بحرارتها ، وليظن حقاً أنه شاركها فى سموها وجلالها ، ثم يهبط إلى الأرض ليعيد إلى نفسى جناحها الناعم الصغير .

وهكذا كنت أمشى مع جوركى فى ضباب الصباح الذى يمس الأرض أو يكاد يمسها فاذا بلغت موطنا من مواطن حديثه عن القبو الذى كان يعيش فيه ، أو عن المركب الذى غرق فى الفولجا ، أو عن مقتل إيزوت ، وحديث روماس عنه ، أو عن تمزيق جوركى لبواكير ثمراته الأدبية ، أو عن غير هذه المواطن ، كنت

أشعر إذا بلغت موطناً من هذه المواطن أني دخلت قلب الحياة وسرت فى شرايينها وتلمست أوردتها وتحولت إلى نقطة من دمها الحار الدافق .

لا أريد أن أحلل ذكريات جوركى هذه ، وانما هى إشارات ورموز .

فى هذه الذكريات إنسانان :

الإنسان الأول فردى شخصى يملى على الدنيا من حوله إرادته ، ويقول لنفسه كونى فتكون ، إنسان عرف « أن ليس من شىء يخلق الإنسان غير مقاومة البيئة » فقاومها وأنقذ نفسه من حمال وخباز وأجير ومالىء زجاجات خمر ، وحارس سكة حديد ، و . . . ، ليكون هو وحده أعظم كاتب لأعظم ثورة . إنسان كان يسأل دائماً نفسه : « يا نفس ماذا يضمر لك المستقبل ؟ وماذا ستكونين ؟ » إنسان بلغ من فرديته أنه قال: « كل ما حولى فراغ لا أجد فيه أحداً . » وكان يكره أن يدعى « ابن الشعب » .

والإنسان الثانى اجتماعى إنسانى يملى على الدنيا مرة أخرى إرادته . ويقول لها كونى أقل جريمة فتكون ، إنسان قال « كانت خطب عباد الشعب تهبط على قلبى برداً وسلاماً ، وكان عزائى أن استمع إلى الأدب الحى العنيف يصف حياة القرية القاتمة ، ويدعو إلى إنقاذ الفلاح الشهيد . وشعرت أن ليس فى مقدور إنسان أن يكشف معنى الحياة وأن يفهمها إلا إذا أحب الإنسانية حباً قوياً عنيفاً ، وأن هذا الحب القوى العنيف وحده هو القادر على أن يمده بما يتطلبه اكتشاف معنى الحياة وفهم مغزاها ، من طاقة وجهد .

ومن أجل ذلك كله تركت التفكير بنفسى لأهتم بغيرى . »

لقد فاضت هذه النفس لأنها غضة غير يابسة ، غنية غير فقيرة ، خصبة غير مجدبة ، فاضت بالماء والثروة والربيع ، واستبد بها كما يقول صاحبها « لهفة لانطلاق تريد أن تزرع الخير والعدل والخلود »

إنسانان عاشهما مكسيم جوركى فتمتع بهما كليهما فكان فرداً وكان إنساناً ، فرداً ينازع نسر الجبل وحدته وعزلته وكبرياءه ، وإنساناً ينازع ماء الجدول فيضه وعذوبته ، كان إنساناً حقاً ، ولعلنا نحن العرب الذين تستبد بأكثرنا فردية

حمقاء سطحية ، فى هذه النفس المغلقة أولا ، وفى هذا الوطن الشقى ثانياً، أشد الناس حاجة إلى أن نجد فى أنفسنا هذين الإنسانين .

أنا ونحن ، الفرد والمجتمع ، مايزالان لغزاً لم تحله إلا سنة ١٩١٧ فى مكان ما من هذا العالم . ولقد كان مكسيم غوركى واحداً ممن عرف هذا الحل ، وواحداً ممن قام به .

يجب أن نبنى المجتمع كما نريد ، وكما نعتقد أنه يجب أن يكون ، ولكن هذا البناء يحتاج هدماً فلنصنع نحن هذا الهدم ثم لنصنع ذلك البناء على مقدار ماعندنا فى هذه المرحلة من مراحل الإنسانية من عقل وذكاء وفهم وعاطفة .

ولسنا نكلف أنفسنا وضع دساتير كيماوية نصنع منها مادة اجتماعية جامدة، لا لن نكلف أنفسنا ذلك ولو كلفناها لم نجد لها استجابة ، ولم نجد لها طاقة ، سنصنع نحن مانريد أن نصنع ، ومانعتقد أن علينا أن نصنعه ، وليصنع من بعدنا مايريدون أن يصنعوا ومايعتقدون أن عليهم أن يصنعوه .

ما أكثر سخف من يدعى أنه سيقرر مصير العالم ألف عام .

إنه قد يستطيع أن يذبذب سيره بضع سنين ، ثم يمشى على رأسه العالم ، كما تمشى العاصفة على ألف عود يابس .

لنكن على يقين مما فهمنا ، ولنعمل على زيادة مانفهم وعلى تحويل مافهمنا ومانفهم إلى حقائق ووقائع ، وأحداث ، كما صنع من قبلنا .

ما أكثر سخف من يدعى أن أحداً من الناس قد قرر مصير العالم منذ ألف عام وألف عام ! إنه قد استطاع أن يساير العالم دوراً من أدوار التاريخ ثم مشى على رأسه العالم كما تمشى العاصفة على ألف عود كان من قبل غضاً طريا .

هذا واجبنا وسنؤديه ولعل خطوة من خطوات أداء هذا الواجب نشر هذا الكتاب .

ليست هذه مقدمة !

عبد المعين الملوحى

القاهرة ١٥/٢/١٩٤٥

الفصل الاول

ها أنا ذا إذن راحل أطلب العلم فى جامعة قازان — وهل أقل من ذلك ؟

تلك فكرة أوحاها إلى ن. ايفيرنوف ، وهو تلميذ ثانوى كان شاباً وسيما ، عيناه وادعتان كأنهما عينا فتاة . وكان يسكن سطح المنزل الذى أسكن .

رآنى أقرأ كثيراً ، فاهتم بى وتعارفنا ، ثم تعهد بإقناعى « أن لى فى العلم استعدادات خارقة » .

قال لى مرة ، وهو يحرك ، فى جلال ، ذؤابته الطويلة : — إنما خلقت لتخدم العلم . وكنت لا أزال أجهل أن فى استطاعة أجير مثلى أن يقوم بخدمة العلم . ولكن ايفيرنوف بين لى بياناً واضحاً أن الجامعات فى حاجة قصوى إلى أمثالى ، ولم ينس طبعاً أن يبحث لى عن ظل فى « ميشيل لومونوسوف » ، وقال ايفرنوف أيضا إنى سأسكن بيته فى قازان ، وسأتابع خلال فصلى الخريف والشتاء دروسى فى الثانوى ، وسأجتاز « بعض » الامتحانات ، أجل « بعض » الامتحانات ، وسأنال « الإعانة » الجامعية ، وسأغدو بعد ذلك فى خلال خمس سنين « عالماً » من العلماء .

كان هذا كله بسيطاً جداً لسبب واحد بسيط جداً ، هو أن عمر ايفيرنوف سبعة عشر عاماً وأنه هو ذو قلب طيب .

أنهى ايفيرنوف امتحاناته وسافر ، ووجدتنى فى تموز فى بلدة نصف تترية أسكن ناحية ضيقة فى بيت ذى دور واحد .

كان هذا البيت واطئاً منعزلا ينام على سفح هضبة فى رأس شارع ضيق فقير ، ويطل أحد جدرانه على أرض سبخة تتكاثف فيها الأعشاب . وهناك ، بين الأشواك والشيح والقصب والزعزور ، ترتفع أنقاض بناء صغير من الآجر ، أتى عليه حريق قديم ، وامتد تحته قبو واسع تحيا فيه الكلاب الشاردة وتموت ؛ إنى لأذكر تماماً هذا القبو ، فلقد كان مدرسة من مدارسى .

كانت عائلة ايفيرنوف — الأم وولداها — تجر حياتها على حساب مرتب بائس ضئيل. ولقد لاحظت منذ الأيام الأول ، كيف كانت الأرملة الصغيرة الشاحبة تلتى ، فوق منضدة المطبخ ، عند عودتها من السوق ، بضاعتها الناحلة ، وهى منهمكة فى حل هذه القضية العسيرة : كيف تستطيع أن تخلق من قطع صغيرة من لحم كريه ، كمية تكفى غذاء ثلاثة عمالقة أشداء ؟ أما هى فلم تكن تخطر لها نفسها فى حساب .

كانت صامتة قليلة الضجة ، يتجمد فى عينيها الشهلاوين عناد عذب ، هو ذلك العناد الذى لا أمل فيه ، عناد حصان أنضاه العمل : هذه البهيمة المسكينة تجر عجلة فوق رابية ، إنها لن تبلغ مداها ، وإنها لتعرف ذلك ، وهى رغم ذلك كله ، ومن أجل ذلك كله ، دائبة على عملها القاتل ، مستمرة فيه .

سألتنى ذات صباح بعد يومين أو ثلاثة من قدومى ، وكنت أساعدها فى تقشير الخضار ، وولداها نائمان ، فى صوت عذب فيه تحفظ وحيطة :

— ماذا جئت تفعل ؟

— أدرس فى الجامعة !

وارتفع حاجباها وتجعدت جبهتها الصفراء ، وقطعت إصبعها بسكينها ، وألقت بنفسها على الكرسى . وهى تمص دمها ، وقالت وهى تنهض رأساً :

— آه ، عليك اللعنة يا إبليس .

ثم أنّت ، على وهى تلف إصبعها الجريح بمنديلها ، هذا الثناء العاطر :

— إنك تجيد تقشير البطاطا !

وعجبت لها كيف لا تعرف هذا منى ! فشرعت أقص عليها أخبارى وأنى طالما قمت بهذا العمل وأنا أشتغل على ظهر مركب . فسألتنى أهدأ ما تكون :

— أفتظن إذن أن هذا كاف لدخولك الجامعة ؟

وكنت فى ذلك العهد لا أفهم النكتة ، وحسبت فى سؤالها الجد كله ، فعرضت عليها عرضاً مفصلا ذلك المشروع الذى سيفتح لى أبواب معبد العلم . فتنهدت وصاحت : آه ، نيقولا ، نيقولا !

دخل نيقولا المطبخ ، وهى تتنهد ، ناعساً ، أشعث ، ممراحاً كعادته .

ـ ياأماه ، هلا صنعت لى فطاير صغيرة ؟

ـ طيب ، طيب .

وتدخلت لأبين لها معارفى فى الطعام فأعلنت أن اللحم لايلائم صنع الفطاير وأنه ، إن لاءم ، فهو غير كاف أبداً .

غضبت فرفارا إيفانوفا ، وسلقتنى بكلمات حداد شعرت لها أن أذنى احمرتا واستطالتا وخرجت من المطبخ وهى تقذف على المنضدة بباقة من الجزر ؛ أما نيقولا فقد غمزنى بعينيه وفسر لى سلوك أمه قائلا : ـ ماأشد ضجرها اليوم!

ثم جلس على كرسى وجعل يحدثنى عن النساء ، وأنهن على العموم أسرع ثورة من الرجال ؛ وأن ذلك فى طبعهن ، وأن عالماً شهيراً سويسرياً بين ذلك بياناً لايأتيه الشك ، وأن جوهن ستوارات ميل ، الانجليزى ، عرض لذلك أيضاً .

كان نيقولا يحرص على تعليمى حرصاً بالغاً ، ويستغل كل فرصة ، ومناسبة ليزرع فى عقلى مفهوماً من المفاهيم التى يراها ضرورية لايستطيع الإنسان العيش بدونها.

وكنت أنا أيضاً أصغى إليه إصغاء الشره الجائع ، ولم ألبث أن اختلط فى ذهنى فوكولت ، ولاروشفوكلد ، ولا روشجاكلان فى شخص واحد ، ولم أستطع أيضا أن أتذكر أى الرجلين قطع رأس الآخر : ألافوازييه أم ديموريه ؟

كان الشاب الظريف يتمنى فى إخلاص « أن يجعل منى رجلا » ووعدنى بذلك وعد المؤمن الموقن ، ولكن قلة مالديه من الفرص ألجأته إلى أن لايهتم بى اهتماماً جدياً ، وكانت أنانيته وطيشه يحجبان عنه ماتقاسى أمه من جهد ومن حيلة فى سبيل تدبير المنزل ، أما أخوه البليد الصامت ، وكان تلميذاً فى الكلية ، فكان أقل منه شعوراً بما تقاسى .

كنت أعرف معرفة صحيحة ، منذ أمد بعيد ، صناعة المطبخ كيماوياً واقتصادياً

وكنت أرى فى جلاء تلك العبقرية التى تبذلها هذه المرأة فى كل يوم لتخدع معدات أبنائها ، ولتشبع فوق ذلك طفيلياً مثلى ، مظهره موحش قبيح ، وحركاته لاتسر ولكنها تسوء .

ولقد كان طبيعياً ، وأنا أعرف هذا كله ، أن تكون كل كسرة من خبز تؤدى إلى قطعة من حجر تسقط فى روحى ، فشرعت إذن فى البحث عن عمل . . .

كنت فى الصباح أغادر البيت كى لاأتغدى ، فاذا اكفهر الجو وعبس ، أويت إلى القبو فى الأرض السبخة . وهناك ، فى هذا القبو ، وأنا انشق رائحة الكلاب والقطط الميتة وأسمع أزيز العاصفة وأنين الريح ، لم ألبث أن فهمت أن الجامعة ليست إلا وهماً من الأوهام ، وحلماً من الأحلام ، وأن على أن أسافر إلى ايران ، وخيل إلى سلفاً أننى ساحر ذو لحية شهباء يستطيع أن ينبت حبة من القمح فيجعلها كالبطاطا ، ثم يجعل حبة البطاطا خمسة عشر رطلا ويخترع أنواعاً كثيرة من الكرامات فى تلك الأرض التى لن أكون فيها وحيداً فى كفاح متاعبها وأهوالها .

تعلمت كيف أحلم بمغامرات خارقة ، وبمشروعات باهرة ، ولقد أعانتنى أحلامى هذه على تحمل الآلام فى تلك الأيام السود ، وكنت ، وهى كثيرة مرهقة ، أسعى وأجهد نفسى فى تتبع هذه الأحلام واصطيادها ، ومع ذلك فقد كنت لاأنتظر قطعوثاً خارجياً يهبط على من السماء ، لاأرقب أبداً مصادفة سعيدة تصعد إلى من الأرض ، فتمخضت فى نفسى ثم ولدت إرادة حديدية جبارة وكنت كلما ازدادت الحياة عنتاً وظلماً أحسست أنى أشد قوة ، وأوفر ذكاء . أجل لقد تعلمت وتعلمت فى ساعة مبكرة أن مقاومة البيئة هى وحدها قادرة على خلق الانسان .

كنت إذا أرهقنى الجوع ، وكرهت أن أصوم ، أذهب إلى ضفاف الفولجا فأشتغل هناك بخمسة عشر أو عشرين « كوبكا » ، وأشعر أنى بين الحمالين والحفاة والنشالين مثل قطعة من حديد غمست فى نار حامية ، وكم أفعمتنى بجموعة من الانطباعات الحادة المحرقة ، وعصفت بى هناك كتل من رجال ، جامحة نزعاتهم ، فطيرة غرائزهم ، أحببت نفورهم من الحياة ، وسخرهم بالعالم كله ، ذلك السخر الذى ينالهم هم فى أنفسهم ، فلا يكترثون بها ولا يعبأون ، وكان ماعشته فى نفسى ، وما حيته من

حياة، يدفعان بى نحو هؤلاء الناس دفعاً عنيفاً ، ويزينان لى ما ألفوا من حياة ، ويحببان إلى أن أنغمس فيما انغمسوا فيه من بيئة مذيبة صاهرة ، وزاد فى ميلى إلى هـذا المحيط ما قرأت من روايات « الرصيف » ورواية « بريت هارت » منها على الخصوص .

ولكم بذل باشكين من جهد ، وأنفق من فصاحة ، فى سبيل إقناعى ؛ وكان باشكين لصاً مهنياً ، وطالباً قديماً من طلاب دار المعلمين ، وقد أصابه السل وهده الضرب القاسى ، ولطالما سمعته يقول لى :

ـ إنك كالفتاة فيما تفعل . أتخاف أن تضيع الشرف ؟ الشرف ثروة الفتاة وهو ثروتها الوحيدة ، ولكنه ليس لك أنت إلا عقالا ورسناً ، إن الثور شريف وهو لذلك يأكل الشوفان .

كان أزهر حليقاً كالممثلين ، تذكرنى حركاته اللدنة الدقيقة ، وجسمه الضئيل بقط صغير ؛ كان ينصب نفسه أستاذاً لى ومحامياً عنى ، وشعرت أنه يتمنى فى إخلاص عميق نجاحى وسعادتى . كان شديد الذكاء ، قرأ كثيراً من المؤلفات القيمة . وكان يعتبر رواية « كونت مونت كريستو » خير ما كتب دوماس .

ـ فى هذا الكتاب فكر وعاطفة .

كان مولعاً بالنساء ، إذا تحدث عنهن تحدث فى شهوة عنيفة ، فثار والتهب ، وأخذته رعدة تهز جسمه المحطم ، وطالما أزعجتنى هذه النوبات ، وطالما أصغيت إلى أحاديثه ، وهى تفيض بالقوة والصدق .

إذا رأيته سمعته يردد متمتماً ـ المرأة ، المرأة ، ثم تراه وقد ألهبت جلد وجهه الأصفر حمرة قانية ، وأضاءت عينيه الشهلاوين إشعاعة إعجاب .

ـ فى سبيل امرأة واحدة أفعل كل شىء . فى سبيلها وفى سبيل الشيطان لا أثم ولا حرج . أنا ، ما عشت ، مخمور أو عاشق : وهل أبدع الإنسان خيراً من الخمرة والعشق ؟

كان قصاصاً بارعاً ، ينظم للبومسات ، فى سهولة وسرعة ، أغانى مؤثرة عن الحب وآلامه ، وقد طارت شهرتها فى مدن الفولجا ، وغناها الناس على شاطئيه ، وهـذه

الأغنية المشهورة لبست إلا له :

أنا شوهاء دميمـــه مزق الفقر ثيـــابى
ولهـذا ليس لى زو ج فيالهف شـــبابى

وأحبنى أيضاً رجل آخر يدعى تروسوف حباً جماً ، وكان أحول ، أصابعه ناعمة موسيقية، رشيق القامة ، أنيق الزى ، يدير حانوت ساعات فى ناحية الأميرالية ، ولكنه يهتم أكثر ما يهتم بإخفاء المسروقات وتدفيرها.

قال لى مرة ، وهو يداعب فى وقار لحيته الفضية ، ويغمض نصف عينيه الخبيثتين النافرتين :

— أما أنت يابشكوف فلا تسرق ، أنا أعرفك ، وأعرف أن لك وجهة أنت موليها ، فأنت مثالى .

— مثالى ؟ ما معنى هذه الكلمة ؟

— المثالى هو الذى لا يحرص على شىء ، والذى ليس له من دهره إلا التطلع والفضول . أما هذا الحكم على ،فيما عرفت من نفسى ، فليس صحيحاً ، كنت أرغب فى كثير من الأشياء رغبة ملحة جامحة — ومن هذه الأمور التى كنت حريصاً عليها ملكة باشكين فى الحديث وبراعته ولسانه الذرب ولغته التى تشبه الشعر — وصوره والتفاتاته الفذة التى تبدهك وأنت لا تتوقعها .

تلك مقدمة إحدى مغامراته الغرامية :

فى ليلة ذات عيون قلقة مضطربة ، وجدتنى فى غرفة ، كأننى حدأة فى جوف شجرة ،وذلك فى مدينة سفياجسك .نحن فى فصل الخريف ،وفى شهر تشرين الأول (اكتوبر) والمطر يهطل فى رخاوة وكسل ، والريح تتنفس كما يتنفس التترى إذا أهين — فهو يسحب أغنية . . أغنية ليس لها نهاية .. أو — أو — أو — أو — أو — . . ها هى تقترب رشيقة ، خفيفـــة ، موردة كسحابة فى قلب الشروق وعيناها تلتمعان فى طهارة كاذبة . قالت لى فى صوت أبيض نق : « أنا ما أسأت إليك » .إنها تكذب وأنا أعرف كذبها ، ولكن دعنى أعتقد أنها صادقة . إن عقلى ليوقن

يقيناً ، أو على الصحيح إنه يحس إحساساً يكذبها ، ولكن قلبي لا يلوى على شيء من قناعة عقلي .

كان يقص أقاصيصه علينا، وهو يهتز اهتزازاً توقيعياً، وعيناه مغمضتان ، وأنامله تلمس في حركة عذبة رفيقه موضع قلبه في صدره. أما صوته فكان أصم لا لون له، وأما كلماته النابضة بالحياة فكانت تغني وتوقع موسيقى عندليب.

وكنت أيضاً أحسد تروسوف . فلكم تحدث عن سيبيريا ، وخيفا وبخارى ، حديث الجاد الرصين ؛ ولكم قص علينا حياة الكهان قصص المغتبط الخبيث. قال لي مرة ، كأنه يسكب في أذني سراً ، يحدثني عن اسكندر الثالث :

ـــ هذا القيصر خبيث .

لقد رأيت في تروسوف آثماً من أولئك الآثمين الذين ينقلبون في آخر الرواية إلى « أبطال كرام » .

كانت هذه الجماعة إذا اشتد الحر ، واختنق هواء الليل ، تخترق نهر كازانكا الصغير ، إلى حقول ضفته الأخرى ، وهناك تشرب وتطعم ، وهي بين هذا وذاك تتحدث عن أحوالها حيناً ، وعما لها من شئون ، وعما في عيشها من تعقيد، وتتحدث في غالب الأحيان عن ذلك التشابك الغريب الذي يسود علاقة الانسان بالانسان ، وتتحدث كذلك عن النساء حديثاً من نوع خاص فذ فيه أسى وحزن ، وفيه وجد وصبابة ، وفيه دائماً عاطفة انسان يريد أن يكتنه سراً في ظلمات تغص بالمفاجآت المخيفة .

قضيت بين هذه الجماعة ليلتين أو ثلاث ليال ، تمتد فوق سماء قاتمة ذات نجوم شاحبة ، وتلفني رطوبة خانقة يبعثها غدير تكتنفه أشجار الصفصاف، وفي هذه الظلمة التي يرطبها الفولجا تترامى أضواء النوافذ كعناكب مذهبة على الشاطئ الأسود ، وتبدو نوافذ الحانات والمنازل في قرية (أوسلون) الغنية وضاءة كأنها كتل وشرابين من نار. وهناك على صفحة النهر إيقاع أصم توقعه المجازيف، وعواء مثل عواء الذئاب تبعثه البحارة فوق مركب. وهناك في مكان ما، مطرقة تطرق الحديد، وأغنية تجر نفسها قاتمة. إنها روح تحتضر، وتموت في رفق. إنها تذرف القلب رماد الأسى والشقاء.

وأشجى من ذلك كله أن تسمع هؤلاء الناس تنساب أحاديثهم فى هدوء، يفكرون فى الحياة، وقد أفاض كل منهم القول فيما أهمه من أمر؛ ولا يكاد أحدهم يسمع أخاه. كانوا إذا جلسوا أو استلقوا تحت الأشجار، دخنوا أو شربوا شرب النهم الظمآن، ثم عادوا إلى مكان هنالك فى الماضى — على طريق الذكريات.

يقول واحد منهم: — كان .. ثم كان .. وقد سحقته ظلمة الليل على الأرض، ويسمعه من حوله من الناس فإذا سمعوه قالوا — دنيا .. ياما فى الدنيا .. كان .. يكون .. قد كان .. — كلمات كنت أسمعها فيخيل إلى أن العالم قد قامت قيامته، وأن كل ما يمكن أن يكون قد كان وأن لن يكون بعد ذلك شىء أبداً.

والعجب أن هذا كله كان يقصينى عن باشكين وتروسوف، وإن كنت أحبهما، ولقد كان منطقياً أن يقودنى ما قاسيته فى الحياة إلى السير على منوالهما، ولطالما دفعتنى إليهما خيبة أملى فى أن أرتقى وأتعلم، ولطالما شعرت فى ساعات الجوع والتعب والقلق أنى قادر قدرة تامة على أن أرتكب جريمة لن تنال «حق الملكية المقدس»، وحده، ولكن رومانطيقية الشباب حالت دونى ودون أن أجور عن قصد السبيل الذى كان على أن أسير فيه.

كنت قد قرأت عدا «بريت هارت» الانسانية، وغيرها من روايات الرصيف، عدداً طيباً من كتب محترمة، فأيقظت فى نفسى هذه المطالعات إيحاءات عن شىء غامض لم أدرك منه إلا أنه أكثر أهمية وأبعد غاية من كل ما رأيت، وأحدثت لى فى الوقت عينه علاقات جديدة وانطباعات جديدة؛ فقد كان طلاب المدرسة التجهيزية يجتمعون فى الأرض السبخة يلعبون، وملك على «جورى بليتنيف» نفسى؛ كان نحاسى اللون، مزرورق الشعر، كأنه يابانى، تملأ وجهه نقط سود كأنها آثار بارود، دائم المرح، ماهراً فى اللعب، لبقاً فى الحركة، تكمن فيه بذور عبقريات مختلفة. كان كأكثر ذوى المواهب من الروس، يلائم ما قدمت له الطبيعة من وسائل ثم لا يعبأ بإنمائها أو بزيادتها.

كان مرهف السمع، دقيق الإحساس فى الموسيقى، يعزف على الآلات الشعبية من شبابة، ومزمار وعازفة. ولم يحاول يوماً أن يعزف على آلة أكثر منها رقيا

وصعوبة.كان فقيراً، رث الثياب،ولعل قميصه المجعد الممزق،وسرواله المرقع،وحذاءه المثقوب كانت كلها تلائم تماما مافيه من لباقةومافى حركات جسمه من خفة وكياسة،وما فى إشارته من سعة وفيض .

كان أشبه برجل نفض عنه مرضاً طويلا موجعاً ، أو سجين أطلق صباح يومه . كل مافى الحياة عنده جديد لذيذ ، يثير فى نفسه مرحاً صاخباً عنيفاً ؛ كان يقفز على الأرض قفز المفرقعة على الرصيف يلقيها الطفل فى يوم عيد .

عرض على،وقد عرف مافى حياتى من شقاء وخطر،أن أسكن عنده،وعرض على أيضاً أن يعدنى للتعليم.ووجدتنى بعد قليل أقطن (ماروسوفكا)، ذلك المنزل الغريب الممراح، الذى عرفه طلاب قازان منذاً كثر من جيل،وهو منزل كبير متهدم نصفه ، يحتله الطلاب الجائعون ، وتحتله البنات،وتحتله أشباح من كل لون،أنضـــاهم العيش وأرهقتهم الحياة.

كان بايتنيف يسكن دهليزاً من دهاليز المنزل،يقع تحت سلم المستودع،قام فيه سريره، وقامت فى آخره عند النافذة ، منضدة وكرسي . وانتهى بذلك كل مالديه من أثاث، وكأن قد. أما هذا الدهليز فتطل عليه نوافذ ثلاث. يعيش وراء نافذتين منهـا فتيات لم أحصهن عدداً ، ويعيش وراء ثالثتهـا رياضى مسلول كان فيما مضى طالباً دينياً. كان رجلا نحيلا طويلا ، يبعث الرعب إذا رأيته،شعره كثيف مجعد،يلبس خرقاً بالية ، يلمع من ورائها أو من خلال ثقوبها جلده الأزرق، وجوانب من هيكلـــه العظمى لمعاناً رهيباً.

يظهر أن غذاء هذا الانسان الوحيد كان من أظافره، كان يقضمها قضما فتتفجر دماً. كان يرسم ويحسب،ليل نهار،وهو يسعل لاينقطع سعاله، سعالا أصم أخرس وخيل إلى البنات أنه مجنون،فخفن، وأشفقن عليه،فكن يلقين على بابه كسراً من خبز ،وقطعاً من سكر، وحفنة من شاى ؛ فإذا فتح الباب رآها فحملها وهو ينفخ كالحصان المتعب، وكان إذا لم يحملن إليه ماعندهن ـــ نسين أو لم يجدن ـــ صرخ فى صوت صخرى وهو يفتح باب الدهليز : ـــ خبزاً .. خبزاً ...

أما عيناه الغائرتان فى محجريهما المظلمين فكانتا تشعان بكبرياء مأفون ، يرضيه

أن يشعر هو بعظمته . ولقد كان يزوره أحياناً شيطان أحـــدب ضئيل ، معروق العظام،أحنف ، شعره أشهب ، وأنفه منتفخ ، تمتطيه عوينات كبيرة ، تعلو وجهه الأمعط ابتسامة داهية . كان،إذا دخل عليه ، أغلق الباب فى عناية وحذر ، ثم جلسا ساعات طويلة . وهما صامتان صمتاً غريباً . وحدث مرة واحدة فقط أن استيقظت فى هدأة الليل على صرخة ناقة داوية يرسلها الرياضى :

ـــ أما أنا فقد قلت لك إنها سجن . أجل الهندسة سجن ، قفص ، جحر فأر .

نعم سجن . . .

وردد الأحدب الصغير ، وهو يضحك ، كلمة غريبة زمناً طويلا ، ولكن الرياضى لم يمهله أن صرخ فى وجهه : أخرج ، لا ردك الله .

وتدحرج الزائر ، وهو يدمدم ويصفر فى الدهاليز ، ملتفعاً بجلبابه الواسع ، بينما وقف الرياضى على عتبة الباب طويلا مخيفاً ، تغور أصابعه فى شعره الأشعث ، وهو ينادى :

ـــ أوقليدس غبى ـــ غ . . . . ى .

وضرب الباب ضربة هائلة ألقت بما ألقت على الأرض فتحطم وتناثر .

وعلمت ، بعد حين ، أن هذا الرجل يريد ، مستنداً إلى الرياضيات ، أن يثبت وجود الاله ، ولكنه مات قبل أن يوفقه الله تعالى إلى ذلك .

الفصل الثانى

كان بليتنيف يعمل ليل نهار — يدرس نهاراً — ويشتغل مصلحاً فى مطبعة من مطابع الصحف ليلا ، ويتقاضى أجراً أحد عشر كوبكا . وكنت إذا رجعت بخفى حنين ، صفر اليدين ، عشنا كلانا على أربعة أرغفة فى اليوم، واشترينا بكوبكين اثنين شاياً، وبثلاثة سكراً ، ولقد كنت فى شغل عن العمل بالتعلم ، وكم لقيت عنتاً فى تمثل العلوم ، وخاصة النحو ، فقد كان يقتلنى بضيقه الإبليسى وبتحجره ، ولقد كان عسيراً على، كثيراً أن أحشر فى إطاره لغتنا الروسية الصعبة الحية ، بما فيها من لدونة لعوب.

وعرفت بعدحين ، أنى — ويا لسعادتى — قد بكرت فى دراستى تبكيراً ، وأنى لو اجتزت ما يطلب إلى المدرس أداؤه من امتحانات ، فلن أعين ، من أجل سنى .

عرفنى ايفيرنوف آنذاك إلى السيد إ . بيريزين — الذى أصبح فيما بعد نائب رئيس لمجلس الدوما — وقد كانت فاتحة علاقاتنا محاطة بألغاز وأسرار جعلتنى أتوقع حدثاً جليل الخطر .

سار بى ايفيرنوف إلى خارج المدينة فى حقل أورسكى ، وأنبأنى فى الطريق أن على أن أكون متواضعاً ، وأن أكتم السر . ثم أشار إلى شبح شاحب يمشى مشياً وئيداً فى الحقول المقفرة ، وقال لى وهو يتلفت حواليه : — هاهو فاتبعه ، فإذا وقف فاقترب منه وقل له إنى أنا الزائر الجديد .

أنا أعلم أن الأمور السرية جذابة دائماً — ولكنها بدت فى هذه المرة مضحكة ؛ وتطلعت فرأيت أمامى ، فى هذا اليوم القائظ البديع ، رجلا ضئيلا يترنح وحده فى الحقل كما تترنح النبتة من العشب . ولم أر بعد ذلك شيئاً .

وتواقفنا عند باب مقبرة ورأيت من خلال القبور ، فى ظل الأشجار الكثيفة ، شاباً قاسى الوجه ، صغير القسمات ، قوى النظرات ، مستدير العينين كأنهما عينا عصفور، يرتدى معطف تلميذ تجهيزى ، استبدل بأزراره المعدنية أزراراً سوداً من عظم

وعلى قبعته إشارة ؛ ولقد أوحى إلى ،وأناأنظر إليه أن فى كيانه كله شيئاً لا أعرفه . شعرتأنه قد نتف ريشه وهو لايزال زغباً ، وأحسست أنه عجل فاتخذ مظهر الرجل الناضج نضجاً كاملا ، وأنه إذا تحدث فانما يتحدث فى لهجة الرجل الخطيرذى الأعمال، فهو يتكلف الجفاف والجفاء ، ولقد كرهته كله : كل خالجة فيه وكل نابضة .

سألنى فى قسوة عماقرأت ، ثم عرض على أن أشترك فيما تقوم به حلقتهالصغيرة من أعمال ، فقبلت ، ومضى أمامى متلفتاً مترقباً .

أما أعضاء هذه الحلقة فهم بليتنيف نفسه وثلاثة أو أربعة معه من الفتيان ، كنت أصغرهم وأقلهم استعداداً لدراسة كتاب « آدم سميث » ومقدمته التى كتبها تشيرنيشيفسكى. كنا نجتمع فى بيت طالب من طلاب دار المعلمين يدعى ميلوفسكى . وقد كتب بضع روايات باسم ايليوفسكى ، ثم انتحر بعد خمس سنوات أو ست ، ولطالما التقيت بعد بمن مل الحياة فغادرها طائعاً مختاراً .

كان ميلوفسكى سوداوياً ، حيياً فى تفكيره ، حذراً فى كلامه ، يسكن قبو بيت نذر،ويشتغل نجاراً ليحافظ على التوازن والانسجام بين الجسد وبين الروح.ولقدمللت صحبته، ومللت معها كتاب سميث ، فقد بدت لى المبادىء الأساسية فى علم الاقتصاد واضحة تمام الوضوح ، مألوفة تمام الإيلاف ، ولقد تمثلتها رأساً ، فهى منقوشة على جلدى ، وكنت أرى من العبث أن يؤلف مثل هذا الكتاب الكبير ، وأن تخترع مثل تلك الكلمات الصعبة فى موضوع يدرك جميع عناصره وخفاياه كل من وهب نفسه ليضمن ما يريد للناس من خير ، وليحقق ما يتمنى لهم من سعادة .

وكنت إذا حضرت هذه الدروس أقبع فى زاوية من زوايا هذا الثقب الذى تفوح منه ريح الغراء ، أراقب الخنافس تتطارد فوق الحائط القذر ، وأبقى كذلك ساعتين ، أو ثلاث ساعات .

تأخر بيريزين مرة عن موعده ، فظننا أنه لن يأتى ، وأعددنا مأدبة ، بما تيسر ، فيها خمر ، وفيها خبز ، وفيها أيضاً حلوى ؛ وبينما نحن منهمكون فيما نحن فيه ، مرت أمام النافذة قدما الأستاذ ؛ ولم نكد نخفى الخمرة تحت المنضدة حتى كان بيننا ، يشرح آراء تشيرنيشيفسكى شرح العالم الخبير ؛ أما نحن فتماسكنا كالأصنام ننتظر

اللحظة التى تندلق ، فيها الخمرة ، ولقد عثر بالزجاجة كاذبنا فسالت ، ونظر إليها ثم لم ينبث ببنت شفة . ياليته انفجر ساخطاً ، إذن لهان علينا ما نلقى .

صمت مثل صمت القبر، ووجه قاس عابس ، وعينان زائغتان مطبقتان، لشد ما ملأنى ذلك كله رعباً وهلعاً . كنت قد اعتبرت فى الحلقة « عنصر فساد » فأجلت أنظارى فى أوجه رفاقى وقد أحالها الخجل ، وشعرت إنى مجرم فى ذات راهبنا — ولقد رحمته رحمة صادقة مخلصة ، على الرغم من أنى لم اشترك فى شراء ماأضعنا من خمر .

أزعجتنى هذه الدراسات وأرهقتنى ، وكان أحب إلى أن أزور تلك القرية التترية وأجالس سكانها الطيبين الأغرار ، يحيون حياة فذة ، ويتحدثون بلغة تغيرت عما الفنا من لغة ، فأضحكتنا ، وأن أستمع عند المساء ، من أعلى المآذن الشاهقة إلى أصوات المؤذنين الباكية تدعو الناس إلى المساجد ، وكان يخيل ألى أن التتر يحيون حياة أخرى أجهلها ، بعيدة عما أعرف من حياة لاأرضاها .

أحببت الفولجا ، وأحببت موسيقاه ، التى تبعثها الحياة العاملة النشيطة ، والتى ماتزال تبعث فى نفسى نشوة لذيذة ، نشوة ما بعدها نشوة . إنى ماأزال أذكر تماماً ذلك اليوم الذى أحسست فيه ، لأول مرة ، بما فى العمل من شعر بطولى ، ولعلى ذاكر بعض ماأحسست به .

ارتطم ، فى قازان ، مركب كبير بصخرة فتكسرت جوانبه ، وكان يحمل بضاعة من فارس ، واشتركت فى إنقاذه .

نحن فى أيلول ، والريح صرصر عاتية ، والأمواج تقفز كئيبة على النهر الأسمر ، تنزع الريح ذراها ، وتسق بها النهر مطراً بارداً . وقف الحمالون ، وكنت فيهم ، وكنا خمسين برح بهم الحزن والأسى ، على ظهر مركب فارغ يجره محرك يقذف فى المطر شظاياه الحمر .

أقبل الليل ، وأظلمت السماء وارتدت ثوباً من الرصاص ، ثم استلقت على النهر وكنا نصخب ونلعن ، ونشتم الريح والمطر والحياة ، ونأوى إلى الجسر نحاول أن نتقى البرد والرطوبة ، ماستطاعنا إلى ذلك سبيلا ، وخيل إلى وأنا أجيل طرفى فى هؤلاء الناعسين الكسالى أنهم لايقدرون على شىء ، وأن حمولة المركب هالكة لامحالة .

بلغنا موضع الصخور من النهر ، وقد انتصف الليل ، وصاف المركب الفارغ المركب المحطم ، وصرخ فى الحالين كبيرهم ، وهو عجوز معروق العظام قاسى الطبع ، ظاهر التكلف ، مجدور الوجه ، عيناه وأنفه كأنهما فى رأس عقاب ؛ صرخ ، وهو ينزع قبعته عن رأس أصلع ، فى صوت حاد كأنما هو صوت امرأة : صلوا ياأولادى.

وتجمع الحمالون ، فى الظلمة ، على جسر المركب . يهمهمون همهمة الدببة ، وناداهم كبيرهم وقد أتم صلاته قبلهم جميعاً :

— المصابيح ، يا شجعان ، هاتوا برهانكم إن كنتم عاملين ، صبراً ، صبراً يا أولادى ! باسم الله . . .

ولقد أعطى الرجال الثقال الكسالى المبللون برهانهم أنهم عاملون ، ووثبوا إلى المركب الغريق ، هاتفين ، صائحين ، ساخرين ، وتطايرت أكياس من الأرز ، وصناديق من الزبيب ، وطرود من الفرو ، من حوالى ، خفيفة كأنما هى وسائد من ريش ، وتراكضت هنا وهنالك أشباح محنية ظهورها ، يشجع بعضها بعضاً ، بصيحة أو بمكاء أو بتصدية أو بيمين أو بشتيمة .

أليس عسيراً أن يصدق المرء أن هؤلاء الكسالى المتراخين ، وقد كانوا قبل لحظات معدودات ، يشتمون الدنيا ناقمين ، ويلعنون المطر والريح ، قادرون على أن يعملوا فى مثل هذا اليسر ، وفى مثل هذا المرح ، وفى مثل هذه الجودة ؟

برد الجو ، وانهمر المطر ، واشتدت الريح ، فانتزعت القمصان ، وضربت بالكوفيات الرؤوس ، وكشفت عن البطون ، وما يزال الرجال السود يتحركون ، فى هذه الظلمة الرطبة ، يدغدغها ضوء ستة قناديل شاحبة ، فيجتازون الجسر فى خرس ، ويعملون كأنهم جياع إلى العمل ، وكأنهم يترقبون منذ أمد بعيد لذة الصراع مع أكياس يبلغ واحدها مائة رطل أو يزيد ، ولذة الجرى بها وهى على ظهورهم مستلقية مستسلمة .

كانوا يعملون لاعبين ، وقد أفعمتهم حماسة مثل حماسة الطفل واندفاع كاندفاعه ، واستبدت بهم خفة لا تعد لها فى لذتها وعذوبتها الا قبلات النساء .

وجاء رجل من أقصى المدينة ، طويل اللحية ، يرتدى معطفاً عازلا ، وكأنه هو

صاحب البضاعة أو نائبه ، وصرخ وقد هزته نشوة العمل :

— لكم عندى سطل من الخمر — لا بل سطلان . . . إلى العمل عافاكم الله .

وتصاعدت من كل الجنبات أصوات متشابكة فى الظلام :

— لا بل ثلاثة — طيب . لكم ما شئتم وإلى العمل . . .

واشتدت عاصفة العمل متصاعدة نامية .

وكنت أنا أيضاً أمسك بالأكياس ثم أحملها وأقذف بها ، وأركض فأحمل كيساً آخر ، وخيل إلى أنى أنا وكل ما يحيط بى ، قد أخذنا فى دورة رقص غاضب ، وأن هؤلاء الناس قادرون على العمل هكذا فى شكل هائل مخيف ، وفى مرح دائم لا تعتوره راحة ولا فتور ، شهوراً لا بل سنين ، وأنهم لو شاؤوا لأمسكوا بالمدينة كلها من أجراسها ومن مآذنها ثم حملوها أنى أرادوا ، وحيثما أرادوا .

لقد غمرتنى هذه الليلة بسرور لم أشعر بمثله قط ، وألهبت روحى برغبة أكيدة فى أن أبقى ما حييت فى هذه النشوة من العمل ! ، وهى نشوة زادت فكادت تكون نصف جنون .

ورقصت الأمواج ، وتحطمت على جوانب المركب ، وألهب الغيث الجسور بسياطه ، وعبثت الريح بالنهر ، وتراكض الرجال ، فى الضباب الأشهب الذى بعثه الفجر ، مبللين ، أنصاف عراة ، غير كسالى ولا وناة ، يصرخون ويضحكون ، فخورين بقوتهم ، معجبين بعملهم .

ها هى الريح تمزق حجب الغيوم الكثيفة ، وهاهو شعاع الشمس يسطع فى زرقة السماء ، وهاهى هذه البهائم الممراحة تستقبلها بصرخة واحدة وهى تفتل شاربيها فوق أشداقها الطيبة . أى انسان يستطيع أن يمنع نفسه من ضم هذه الحيوانات ، ذوات القائمتين ومن تقبيلها ؟ إنها حيوانات ذكية فيما تعمل ، ماهرة فيما تصنع ، وإنها لتغرق فى العمل حتى تنسى نفسها . وهل يستطيع شىء فى الوجود أن يقاوم هذه الطاقة من العمل ، وهذه الفورة من القوة إذا تفتحت راضية مطمئنة ؟ إنها قادرة على خلق المعجزات ، قادرة على أن تهب ، فى ليلة واحدة ، ما يملأ الأرض كلها قصوراً رائعة ومدناً زاهرة تخجل منها المدن التى جاء ذكرها فى الأساطير .

وتأمل شعاع الشمس عمل هؤلاء الرجال دقيقة، أو دقيقتين ، ثم حجبته الغيوم ، فغرق فيها كما يغرق الطفل فى اليم — وتحول المطر إلى زوبعة .

وسمعنا صوتاً من الأصوات يقول : كفى.

وغمرته أصوات مرحة : — لك ماتريد من كفى وكفى ...

نحن فى الساعة الثانية بعد الظهر — وقد نقلنا كل مافى المركب من بضاعة، نقلها هؤلاء الرجال أنصاف العراة ، تحت الزوبعة، وفى وجه الريح العاتية، نقلوها ولم ينالوا فترة من راحة ؛ لقد فهمت الآن فهماً عميقاً ، وعرفت اليوم معرفة صحيحة مقدار غنى أرض الانسان بهذه القوى الجياشة الزاخرة .

ومضينا إلى الباخرة ونمنا كأننا سكارى ، ثم بلغنا قازان فتدفقنا على الرمل ، موجة من الطين الأكدر ، ومشينا إلى الحانة نشرب سطول الخمر الثلاثة .

رآنى باشكين اللص فاقترب منى ، ثم ألقى على نظرة ممتحن منقب ثم سألنى :

— مابك؟ — فأخبرته خبرى فى حماسة ، فأصغى إلى ، ثم قال فى اشمئزاز واحتقار وهو يتنهد : — أبله ... معتوه .

ومضى ينساب بين الموائد ، يتهادى مثل السمك ، وقد جلس الحمالون يهتفون ، وغنى واحد منهم فى إحدى الزوايا بصوته العريض هذه الأغنية المكشوفة :

قد كان ذلك ليلا والبنت فى البستان

ودوت أصوات الرجال ، وعزفت القبضات على الموائد :

عين الخفير رأتها مغمضة الأجفان

كانوا يغنون ويصفرون فى عاصفة من كلام ، مكشوف ، بائس، ليس له مثيل على وجه الأرض .

عرفت اندره دورانكوف ، وهو صاحب دكان صغيرة ، ضائعة، فى نهاية شارع ضيق فقير ، على ضفة غدير غمره ماحمل من رواسب .

كان دورانكوف ضامر اليد ، ذا وجه طيب ، وعثنون بارز ، وعينين ذكيتين وكانت مكتبته أحسن مكتبات المدينة وأجمعها للكتب النادرة المحرمة، وكانت تتداول هذه الكتب أيدى الطلاب فى مدارس قازان وأيدى النازعين إلى الثورة فيها .

أما دكانه فقد كانت ملحقة بمنزل صراف على مذهب سكوبتس . يتصل بابها بغرفة واسعة تنيرها نافذة تطل على باحة الدار ، بنور شاحب ، وتتصل هذه الغرفة أيضا بمطبخ صغير يختفى وراءه ، بعد دهليز أسود يصل بين الملحق والمنزل ، مكان تتوارى فيه المكتبة الغالية وهى تضم عدداً وافراً من الكتب منها «الرسائل التاريخية» لـ « لافروف » و«ما العمل ؟ » لتشيرنيشيفسكى ومقالات « بيساريف» وكانت كلها مخطوطة فى دفاتر سميكة أهرأها طول استعمالها.

دخلت حانوت دورانكوف ، وكان مشغولا بزبون ، فأشار برأسه إلى باب الغرفة أن أدخل فدخلت ورأيت فى الغبش «سيرافان دوساروف»، وكان راكعاً فى زواية من زوايا الغرفة يصلى صلاة قانت منيب ، وأحسست فى هذا العجوز شيئا غير قليل من التناقض والتنافر. قالوا لى أن دورانكوف شعبى، وكنت أرى أن الشعبى ثورى ، وأن الثورى لا يؤمن بالله ، وخيل إلى أن هذا الشخص التقى من زوائد هذا البيت .

أنهى الشيخ صلاته ، وفرك شعر رأسه ولحيته ، وألقى على نظرة فاحصة ، ثم قال : — أنا أبو اندره ، ولكن من أنت ؟ لقد ظننت أنك طالب متخف .

وقلت . — ولم يتخفى الطلاب ؟

وأجاب الشيخ فى دعة . — لست أدرى ، لطالما أرهقوا أنفسهم فى التخفى ثم ظهروا .

إن الله لا تخفى عليه خافية .

ومضى الشيخ إلى المطبخ وجلست عند النافذة أحلم . وإذا بصوت ناعم يرن فى أذنى — أهذا هو ؟

وتطلعت إلى الباب فرأيت فتاة بيضاء الثياب ، سوداء الشعر ، صفراء الوجه ، تبرق فيه عينان زرقاوان ضاحكتان ، وخيل إلى أنها ملك كريم .

— ولم خفت ؟ وهل أنا ممن يخيف ؟

كان صوتها ذا ألوان وأنغام ، ومشت نحوى على حذر وفى بطء ، وهى تستند إلى الحائط فكأنها تمشى على شريط يمتد مترنحاً فى الهواء ، لا على أرض وتراب ،

وزادت مشيتها القلقة هذه ، ما بينها وبين العالم العلوى من شبه وتقارب . كانت فرائصها كلها ترتعد وترتجف وقلت لعلها تمشى فوق إبر مغروسة ، أو لعل الحائط يحرق أناملها الرخصة الجامدة .

وقفت أمامها لاأبدى، ولا أعيد ، وتملكنى شعور فذ باضطراب عجيب وعطف غريب ، كل ما فى هذه الغرفة سحرى خارق .

جلست الفتاة على الكرسى فى حذر ، وقلت لعلها تخشى أن يطير قبل أن تجلس عليه ، ثم حدثتنى فى بساطة ليست ولا يمكن أن تكون فى مخلوق . قالت إنها لزمت فراشها ثلاثة أشهر مشلولة اليدين والقدمين ، وأنها لم تمش إلا منذ خمسة أيام — ثم غنت وهى تضحك — مرض عصبى .

أذكر أنى كنت أتطلع إلى تفسير آخر طريف ، فماذا يصنع المرض العصبى بمثل هـــذه الفتاة ؟ فى هذه الغرفة الغريبة تزدحم فيها الأشياء فى حياء . ويسطع فيها أمام صور القديسين نور قنديل تستلقى ظلال سلاسله النحاسية على غطاء شديد البياض فوق مائدة طويلة .

وعادت تقول فى صوتها الملون ألواناً طفلة :

— سمعت عنك فأردت أن أراك لأعرف كيف تكون .

ثم نظرت إلى نظرة لا أستطيع إحتمالها ، ووجدت فى عينيها الزرقاوين شيئاً لم أعرف قط مثله فى عمقه ونفاذه . كيف السبيل إلى الحديث مع هذه الفتاه ؟ لاسبيل ولا طريق وها أنا خائف صامت أستر خوفى وصمتى فأحدق فى صور هرتزن وداروين وجاليباردى .

وجاء من الدكان فتى فى مثل عمرى أشقر ، فى عينيه وقاحة ونادى :

— أين أنت يامارى ؟ ولم خرجت ؟

وقالت الفتاة : هذ أخى أليكس . كنت طالبة فى مدرسة القابلات فمرضت و . . ولكن لم أنت صامت ؟ أتخجل منى ؟ أتخاف ؟

وجاء أندره دورانكوف ويده الضامرة تحت معطفه ، فداعب شعر أخته الناعم وهو ينبشه ويشعثه ، ثم سألنى — وهو غير مصغ إلى — ماذا أريد أن أصنع ؟

ودخل شاب ثالث ضخم الجثة ، أشقر الشعر ، أخضر العينين فنظر إلى نظرة قاسية ثم تأبط ذراع الفتاة البيضاء وخرج بها وهو يقول لها : كفى يا ماشا .

وخرجت أنا كذلك وقد علت وجهي حمرة الخجل والاضطراب — وعدت فى مساء اليوم التالى إلى مكانى من الغرفة نفسها — وأجهدت نفسى لأفهم كيف ولم يعيش فيها الناس ؟ الا أنهم ليحيون حياة شاذة غريبة ؟

هنا يجلس ستيفان اندريفتش — وهو شيخ طيب النفس ، كثير اللطف ، شديد البياض فكأنه من بياضه شفاف . يجلس فى زاويته ينظر منها إليك ، ويقلب شفتيه يتلمظ ثم يبتسم إبتسامة عذبة تراها فتظن أنها تقول لك :

— لا مساس .

كان خائفاً خوف الأرنب ، يترقب دائماً أن يحل به حادث أو تقع فى ساحته نائبة ، ولست فى حاجة إلى جهد قليل أو كثير لتتبين ذلك فيه ، فهو شديد البيان .

أما أندره — ذو اليد الضامرة — فتراه يدور فى الغرفة ويطلع فى مشيه ، وعلى وجهه إثارة من حزن ، وعلى شفتيه — رغم ذلك — إبتسامة مثل إبتسامات الأطفال إذا عفوت عنهم بعد هفوة إرتكبوها — وكان يلبس ثوباً رمادياً قسا صدره وذيله فغدا كلحاء الشجر وغمرته ألوان مختلفة من السمن والدقيق . وكان له أخوان : أحدهما أليكس وهو كسول ثقيل ، يعينه فى عمله ، والآخر إيفان وكان طالباً داخلياً فى دار المعلمين يقدم إذا حان العيد فيلبس ثياباً نظيفة ويصفف شعره تصفيفاً جميلا ، فكأنه موظف قديم متقاعد .

أما ماريا أخته فكانت تقطن المستودع وقل أن تخرج منه ، فإذا خرجت ورأيتها شعرت بقلق بالغ لاعهد لى به وأحسست أنى مقيد بقيود لاأراها ، ولكنها مع ذلك تعصرنى عصراً !

وكان لاندره صديقة تشرف على تدبير منزله ، وهى إمرأة فارعة القامة نحيلة الجسم وجهها وجه لعبة من خشب ، وعيناها قاسيتان كأنهما عينا راهبة غير صالحة . وكنت ترى ابنتها الشقراء ناستيا تروح وتغدو ورائها حيناً بعد حين ، فأذا نظرت اليك بعينيها الخضراوين إضطربت فتحتا أنفها الأقنى مختلجتين .

الفصل الثالث

أولئك هم أصحاب منزل دورانكوف فى الظاهر ، أما أصحابه فى الواقع فكانوا طلاب الجامعة والمعاهد الدينية والمدارس الاعدادية ، أعنى أولئك الناقمين الذين جعلوا همهم سعادة الشعب الروسى وضمان مستقبله . كانوا إذا أرهقتهم الكتب وملتهم مقالات الصحف ، وملأتهم حوادث المدينة وأخبار الجامعة هرعوا مساء إلى دكان دورانكوف الصغيرة ، واثالوا من كل حدب وصوب فى قازان ليستغرقوا فى جدال عنيف أو ليبث بعضهم بعضا آلامه ، وأشجانه ، فى صوت خافت لاتسمعه إلا زاوية من الزوايا .

كانوا يحملون كتباً ضخمة ، ثم يشيرون بأصابعهم إلى مقاطع منها ، فيقرؤونها ثم يتجادلون وقد أعلن كل منهم ما عرف من صواب ، وما أدرك من حق استهواه وملك عليه سبله .

وكنت لا أدرك طبعاً هذه المناقشات إدراكاً كاملا ، ولكم ضاعت الحقائق منى فى أمواج من الكلمات ، كما تضيع نقاط الدهن فى حساء الفقير الناحل .

ذكرت بهؤلاء الطلاب بعض أصحاب المذاهب من الجبريين على ضفاف الفولجا ولكنى لم أكد أذكر ذلك حتى بدا لى هؤلاء الطلاب وكلهم عاقد النية على إصلاح الحياة . نعم إن إخلاصهم قد كان يتخبط فى سيل متدفق من الألفاظ ، ولكنه لم يغرق فيه أبداً . ولقد كنت أرى فى جلاء ما يجتهدون فى حله من قضايا ومشكلات واهتم بما وصلوا إليه من حلول ، ولطالما خيل إلى أن أحاديث هؤلاء الطلاب انما هى تفسير لما فى عقلى من أفكار خرس ، تحمست لها حماسة ذلك الأسير اذا وعد بإطلاق سراحه .

أما الطلاب فكانوا ينظرون الى كما ينظر النجار الى قطعة من خشب قد يجعل منها خلقاً جديداً . كانوا إذا نظروا الى قال بعضهم لبعض « مادة من المواد الخام »

ثم فرحوا وطربوا لذلك كأنهم أطفال وجدوا قطعة من نحاس فوق رصيف .

ولست أدرى لما كان يحزننى أن أدعى « مادة من المواد الخام » أو أدعى « ابن الشعب » وبدت لى الحياة راية (١) قاسية — وضقت ذرعاً بهذه القوة التى توجه تطور تفكيرى هذا التوجيه القاسى العنيف ، وهكذا فقد رأيت فى واجهة احدى المكتبات كتاباً تألف عنوانه من كلمات كنت أجهلها هى : « حكم ومبادىء » فأخذنى منها ما أخذنى من رغبة أكيدة فى مطالعتها — ورجوت طالباً من طلاب المعاهد الدينية أن يعيرنى هذا الكتاب .

— ما شاء الله . . . تلك هى الحماقة ياشيخى ، اقرأ ما نعطيك يا مولاى . . .

ولا تمدن عينيك الى ما متعنا به غيرك مما لا تستطيع أنت اليه سبيلا .

كان المطران المنتظر يصرخ وقد علت ثغره ابتسامة هزء قاتل أثارتنى — ولقد اشتريت الكتاب رغم أنفه وانفقت عليه كل ما كسبت من مال وأتممت ثمنه بمال استدنته من أندره دورانكوف .

كان هذا أول كتاب محترم أشتريه وما يزال عندى ذكرى .

وليس ذلك كل ماقاسيت فقد حدث أن قرأت مقدمة فى علم الاجتماع وشعرت أن الكاتب قد غلا فى أهمية دور « العروق الرعاة » فى تنظيم الحياة المتمدينة وأهمل العروق البدوية الصيادة وأخبرت طالباً بما يساورنى من شكوك ، وكان من طلاب الفلسفه ، فحدثنى ساعة كاملة ، وهو يجهد نفسه ليهب لوجهه الأتشوى سيماء من هو ذو شأن ومكانة ، عن حق النقد ثم قال لى :

— ان من أحب أن يتمتع بحق النقد وجب عليه أن يكون مؤمناً بحقيقة من الحقائق . فبم أنت مؤمن ياصاحبى ؟

كان هذا الطالب الفيلسوف يقرأ فى كل مكان . وفى الشارع نفسه ، يمشى على الرصيف وقد غطى وجهه كتابه — ويصطدم بالمارة فلا يكلف نفسه عناء النظر اليهم — كان يسكن فى مستودع فأصابه التيفوس ولكنه لم يمنعه من أن يصرخ دائماً

---

(١) زوجة الاب

— يجب أن تتحد فى الأخلاق عناصر الجبر والاختيار اتحاداً منسجما منسجما.. منـ... منـ... منـ...

كان يشكو دائماً — وهو الناحل الرقيق — من فقر الدم ، ولقد زاد فى ارهاقه بحثه العنيد عن حقيقة ثابتة مكينة . وكان عزاؤه الوحيد ، بل كانت لذته الوحيدة فى المطالعة ، فإذا ظن أنه وفق بين المتناقضات فى مفكرين اثنين عظيمين أشرقت عيناه الجياتان ببسمة طفل سعيد .

رأيته فى خركوف بعد سنوات عشر ، وكان قد نفى إلى « كيم » خمس سنوات، ثم عاد إلى دراسته فى الجامعة . ووجدت أنه لا يزال يعيش فى قرية من قرى النمل « من الأفكار المتناقضة » . ولقد قتله السل وهو يحاول أن يوفق بين ينقشـــه وماركس ورأيته ينفث الدم وينادى وقد ضغطت أصابعه الباردة على كفى :

— ليس من سبيل إلى العيش بلا فرضية .

ومات ، وهو فى الترام ، فى طريقه إلى الجامعة .

لقد عرفت كثيراً من هؤلاء الشهداء الأبطال — شهداء الفكر — وما تزال ذكراهم ماثلة أمام عينى ، مقدسة فى قلبى .

كان يجتمع عند دورانكوف اثنا عشر أو أربعة وعشرون رجلا ، وكان فيهم يابانى يدرس اللاهوت ، يدعى « باتاليجون ساتو » وكان فيهم أحياناً شيخ ذو صدر عريض . ولحية كبيرة كثيفة ، ورأس يحلقها على الطريقة التترية . ويغطيها بقبعة قوزاقية تنحدر أطرافها إلى ما تحت فكيه . كان يجلس صامتاً فى زاوية من الزوايا يدخن غليوناً قصيراً وينظر إلى الناس أجمعين نظرة هادئة تنبعث من عينين شهلاوين توحيان إليك أنهما تقرآن ما فى نفسك . وطالما وقعت نظراته على ووقفت عندى لا تفارقنى ، فأشعر أنه — وهو الجاد الرصين — يزن عقلى ، فأخافه ولا أرى لخوفى ما يبرره . أدهشنى صمته وودت لو يتكلم . لقد كان من حوله يتحدث حديثاً عالياً حازماً ، ولكم سررت بالحديث وكنت كلما زادت كلماته حزماً زدت له حباً . ولقد بقيت ما شاء الله أن أبقى وأنا لا أعرف ما وراء الكلمات الحاسمة الصارمة من أفكار فقيرة خلابة خداعة . ولكن ماذا يخفى وراء صمته هذا العملاق ذو اللحية؟

كان كل اسمه « الاكرانى » ولعل أندره وحده يعرف اسمه الحقيق وسألت عنه فعرفت أنه عاد منذ أمد قريب من منفاه فى مقاطعة أركونسك ، وأنه قضى فيه عشرة سنوات كاملات . ولقد ضاعف هذا من إهتمامى به ، ولكن هذا الاهتمام لم يبلغ من الشجاعة حداً يجعلنى أقترب منه وأتعرف إليه ، على أنى كنت أرانى لاأستحيى من معرفة الناس — وأنى على العكس فضولى فضولا مرضيا — ظامىء دائماً إلى معرفة كل شىء وفى أقصر زمن . ولعل هذا الخلق هو الذى حال بينى وبين أن أركز إهتمامى تركيزاً جدياً فى أمر واحد ، طوال حياتى .

كانوا إذا اجتمعوا تحدثوا عن الشعب ، فأشعر ، وقد أخذتنى الدهشة وفقدت ثقتى بنفسى ، أنى لا أستطيع أن أفكر فى هذا الموضوع على النحو الذى يفكرون . كان الشعب عندهم مهبط الحكمة ، ومنبع الجمال الروحى ، وموئل الطهر ، وكائنا الهيا ليس كمثله شىء ، وأنه قوام كل جميل وعادل وعظيم .

أما أنا فلم أكن أعرف هذا الشعب . كنت أرى نجارين وحمالين وبنائين ، وكنت أعرف يعقوب ، وأوسيب ، وجريجوار ، كنت صديق فلان وفلان ، ولكن ما بالهم يتحدثون إذا تحدثوا عن شعب فريد قائم بذاته ، يضعون أنفسهم دونه ، ويخضعون لارادته ؟ كان يخيل إلى على العكس أن جماعة دوراتكوف هى التى يتمثل فيها جمال الفكر وقوته ، وأنها هى التى تلتهب رغبة كريمة نبيلة فى الحياة وفى بناء الوجود على قواعد الانسانية الجديدة والحب العميق .

أنا لم أعثر يوماً بين أولئك « المسوخ » الذى عشت فيهم حتى اليوم ، على هذا الحب — حب الانسانية — ولكنه يدوى هنا دائماً فى كل كلمة ، ويسطع هنا دائماً فى كل نظرة .

كانت خطب عباد الشعب تهبط على قلبى برداً وسلاماً . وكان عزائى أن استمع إلى الأدب الحى العنيف يصف حياة القرية القاتمة ويدعو إلى إنقاذ الفلاح الشهيد . وشعرت أن ليس فى مقدور إنسان أن يكشف عن معنى الحياة ، ويفهمها إلا إذا أحب الإنسانية حباً عنيفاً ، وأن هذا الحب وحده هو الذى يمده بما أراد من طاقة يتطلبها اكتشاف معنى الحياة وفهم مغزاها .

ومن أجل ذلك كله تركت التفكير بنفسى لأهتم بغيرى .

أخبرنى دورانكوف مطمئناً إلى ، واثقاً بى ، أن الأرباح المتواضعة التى يجنيها من دكانه ينفقها كلها على إعانة من « وضع سعادة الشعب فوق كل شىء فى الوجود » ولقد كان بينهم كالراهب فى صومعته يملؤه الإيمان ويكفيه الإيمان ، فهو يستمع إلى صلاة المطران ، وهو يصغى إلى حكمة أهل الذكر فى حماسة وإخلاص .

قال لى مرة — ويده الضامرة فى قميصه ويده الصحيحة تعبث بلحيته :

— ما أحسن ما نسمع !

وكان إذا رأى البيطرى لونجونوف يرتكب جريمة الحملة على الشعبيين ، وهو يصيح بصوته الغريب الذى يشبه قوقأة الأوز ، أغمض عينيه خائفاً وتمتم :

— يالك من داعية للشر والشقاق .

ولقد كنت أقف من الشعبيين موقفه منهم . أما الطلاب فكانوا يعاملونه معاملة قاسية فيها شىء غير قليل من الاهمال ، هى معاملة سيد لعامل أو لتادل حانة . ولم يكن ذلك يخطر له فى بال . كان إذا ودع آخر زائريه أبقانى عنده ، فتنظف المنزل ونضطجع على الأرض فوق بساط من وبر . ونتحدث حديث الصديق الى الصديق حديثاً طويلا لا يسمعه ولا يراه إلا هذا النور الخفاق يبعثه السراج .

ولكم سمعته يغتم وهو مغتبط غبطة المؤمن :

— سيأتى يوم يجتمع فيه مئات وألوف من مثل هؤلاء الأبطال ، وسيبلغون أسمى المناصب فى روسيا ، وستنقلب الحياة آنذاك دفعة واحدة وتتغير .

كان دورانكوف أكبر منى — بينى وبينه عشرة سنين — وكانت ناستيا ذات الشعر الأشقر تعجبه أيما إعجاب ، وكم حاول أن يدنو من عينيها ويتأملها فى حزمهما وجدهما . كان إذا حدثها أمام الناس جعل فى صوته لهجة سيد نافذ الكلمة ، فاذا مضت شيعها بنظرة قلقة خائفة ، وكان إذا خلا بها ابتسم لها فى حياء وخجل ، ويده لا تفتر عن العبث بلحيته .

وكانت أخته مارى تشهد هى أيضاً معارك الألفاظ وتنتبه إنتباهاً شديداً فيمتد وجهها الصبيانى إمتداداً مضحكا لذيذاً وتتسع عيناها إلى أقصى ما تطيقان من السعة

فاذا بلغ الحديث مرحلة ترن فيها الكلمات الحاسمة النهائية تنفست تنفساً عميقاً صاخبا فكأنك صببت عليها سجل ماء بارد .

وكان يحوم حولها كما يحوم الديك الوقور طالب فى كلية الطب أشقر الشعر ، يدنو منها فيحدثها حديثاً غامضاً لا يعرف هو أين طرفاه . ثم يفرك حاجبيه كرجل ذى شأن ، لقد كان هذا كله مسلياً حقاً وصدقاً .

ودنا الخريف — وأصبح لزاماً على أن أعمل عملا دائماً لأعيش ، لقد كنت مأخوذاً بما حولى فتخففت من العمل حيناً بعد حين — وأكلت خبز الناس — ولكن خبز الناس صعب ابتلاعه ، عسير هضمه ، ومن أجل ذلك بحثت عن عمل لى فى الشتاء وفقت إليه فى مخبز فاسيلى سوموتوف . لقد أودعت فى بعض قصصى مثل « الرئيس » و « كومانوف » و « ست وعشرون رجلا وإمرأة » وصف هذا العهد من عهود حياتى . نعم لقد كان عهداً قاسياً ولكنه ربانى وعلمنى . ولقد كان قاسياً على مرتين جسديا وأخلاقياً .

إنحدرت إلى قبو المخبز وانتصب بينى وبين هؤلاء الناس الذين لا أستطيع السلوان عنهم « جدار من النسيان » . لم أكن أزار ولا أزور — وكيف السبيل إلى الزيارة وأنا أشتغل أربع عشرة ساعة فى كل يوم؟ وكنت لاأرى دورانكوف إلا مرة واحدة فى كل أسبوع — وأما أيام الأعياد فكنت أنام فيها أو أجتمع إلى رفاقى فى العمل .

اعتبرنى بعض زملائى منذ أول عهدى مهرجا يسلى ويسر ، وأحبنى بعضهم حب الأطفال العنيف لرجل كبير يقص عليهم قصصاً لذيذة طريفة ، يعرف إبليس وحده كيف كانت وماذا كانت ، وأعرف أنا أنها كانت تحمل إلى نفوسهم شيئا من عزاء وتوحى إليهم مقداراً من الأمل فى حياة تختلف عن هذه الحياة ، وتكون أكثر منها يسراً وأقل منها عسراً .

وكنت ناجحا فيما تعاهدته من أمر — وكنت ألمس أمارة نجاحى فيما أرى من وجوه منتفخة الأوداج برق فيها حزن إنسانى ؛ وفيما أبصر من عيون محمرة ألهبتها نقمة وغضب ؛ وطالما سرنى ماأصنع ولعبت بى الكبرياء حين رأيتنى قد

أصبحت أنا أيضا ممن «يعمل فى سبيل الشعب» و«ينير له الطريق» ولئن عرفت الكبرياء حينا فهى لم تحل بينى وبين معرفة نفسى أبداً ؛ فكنت شاعراً بما فى من نقص ، وبما فى معلوماتى من قلة ؛ وبما ألقى فى حل قضايا الوجود البسيطة من اخفاق ؛ بل كنت أشعر بأكثر من ذلك ؛ كنت أحس أنى أتردى فى حفرة قاتمة الأعماق يتخبط فيها الناس كما يتخبط الدود الأعمى . ورأيت أنهم وهم فى ظلماتهم يعمهون — لايحاولون الا محاولة واحدة هى نسيان الواقع . ولا يستطيعون أن يلتمسوا هذا النسيان إلا فى الحانات . فى قراره كأس ؛ أو فى أوكار الفساد

وكانت زيارة بيوت الفساد أمراً لامناص منه فى كل شهر يوم يستلم الناس أجورهم ولقد كانوا يحلمون بما فى يومهم السعيد من لذاذة ؛ قبل حلولة بأسبوع فيتحدثون عنه فى منامهم فى صوت عال ويتحدثون عنه فى يقظتهم فى فخر ؛ ويتحدثون عنه إذا مضى أمداً طويلا ؛ فيتذكرون ماأصابوا فيه من لذة ؛ ويفتخرون بما أنفقوا فيه من بأس وحب ؛ ويهزؤون بمن عرفوا فيه من نساء هزءاً مريرا !

ولمحت وراء هذا كله معالم من الأسى واثاراً من الخجل والحياء تعتلج فى نفوس أصحابى . كنت أراهم فى هذه البيوت خلال ليلة كاملة — وقد ران عليهم ماران من أضطراب ، وحاق بهم ماحاق من احساس بقبح مايصنعون وسوء مايرتكبون وبدا ذلك لى طبيعياً جداً وحقيقياً جداً . ولئن رأيت بعضهم يفعل فعلته فى سهولة وخفة بالغتين ؛ فلقد كانت كلتاهما مصطنعتين كاذبتين فيما أعتقد .

والحق أن اهتمامى بهذه العلاقات كان اهتمام الحذر الخائف فكنت أراقبها مراقبة خاصة شاذة . ولم أكن ممن يظفر بدعابة النساء . ولكم أقضى ذلك على مضجعى . كن يسخرن بى وكان رفاقى كذلك يسخرون بى سخرية قاسية مريرة ؛ ثم تركونى فلم يذهبوا بى إلى دور العزاء ، بعد أن أعلنوا فى صراحة صادقة .

— يا شيخنا . لا تذهب معنا .

— ولم ؟

— لأنك . . . إن الناس لا يرتاحون إلى وجودك .

وأصررت على تفسير وإيضاح وشعرت بما لهذه الكلمات عندى من أهمية ، ولكنى لم أنل من ذلك ما أصبوا إليه .

— قالوا لك لا تذهب . وكنى . إن الناس لا يريدون أن ترافقهم .

وزم « أرتيم » شفتيه ثم قال :

لكأن من يرافقك يجد نفسه بين يدى راهب أو بين يدى أبيه .

ولقد سخرت بى البنات بادىء بدء ثم غاظهن موقفى منهن فقلن لى ناقمات :

— أتراك تقرف منا .

ونظرت إلى تريز بوروتا البولونية السمينة الحسناء — وهى (آنسة) بلغت أربعين عاماً — وقالت :

— إطلقن سراحه يافتياتى ؛ إن له لخطيبة . ومثل هذا العملاق لايضبطه غيرها كانت مدمنة تشرب شربا عنيفاً ؛ فاذا ثملت أصبحت كريهة كراهية لا حد لها فاذا أفاقت من خمارها أدهشتك بما فى مواقفها من تبصر ، وبما فى تفسيرها لأفعال الناس من صدق .

— إن أشد الناس غموضاً عندى هم طلاب المعاهد الدينية . سأقص عليكم ما يفعلون بالبنات . أنهم يدلكون أرض الغرفة بالصابون ثم يحملون البنت على أن تضع كل طرف من أطرافها الأربعة فى صحن ، فاذا تم لهم ذلك دفعوها من ورائها ثم نظروا إلى مقدار ما تقطع من مسافة ثم جاءوا بأخرى بعدها . ذلك مارأيتهم يفعلون وما أظل أسأل نفسى ولما يفعلون ذلك ؟ فلا أرجع بجواب .

ولم أصدقها فقلت لها — بل أنت تكذبين .

فقالت ولم تتكلف فى هدوء ساحق : كلا .

قلت : بل كل هذا شىء أنت تخترعينه .

وأشاحت بوجهها عنى وهى تسألنى : وكيف تخترع الفتاة مثل ما سمعت ؟ وهل أنا مجنونة ؟

كان كل من حولى يستمع فى تلهف إلى حديثنا . وعادت تيريز تقص علينا ألعاب الزائرين فى برودة هى برودة إنسان لا يتوخى إلا أن يفهم أسباب ما يقوم به

الناس من أفعال . وسكتت تيريز فبصق كل من سمعها وكالوا للطلاب وكالوا الى معهم سيلامن سباب .

ونظرت فرأيت تيريز تثير حملة شعواء على أناس كانوا أعز ماعندى ، فقمت وأعلنت أن الطلاب يحبون الشعب وأنهم يريدون له الخير والسعادة .

وابتسمت تيريز ثم قالت — أنك لتتحدث عن طلاب الجامعة . وهم علمانيون أما أنا فلم أتحدث إلا عن الرهبان المنتظرين . إنهم أيتام ، واليتيم يصبح أويمسى بالضرورة سارقا أو قاطع طريق ، أو على العموم رجل شروفساد ، وليس فى العالم شيء يردع اليتيم أو يمسك به أو يأخذ على يده .

ولم تكن قصص المرأة الهادئة — ولا أتهامات البنات للطلاب والموظفين أو فى كلمة مختصرة « لكل من هو نظيف » لتثير فى نفوس زملائى حقدها وغضبها وكنى بل كانت تثير أكثر ماتثير نوعاً من أنواع السرور يجد تعبيره الصحيح فى مثل هذه الكلمات :

— إذن فهؤلاء المثقفون ليسوا أقل منا خبثا .

ولقد كان عسيراً على أن أسمعها ثم لاأطيق لها دفعاً . وكنت أرى طين المدينة يتجمع هنا فى هذه الغرفة الصغيرة ، والحجرات الضيقة المظلمة كما يتجمع فى الحفر والأخاديد ثم يختلط فيتخمر فيتعفن ، ثم يسيل على المدينة مرة أخرى فيملؤها خبثا وحقداً .

وعرفت فى هذه الثقوب التى تحشر فيها الغريزة الناس حشراً ويدفع الناس إليها سأم الحياة دفعاً — كيف تنبت من كلمات شاردة قاتمة أغان عن الحب وآلامه . وكيف تنشأ الاساطير عن حياة « المثقفين » وكيف يكره الناس مالا يعرفون وأبصرت بعينى رأسى « بيوت العزاء » مدارس يتلقى فيها رفاقى مبادىء لاحد لتفسخها وانحلالها .

كنت أرى « بنات العزاء » يمشين على الارض أشباحا قذرة . يجررن أرجلهن فى تراخ . وأنظر اليهن يهززن أجسامهن الناضبة هزاً قاتلا على نغمات مزمار محطم أو بيان مكسور — وهكذا ولدت نفسى أفكاراً غامضة ولكنها رجراجة قلقة . كان

كل ما حولى يرشح ضجراً وينفث فى النفس رغبة فى الفرار ، هى رغبة لا تقدر على شىء وصبوة إلى الاختفاء فى مكان ما من هذا العالم الفسيح الضيق .

كنت إذا خلوت برفاق فى المخبز وحدثتهم عن أناس ناصحين مخلصين ، يبحثون عن الطريق المستقيمة التى تؤدى إلى حرية الشعب وسعادته ، كنت إذا حدثتهم عن ذلك قالوا لى وهم يتغامزون :

ــ سل البنات ينبئنك الخبر اليقين .

كانوا يسخرون سخرية لا رحمة فيها ــ سخرية الصابر المتجلد ــ وكنت أغضب وأثور عليهم فلم أكن إلا كلباً صغيراً قوياً يرى أنه ليس أقل حماقة وشجاعة من الكلاب الكبار .

بدأت أفهم أن الأفكار التى نصنعها عن الحياة ليست أقل قسوة من الحياة نفسها ــ وشعرت فى مثل هذه الأزمات بفورات من الحقد على هؤلاء الناس الذين يصبرون ويتجلدون فى رضى وعناد ، وثرت ثورات عنيفة على ما فيهم من قدرة على احتمال الآلام ومن رضى صامت بما يكيل لهم سيدهم العربيد من سباب وهوان.

الفصل الرابع

حدث فى هذا الدور العصيب من حياتى ، حادث كأنه قدر تقديراً عرفت فيه فكرة جديدة جدة مطلقة وكرهتها كرها عميقا ومع ذلك فقد هزتنى هزاً عنيفا .

عدت فى ليلة ، تمخض نهارها عن عاصفة جامحة — من منزل دورانكوف . وكأن الريح — وهى تزمجر غاضبة ناقة — قد مزقت السماء فهى ترمى بها كسفا كسفاً ، فتكفن بها الأرض وتلفها بأكوام من رماد متجمد ، وكأن الحياة ودعت الأرض وداع من لايعود ، وكأن الشمس غربت عنها فهى لن تطلع عليها أبداً . وكنت أنا أخترق الريح وعيناى مغمضتان وفى أذنى خليط كثيف من أنواع الفوضى تنش نشيشاً باردا .

عثرت فوجدتنى على الأرض ، وتصاعدت فى آن واحد شتيمتان قذفت بواحدة منهما بالروسية وقذف بالاخرى ذلك الذى عثرت به بالفرنسية : — العمى ..

رفعته وأوقفته على قدميه فوجدت رجلا نحيل الجسم ، قصير القامة ، يدفعنى دفعا وهو يصيح : — قبعتى — يلعنك الله — قبعتى كدت أتجمد .

وجدت القبعة فى الثلج ، فنفضتها ووضعتها على رأسه فنزعها وهزها أمامى متوعداً ثم طردنى وهو يجرب أنواع الشتائم بالفرنسية والروسية وقال : « إغرب عن وجهى » ثم مضى أمامى وذاب فى الظلمات . وسرت فى طريقى ولكنى وجدته مره أخرى واقفا يستند إلى عمود مصباح منطفىء ، وهو يحدث نفسه حديثا فيه ماشئت من قناعة وعقيدة «هيلين . . . هيلين لقد هلكت . . . آه يالينا »

كان سكران ثملا لامناص له من الموت إن تركته فى الشارع ، فدنوت منه وسألته أين بيته فقال والدموع فى صوته .. — ونحن أين نحن ؟ لاأدرى . وتأبطت ذراعه وسرت به وأنا أسأله — فتمتم وقد قطعت الرعدة تمتمته تقطيعا .

— بولاك ... بولاك ... حمام ... منزل .

وكان يترنح فيعوق سيرى — وسمعت أسنانه تصطك وهو يتمتم بالفرنسية وما يزال يدفعنى

— لو عرفت . . . — ماذا ؟

وقف ورفع يده — وقال لى واضح اللفظ : — لو عرفت إلى أين أسير بك..

وخيل إلى أن شيئاً من كبرياء خالط كلماته ، ثم ترنح وكاد يسقط وجعل أصابعه فى فمه ، ورأيت أن حمله أسهل على فحملته على ظهرى وقد طاحت ذقنه فوق رأسى وتمتم فمه :

— لو عرفت . . . أموت . . . برد . . . يارب

بلغت بولاك وعرفت بعد لأى أين سكنه — وولجت به دهليز منزل تخفيه أكوام الثلج وأخيراً عرف بيته فنزل وقرع الباب حذراً يترقب وهو يقول : — هس . . . هس . . .

فتحت الباب إمرأة ترتدى ثوبا أحمر ، وتمسك شمعة ، ورجعت القهقرى وأفسحت لنا الباب ثم أخرجت من حيث لا أعلم مكبراً وبدأت تتفرس بى .

قلت لها إن أصابع يديه قد تجمدت فيما أظن ، وأن من الواجب أن يخلع ثيابه وأن ينام .

فسألتنى : — نعم ؟ وكان صوتها رناناً فتياً . وعدت أقول :

— غطسى أصابعه فى ماء بارد .

وأشارت بيدها إلى زاوية من زوايا الغرفة ، فتطلعت فلم أجد إلا لوحة رسم فيها نهر وأشجار ، ثم كررت الطرف فى وجهها فرأيته هادئاً هدوءاً غريباً ، ثم رأيتها تنتحى ناحية فتجلس أمام منضدة عليها مصباح — كلته حمراء — ثم تفتح دفتراً فيه صور ثم تحدق فيما ترى أو لا ترى .

وعدت أسألها فى صوت مرتفع : — أليس عندكم خمر ؟

ولم تفعل غير أن بسطت الأوراق على المنضدة ، ثم لم تجب . وبدت على وجهها أمارات إرتباك وبدا لى انفها كأنه أنف عصفور تضىء جانبيه عينان واسعتان جامدتان

وصففت شعرها وكان كثيفاً جداً حتى ظننت أنه مستعار وأخيراً سألت صاحبي في صوت خافت أكثر رقة وموسيقى :

— جورج . . . ألم تر ميشا ؟

وكان صاحبي جالساً — قد تدلى رأسه . وامتدت يداه — وكنت قد خلعت ثيابه وهو لا يشعر بما حوله فكأنه في حلم — ولكنه لم يكد يسمع سؤالها حتى اعتدل في جلسته وأجاب رأساً : — ولكنه سافر إلى كييف .

وقالت المرأة وعيناها لم تتحولا عن الاوراق — نعم . . . نعم . . . إلى كييف ولاحظت أن صوتها على وتيرة واحدة ليس فيه أداء .

— سيعود عما قريب .

— نعم ؟

— نعم . عن قريب .

— نعم ؟ قالت المرأة

ووثب جورج إلى الأرض وثبتين فإذا هو راكع عند قدمي المرأة . وإذا به يحدثها بالفرنسية فلا تزيد على أن تقول له بالروسية.

— أنا مرتاحة هادئة

فقال وهو يداعب يد المرأة فوق ركبته. — لقد جرت عن الطريق .. فالثلج والريح كما تعلمين . . .

كان كهلا في الأربعين من عمره — أحمر الوجه — غليظ الشفتين — أسود الشاربين ظاهر القلق بادي الخوف — لاتزال يده تعبث بشعره — وكان كلما طال الحديث إزدادت لهجته حزما وحسما . قالت المرأة .

— سنسافر غداً إلى كييف

ولم أدر أكانت تؤكد سفرها أم تسأل عنه ؟

— نعم. غداً . ولكن يجب أن تستريحي . لماذا لاتنامين ؟ لقد طال بك السهر

— ألا يعود اليوم ميشا ؟

أوه . أفي مثل هذه العاصفة يمكن أن يعود ؟ ... تعالى ... نامي ...

حمل المصباح ومضى بالمرأة إلى باب صغير وراء المكتبة . وظللت وحيداً لاأفكر فى شىء ، أسمع صوته يدوى . كان الثلج يخرمش الزجاج بأظفاره الناعمة ذات الشعر، ولهب الشمعة يتأرجح فى حياء ، تحت نقطة من الثلج الذائب — والحجرة تغص بما فيها وتفعمها رائحة غريبة حارة تسكر الفكر .

وعاد صاحبي يترنح مرة واحدة ، وفى يده مصباحه يترنح مرتين وقال: — نامت .

وضع المصباح على المنضدة ووقف فى وسط الغرفة يفكر ثم قال ولم ينظر إلى :

— لولاك كنت ميتاً . . . شكراً . . . من أنت ؟

ثم مال برأسه يصغى إلى ما فى الحجرة فسألته : — أهذه زوجك ؟

— نعم ، إنها زوجى . . . هى كل . . . كل حياتى .

كان صوته واضحاً رغم خفوته . ثم فرك رأسه فركا شديداً، وقال :

— هلا شربنا الشاى ؟

ومضى إلى الباب ثم عاد ، فقد تذكر أن الخادم أكلت كثيراً من السمك وذهبت إلى المستشفى . عرضت عليه أن أشعل السماور فرضى ، ومضى بى ، ناسياً أنه عريان إلى مطبخ صغير وقال : — لولاك لتجمدت . . شكراً . . .

ثم اضطرب فجأة ونظر إلى وقد أدار عينيه الهلع :

— ماذا عسى أن يحل بها لو مت ؟ آه يارب . . .

ومضى فبص من ثقب الباب، ثم عاد يقول :

— أرأيت ؟ إنها مريضة . كان لها ابن موسيقى فانتحر فى موسكو ، ولا تزال تنتظر عودته منذ سنتين .

وحدثنى ونحن نشرب الشاى عن زوجته . كانت من صواحب القصور ، وكان هو أستاذاً للتاريخ — يدرس ابنها — فهام بها وهامت به ، ونشزت من زوجها، وهو بارون ألمانى، لتغنى فى الأوبرا . وعاشا معا سعيدين،رغم ما بذل زوجها السابق من جهود فى سبيل شقائهما . كان يحدثنى وكأنه يقرأ فى صحيفة خطها غير واضح . وقد أغمض عينيه أو كاد يغمضهما .

كان يشرب الشاى ، ويلذع لسانه ، ويتغضن وجهه وتدور عيناه . ثم سألنى

مرة أخرى — من أنت ؟ . . . خباز . . . غريب . . ! ولم لا تتكلم ؟

وأخبرته خبرى فقال فى صوت واطىء : — فهمت . . . فهمت

ثم أخذته فورة من الحماسة فسألنى : — أتعرف رواية « الكنار الحقير » ؟ أقرأتها ؟ — وانقلبت أسارير وجهه وغضب فسالت أشداقه زبداً، وتهدج صوته وقال :

— إنها لهى السحر والغى . قرأتها فى العاشرة من عمرى ، وسألت نفسى لم لا أكون أنا أيضاً كناراً؟ كنت أهم بدخول مدرسة الرهبان — فدخلت الجامعة وأنكر أبى ذلك منى ، وكان هو قسيساً . ثم سافرت إلى باريس أدرس تاريخ مصائب الانسانية ، تاريخ التقدم . . . وكتبت ، نعم كتبت . آه كم كان ذلك . . .

وارتعد رعدة هزت كرسيه، وأرهف أذنيه يسمع نبأة الحجرة ثم قال :

— نحن الذين اخترعنا التقدم، ولقد اخترعناه لنعزى به أنفسنا. ليس لهذه الحياة من معنى ، وليس لها من مبرر . التقدم لا يمكن أن يكون إلا إذا كانت العبودية . وإذا لم تخضع الأكثرية للأقلية ولم تمش وراءها وقفت الانسانية . أردنا أن نجعل الحياة أبسط وأسهل فعقدناها ، وأردنا أن نخفف أتعابنا فزدناها. أرأيت إلى هذه المعامل وإلى هذه الآلات؟ أنها لم تخلق إلا لتصنع آلات وآلات . . . هذا أمر غريب وعجيب حقاً . . . يزيد عدد العمال يوماً بعد يوم ، ولا حاجة بنا إلا إلى الفلاح — منتج القمح — فالخبز وحده هو الذى يجب علينا أن نسعى إليه . وكلما قلت حاجات الإنسان زادت سعادته ، وكلما زادت مطامعه قلت حريته .

ذلك ما قاله صاحبى ولئن لم تكن هذه ألفاظه فهى معانيه وأفكاره . سمعتها للمرة الأولى معروضة هذا العرض القاسى العارى فصعقتنى .

وكان صاحبى يصمت بعد كل فقرة، ثم ينظر خائفاً إلى باب الغرفة ، ويستمع إلى الصمت ، وعاد يقول وهو لا يزال فى أمر هو الغضب أو يقاربه :

— خذ عنى ما أقول لك : حاجة الإنسان، كسرة من خبز ، وامرأة . . .

وأخذ يحدثنى عن المرأة فى همهمة سحرية . ويذكر ألفاظاً لم أعرفها ، وينشد أبياتاً لم أسمعها . . . فذكرت باشكين اللص .

— بياتريس — فيامينا — لور — نينون .

حدثنى عن عشاق الملوك وعن الشعراء ،وأنشد شعراً بالفرنسية ، وقعه بذراعه العارى ثم قال : — الحب والجوع يحكمان العالم .

وذكرت أن هذه الكلمات كانت فى ذيل منشور ثورى عنوانه « القيصر مجاعة » وقد أحلها ذلك من نفسى محلا خاصاً .

تركت المطبخ عند الفجر ، فى الساعة السادسة ، وسرت فى الضباب أحطم الجليد وأسمع عصف الريح ، وأتذكر حديث الرجل ، وأشعر أن كلماته لاتزال تقف فى حلقى ،وتهم بخنقى.

كرهت أن أعود إلى دكانى فأرى الناس ، فطفت شوارع المدينة التترية وعلى رأسى كومة من الثلج ، ومازلت كذلك حتى أقبل النهار وتمطت أشباح الناس تغوص فى أمواج الثلج .

لم أر الأستاذ بعد ذلك أبداً،ولم أحاول أن أراه،ولم أكن أحب أن أراه، ولطالما سمعت الناس يتحدثون بعد ذلك عن شذوذ الحياة وتفاهتها ، وعن سخف العمل وقلة جدواه . كان أكثر من ينشر هذه الآراء حجاج جهال ، أو شذاذ آفاق لابيت لهم يأوون إليه،ولا نار عندهم يستدفئون بها،ورأيت فيهم جماعة نالت ثقافة عالية ، فيها القسيس ، وفيها دكتور فى اللاهوت ، وفيها كيماوى يصنع المتفجرات ، وفيها عالم فى الحياة من أنصار المذهب الحيوى الجديد ، وفيها غير هؤلاء .. لطالما سمعت هؤلاء جميعاً فكنت أمر بلغوهم مر الكرام ، ولم أحس أبداً بمثل ماأحسست به فى أول مرة من تأثير أرهق عقلى وأزهق نفسى أمداً طويلا .

وهاأنا أعود فأسمع منذ سنتين ، أى بعد ثلاثين عاماً من حديثنا الأول ، نفس الأفكار بل نفس الألفاظ والتعابير من فم صديق لى قديم ،هو عامل من عمال سورموف .

كنا نتحدث يوماً حديث القلب إلى القلب ، وكان يلقب نفسه «رب السياسة » وهو يبتسم فى غير سرور ؛ قال لى فى صراحة لايعرفها إلا الروس وحدهم ، فيما يبدو لى .

— آه ياأليكس ماكسيمتش — آه ياصديق ! نحن لسنا فى حاجة إلى شىء ...

وهل يجدينا شيء أبداً ؟ مجامع علمية ... علوم ... طيران ... كل ذلك باطل . أتعرف ماذا نريد ؟ نريد زاوية هادئة وامرأة نضمها، وتستجيب لنا صادقة جسماً وروحاً .

أما أنت يا أليكس ، فتفكر تفكير المثقفين . إنك لست منا . ولكنك مخلوق متسمم — تضع الأفكار فوق الانسان ، وتفكر تفكير اليهود..

— ولكن اليهود لا يفكرون هذا التفكير ...

— الشيطان وحده يفهم تفكيرهم ، و...

ثم رمى فى النهر عقب سيجارته وأتبعها نظره .. كنا على ضفاف النيفا ، فى ليلة مقمرة من ليالى الخريف ، بعد أن قضينا نهاراً أرهقنا بما فيه من أحداث تافهة لاطائل تحتها وأفعمنا برغبة عنيدة فى أن نؤدى عملا طيباً نافعاً .

وعاد صديق يقول هادئاً مفكراً .

— إنك معنا ولكنك لست منا . فاستمع إلى . يجب المثقفون الحركة والنشاط، وهم من أجل ذلك كانوا فى صفوف الثائرين . وكما ثار المسيح، وهو مثالى، من أجل السماء، كذلك يثور المثقفون من أجل طوبى . يثور المثالى، ويثور معه كثير من الجبريين والأشقياء والأنذال ، يثورون لأنهم يحسون بالفراغ ، لأنهم لا يجدون لهم مكاناً يملؤونه فى الحياة . أولئك هم المثقفون ومن لف لفهم . أما نحن العمال فنثور لنصنع الثورة — نثور لأننا نريد توزيع أدوات الإنتاج والإنتاج نفسه توزيعاً عادلا . ولكن أتحسب أن العمال إذا استولوا نهائياً على السلطة أقروا إنشاء الحكومة؟ كلا ثم كلا ، سيمضى كل منهم فى سبيله ، وسيهيء له بوسائله التى بين يديه ، ركناً هادئاً ...

ستقول — ماذا نفعل بالتقدم الصناعى ؟ ماذا نفعل بالفن الآلى ؟ وسأقول لك إنه هو الذى يزيد فى ضغط الحلقة التى فى أعناقنا ، وهو الذى يثقل أغلالنا ، أجل يجب أن نتحرر من العمل ، من عمل لاجدوى فيه، ولا طائل تحته ، فالإنسان يحب الراحة ويسعى إليها ، وهذه المعامل وتلك العلوم لاتضمنها له، ولا تعود بها عليه . الإنسان الفرد لا يرغب إلا فى القليل ، ولا يحتاج إلا إليه . قل لى ياصديق . لم أبنى المدينة إن كان يكفينى البيت الصغير ؟

إنك لتجد فى المواطن التى يكثر فيها الناس ويزدحمون، مجارى للأقذار ، وأقنية للمياه،وأسلاكاً للكهرباء . دع عنك ذلك كله ، وحاول أن تعيش غير هذه الحياة ، ثم انظر إلى حياتك ماأسهلها وما أيسرها . هناك أشياء كثيرة زائدة جاءنا بها المثقفون . ومن أجل ذلك قلت لك وأعود فأقول لك : « إن المثقفين فئة ضارة ».

أرأيت ؟ لقد قلت أن ليس فى الناس من هو مثل الروسى ، يستطيع فى مثل هذا العمق وفى مثل هذا التصميم أن يلغى كل معانى الحياة .

وعاد محدثى يقول متهكما ساخراً .

— نحن أكثر شعوب الأرض حرية فكر ، فهون عليك ولا تغضب إن كان رأيى صحيحاً، وإن كان تفكيرى ، هو تفكير الملايين ،ولكنهم لا يطيقون أداءه على النحو الذى قمت أنا بأدائه.علينا أن ننظم الحياة تنظيماً أكثر بساطة،لتصبح الحياة نفسها أكثر رفقاً بنا وأشد عطفاً علينا.

لم يكن محدثى من أنصار تولوستوى قط — ولم أعرف أنه انحرف إلى « الفوضوية» فأنا أدرى الناس بتاريخ تطوره الفكرى .

ولقد رأيتنى، بعد هذا الحوار، مضطراً إلى أن أسأل نفسى : — أحق أن الملايين من الروس لم يحتملوا ما فى الثورة من آلام قاسية إلا لأنهم يدغدغون فى أعماق نفوسهم الأمل فى التحرر من العمل ؟ « أقل ما يمكن من العمل ، وأكثر ما يمكن من المتعة » . ذلك أمر يغرى الناس أشد الإغراء ، ويثير أقوى أنواع الحماسة ككل ما هو طوبائى لا يتحقق .

وإذا كان ذلك كذلك، فأنا موافق هنريك إبسن فيما كتب فى شيخوخته :

يقولون لى هل أنت محافظ ؟ — فقلت كلا .
إننى أنا نفسى لم أتغير طوال حياتى .
ولكنى لا أحب أن أغير أماكن أوراق القمار ،
وإنما أريد أن أقلب اللعبة رأساً على عقب ،
أنا لا أتذكر إلا ثورة واحدة .
كانت أحكم الثورات .

وكانت تستطيع القضاء على كل شيء.
إنها — ولا شك — ذلك الطوفان العالمي.
ولكن إبليس انخدع فيها أيضاً.
وأصبح نوح ديكتاتوراً كما تعلمون.
آه، لو استطعتم أن تقوموا بطوفان أشرف وأسمى.
إذن لما تأخرت عن مد يد المعونة إليكم.
إنكم تعملون للطوفان العالمي وتهتمون به،
أما أنا فسأضع اللغم، متطوعاً، مختاراً، تحت سفينة نوح.

الفصل الخامس

زاد عدد الأشخاص و « القضايا الصغرى » ، واشتدت الحاجة إلى المساعدات ، وكانت عائدات دكان دورانكوف تافهة لا تكفى .

قال لى اندره مرة مهموماً قلقاً ،وهو يعبث بعثنونه على عادته ، وعلى ثغره ابتسامة طفل مذنب ، وفى صدره زفرات عميقات :

ــ يجب أن نجد مخرجاً .

لقد بدا لى هذا الإنسان كمن يعتبر نفسه محكوماً عليه إلى الأبد بمعونة أخيه ، فهو راض بها ، صابر عليها ، ولكنها تلــح فى إرهاقه . كنت أسأله ملوناً أسئلتى ومعدداً صيغها ، هذا السؤال الواحد: ــ ولم تفعل ذلك ؟

والحق أنه لم يفهم سؤالى أبداً ، ويخيل إلى أنه لم يكن قادراً على فهمه ، فيظن أنى أسأله عن غايتــه من عمله ، فيحدثنى عن حياة الشعب وآلامه ، وعن أهمية التعليم ، وضرورة المعرفة .

وسألته مرة : ــ ولكن هل يريد الناس المعرفة وهل يسعون إليها ؟

فأجابنى فى هدوء ــ نعم ، نعم ،إنك لتبحث عنها أنت .

أجل أنا أسعى إليها ، ولكنى تذكرت أستاذ التاريخ وتذكرت قوله : « إن الناس يسعون إلى النسيان ويبحثون عن السلوان لا عن المعرفة . » ذكرت قوله هذا فسألت اندره ذلك السؤال .

ورأيت أن وجود مثل تلك الأفكار الأكالة فى رؤوس شباب لا يتجاوزون السابعة عشر ، لا يمكن أن يجدى شيئاً . الأفكار يقل حد أنيابها ، والناس بها لا ينتفعون . وشعرت أنى ألاحظ دائماً هذه الملاحظة : وهى أن الإنسان لا يحب القصص اللذيذة ،ولا يرغب فيها ،إلا لأنها تتيح له أن ينسى ساعة آلام حياته اليومية ومتاعبها ، وأنه يزداد إصغاء إلى القصة كلما ازداد حظ الاختراع فيها ، وأن أغرى

الكتب للناس ما حوى أجل الأكاذيب . . . نعم لقد رأيت هذا ورأيت ذاك ، من قبل ، وأرى الآن أنى كنت أحوم فى ضباب يصدع رأسى .

رأى دورانكوف ، حلا لما يقاسى ، أن يفتح مخبزاً ، وحسب أن كل روبل فى مشروعه هذا لا يقل ربحه عن خمس وثلاثين فى المئة . وكان على أن أكون مساعداً للخباز و « معتمداً » أسهر عليه لئلا يسرق شيئاً .

ها أنا ذا إذن أنتقل من قبو إلى قبو آخر أقل سعة ، وأكثر نظافة ، وطالما أرهقنى تنظيفه وغسله ، وقد استبدلت بأربعين عاملا ، عاملا واحداً ، أسمر الأوداج دقيق العثنون ناضب الوجه ، قاتم العينين ، شاذ الفم فكأنه فم سمكة ، مكوز الشفتين فكأنهما متجمعتان دائماً للقبل ، يلمع فى أعماق عينيه تعبير هازىء ساخر .

ولقد كان من فضول القول أن أقول إنه يسرق ، فقد وضع جانباً منذ الليلة الأولى ، عشرة بيضات ، وثلاثة أرطال من الطحين وقطعة طيبة من السمن . رأيته يفعل ذلك فسألته : ولم هذا كله ؟ فأجاب فى لهجة الصديق : سأحمله إلى فتاة . وأضاف إلى ذلك قوله ، وهو يحك أرنبة أنفه : فتاة هائلة . . . .

وبذلت أقصى جهدى لأقنعه أن السرقة جريمة ، فكنت كمن ينفخ فى حديد بارد ، ولست أدرى لم لم أنجح : ألأنى كنت غير مقتنع بما أريد إثباته ، أم لأنى كنت غير بليغ ؟

كان مستلقياً على ظهره ينظر من خلال الطاقة إلى النجوم ، ولا ينى يردد مثل قوله :

— العمى ، رجعنا إلى المدرسة . . . ما شاء الله . . . أصغر منى ثلاث مرات ثم يلقى على درساً . . . العمى . . .

وسكت ، فنظر إلى النجوم ثم قال : أظن أنى رأيتك قبل هذا . . . أين كنت ؟ عند سومونوف ؟ هناك حيث ثار العمال . طيب . إذن فقد رأيتك فى المنام .

ولاحظت بعد أيام ، أنه يستطيع أن ينام حيثما كان ، وكيفما كان ، وأن ينام ما طاب له أن ينام . يقف معتمداً على العرجون ثم ينام ، فيحرك حاجبيه ، ويتغير وجهه تغيراً غريباً ، وتنطبع عليه سخرية لا حد لشذوذها وقوتها ، فاذا صحا تحدث ، وطاب له أن يتحدث عن الأحلام وعن الكنوز :

— إنى لأرى الأرض قطعة من عجين محشوة بالكنوز ! فى كل جانب منها صناديق من فضة ، وزرابى من ذهب ، وأباريق من زبرجد ،

رأيت مرة مكاناً ، أظن أنه حمام ، ورأيت فى زاوية منه صندوقاً مدفوناً مفعماً بأوعية الذهب ، وصحاف الفضة ، فاستيقظت ، وقمت أحفر ، ثم أحفر ، فوجدت قطعة من فحم ووجدت جمجمة كلب . وبينما أنا منهمك فى عملى تطاير زجاج النافذة ألف قطعة وقطعة ، وصرخت امرأة : إلى السارق !

أتظن أنى بليد فأبقى وأموت ضرباً وصفعاً ؟ لقد هربت من النافذه فنجوت . العمى ...

سمعت هذه الكلمة تدور على لسانه لاتنقطع ، لم أر إيفان لوزوفيتش يضحك قط ، كان يكتفى بغمز عينيه وهو يبتسم ويمسك أرنبة أنفه ، ويفتح خياشيمه .

ولم تكن أحلامه معقدة ، بل كانت أكثر من الواقع إزعاجاً وخرقاً ، ولم أستطع أن أفهم السبب الذى يحدو به إلى روايتها متلهفاً متحمساً ، وهو ذلك الرجل الذى لايحب أن يتحدث عما يجرى حوله ويحيط به .

هاجت المدينة واضطربت فقد انتحرت ابنه تاجر غنى من تجار الشاى ، تزوجت مكرهة ، فقتلت نفسها ، وهى راجعة من الكنيسة بعد حفلة إكليلها . وتبع جنازتها جمهور يربو على بضعة آلاف من الشباب ، وخطب على قبرها الطلاب ، فهاجمتهم الشرطة وفرقتهم ، وتحدث الناس عن هذه المأساة ، وغصت الحجرة المعهودة بالطلاب ، وصلت إلينا أصواتهم ونحن فى قبونا ، نعجن الدقيق .

قال لوتونين : — إن أهلها لم يحسنوا تربيتها . . . كان هذا كل ماقاله ثم لم يلبث أن أسرع فقال :

— كنت مرة أصطاد السرطان فى المستنقع وإذا أنا بشرطى يصيح :

— قف مكانك .. كيف ... ؟ ليس من وسيلة إلى النجاة إلا أن أغطس فى الماء ، فغطست فاستيقظت من منامى .

كان كل ماحول صاحبى من واقع يجرى فلا يحس به ، ومع ذلك فقد شعر أن فى المخبز شيئاً غير عادى . فالفتيات يدرنه مع أنهن لم يخلقن لمثل هذا العمل إذ كن لايتركن الكتب يطالعنها ، والطلاب فى الحجرة وراء الدكان يجتمعون أمداً طويلا يصرخون أو يتهامسون ، ودورانكوف قل أن يطل علينا ، وأنا الأجير أدير المخبز وأصرف شؤونه . كل ماذكرت حرك لوتونين فسألنى :

— أأنت قريب من أقارب دورانكوف ؟ أم أنه يريد أن تكون من أتباعه ؟ العمى ، لماذا يجتمع الطلاب عندنا ؟ أمن أجل البنات ؟ نعم . هذا ممكن ، وإن كن غير جميلات ، وإن كان الطلاب أحرص على أكل الخبز منهم على مغازلتهن .

وكانت له صاحبة قصيرة الساقين ، بنيت على شكل متوازى المستطيلات ، مختلفة الأبعاد ، كأنها كيس بطيخ ، تزوره فى أكثر الأيام ، بين الساعة الخامسة والسادسة صباحاً ، فتناديه من الشارع : — فانيا .

كانت تغطى رأسها بمنديل مطرز ، تفر منه من هاهنا ومن هاهناك خصلات من شعر مجعد ، فتغمر جبينها وخديها المستديرين حلقات صغيرة ، وتتأرجح فوق عينيها الناعستين فتمد أصابعها المتباعدة تباعداً مضحكا كأنها أصابع المواليد الجدد ، فتصففها وترتبها فى تراخ وكسل .

ولقد شغلنى السؤال عن نوع الحديث الذى يمكن أن يتحدث به مثل ذلك الرجل ، مع مثل هذه الفتاة ، زمناً غير قصير .

كنت إذا جاءت أيقظت الخباز فيسألنى : — أهذا أنت ؟ — نعم أنا — هل نمت ؟ — نعم ، نمت — وماذا رأيت فى منامك ؟ — لم أر شيئاً .

كل مافى المدينة هادىء ساكن ، وهناك عصا الحارس تنقر على الأرض توقظ أبناء الأزقة ، وأشعة الشمس الناعمة ترف على النوافذ . ماأحلى تلك الأيام وما أحبها إلى نفسى . كان الخباز يمد ذراعه من النافذة فيدغدغ ساق الفتاة ، مستسلمة مطيعة فى غير ابتسام ، تغمزه حيناً بعد حين بعينى عنزة طروب . يقول لى : بيشكوف ! أخرج الخبز ، فأذا أخرجته ألقاه فى حضنها ، فأمسكت به ، تنقله من يد إلى يد ، وتعض عليه بأسنان مهرة صغيرة وهى تئن ، وتصرخ ، وتحرك ساقيها ، والخباز يتأملها ، ثم يقول :

— غطى ساقيك ياوقحة .

وتمضى الفتاة ، فيبتدىء دوره فى الفخر بمآثره :

— أرأيت ؟ إنها نعجة طيبة كلها شبع وري . أنا ياشيخى ، لاأحب النساء ، بل أهوى الفتيات وحدهن : أتعرف أين تحل هذه فى حسابهن ؟ إنها الثالثة عشرة . وهى ربيبة نيكيفوريتش .

وكنت أسمع نجواه وأحاديث هواه ،ثم أقول فى نفسى :

ـــ أيمكن أن يكون هذا يارب ؟

أما نيكيفوريتش هذا،فقد كان مفوض الشرطة فى حينا . كان شيخاً جاف العود، مديد القامة ، تغطى صدره الأوسمة ، فى وجهه ذكاء ،وفى ابتسامته وداعة،وفى نظراته خبث . وقد حذرنى منه أصدقائى فقد كان رجلا خطيراً.يتصل بالدرك ويحب مطاردة الطلاب .

كنت إذا أخرجت الخبز كله من الفرن،حملت منه عشر أرغفة إلى دورانكوف، ثم عدت مسرعاً،فملأت سلة تسع ثلاثين رطلا ثم هرولت بها إلى قاعة الكلية لأصل فى الساعة التى يتناول فيها الطلاب طعام الإفطار .

أقف عند الباب الكبير فى المطعم ، وأبيع ديناً أو نقداً ، وأستمع اليهم وهم يأكلون ويتحدثون عن تولوستوى ، (وكان أحد أساتذة المجمع جوسييف عدواً لدوداً له) ، وكنت أحمل فى سلتى أحياناً تحت الخبز،كتباً يجب أن أسلمها سراً إلى بعض الطلاب ، أو كنت على العكس،أسترد كتبا وبطاقات أخفيها فيها .

وكنت أمضى إلى أبعد من الجامعة،يوماً من أيام الأسبوع، إلى مستشفى المجاذيب وهو يوم يلقى « بتشريف» درسه فى حضرة المرضى.

كان يحدث يوماً طلابه عن مريض أصابه جنون العظمة ، وبدا فى باب القاعة رجل مديد القامة ، أبيض الثياب ، تغطى رأسه قبعة ذات ذيول ، نظرت إليه وابتسمت مكرهاً غير مختار ، أما هو فوقف ملاوة، ينظر إلى فوثبت متقهقراً كأنما أصابت قلبى نظرته السوداء النافذة . وجاء « بتشريف » يداعب ذقنه ، وهو يتحدث إلى المريض،حديث السيد الجليل ، وأنا لاأزال أمسح بيدى وجهى أخشى أن يكون قد أحرقه ذلك الرماد الحار .

كان المريض أصم الصوت ، يأمر بما لاأعلم ،ويرسل من أكمامه يداً طويلة الأنامل ، وخيل إلى أن قامته تطول ثم تطول ، وأن حجمه يزداد ازدياداً مضطرداً لاحائل دونه ،وأن أنامله تمتد وأنها ستقبض على عنقى ، وأن نظرته فى عينيه السوداوين تنبعث من محجريهما فى وجهه العظمى آمرة ناهية، متوعدة متهددة،و الطلاب،

وهم أكثر من عشرين ، يفحصونه ، فيبتسم بعضهم ، ويحزن بعضهم ، ويهتم بعضهم ، وعيونهم كلها، إذا قورنت بعينى المريض الملتهبتين ، تبدو خامدة باردة .

كان هذا الرجل مخيفاً حقاً ، ولكأن فيه شيئاً جد عظيم ؛ وكان صوت الأستاذ يثير صرخة من ذلك الصوت الأجش كأنها تخرج من الأرض ، أو تنفذ من وراء الجدران البيض الميتة . أما حركاته فكانت كحركات المطران بطئاً وصلابة .

ونظمت فى الليل قصيدة أدعوه فيها « سيد السادات » و« خليل الله ومستشاره » ولقد بقى خياله فى نفسى أمداً طويلا، يرهقنى ويسحق كيانى .

الفصل السادس

كنت أشتغل منذ الساعة السادسة مساء حتى قبيل الظهر ، وأنام فى النهار ، ولا أستطيع القراءة إلا فى فترات العمل : إذا أنهيت وجبة عجين، وانتظرت إخراج الأولى أو إذا وضعت الخبز فى الفرن . وكنت كلما أوغلت فى أسرار الصنعة قل عمل الخباز ، فزاد فى تعليمى،وهو يقول لى مستغرباً مشفقاً :

ـــ إنك لذو موهبة ، وستغدو خبازاً بعد سنة أو سنتين . العمى . أنت ماتزال فتى ولن يصغى إليك الناس.ولن يحترموك .

ولم يكن يوافق على شغفى بالقراءة ، وكم نصحنى :

ـــ نم يابنى،فلأن تنام خير لك من أن تقرأ .

ولم يسألنى ماذا كنت أقرأ قط،فالأحلام والأوهام والكنوز والفتاة المكورة ذات الساقين القصيرتين ، كل اولئك كان يمتصه امتصاصاً كاملا . كانت تزوره فى الليل فيذهبان إلى الدهليز فوق الأكياس ، فإذا كان البرد شديداً قال لى ،وهو يحك أرنبة أنفه :

ـــ هلا خرجت فاسترحت نصف ساعة صغيرة ، وسأدعوك إذا اقتضى الأمر.

وكنت أتركهما وأمضى مفكراً فى مقدار اختلاف هذا النوع من الحب، عن الحب الذى أقرأه فى الكتب . ولقد كان،والله،اختلافاً مخيفاً .

أما أخت المعلم ماريا،فكانت فى الغرفة الصغيرة وراء المخزن ، وكنت أهى،لها السماور وأجتهد فى أن أراها أقل ما يمكن ، فإذا ما رأيتها شعرت أنى مضطرب قلق ، وأن عينيها الطفلتين ما تزالان تشعان بتلك النظرة التى لا تحتمل ، تلك النظرة التى عرفتها أول مرة . وكنت أفترض فى أعماق هاتين العينين ابتسامة ، وكان يخيل إلى أنها ابتسامة ساخرة .

جعلنى انبثاق قواى إنساناً غير لبق ، فإذا رآنى الخباز أتعتع ثم أحمل أكياساً فيها مائة وخمسون رطلا ، قال لى فى لهجة المشفق الرقيق :

— وأما القوة ، فلك قوة ثلاثة رجال ، وأما اللباقة فلا لباقة ، إنك لطويل ، بل أنت ثور حقيقى .

أنهيت ذلك الحين ، عدداً غير قليل من الكتب ، وشغفت بقراءة الشعر ، وبدأت أكتب أيضاً ، ومع ذلك فقد كنت « أتحدث إلى نفسى » وكنت أشعر أن ألفاظى قاسية ، ثقيلة ، وأنها وحدها ، على الرغم من ذلك كله ، قادرة على التعبير عن تعقد أفكارى العميق ؛ ولقد كنت أصطنع الغلظة أحياناً كى أحتج على شىء أشعر أنه غريب شاذ ، وأنه يثير غضبى .

قال لى أستاذ من أساتذتى ، كان طالباً فى صف الرياضيات ، وهو يلومنى :

— ان إبليس وحده قادر على أن يفهمك ، فأنت لا تتحدث بالألفاظ ، ولكن بالأثقال والأوزان .

وكنت أشد لوماً لنفسى منه ، بل كنت كما يكون أكثر الشباب ، ساخطاً عليها ، برماً بها ، وكنت أرانى مضحكا ، فظاً ، غليظاً ، وأرى وجهى كأنه وجه فتى من سكان الكلموك ، ناتىء الوجنتين ، وكأن صوتى ليس منى .

هذا أنا ، أما أخت المعلم فكانت رشيقة الحركات ، كأنما هى عندليب يطير ، ورأيت أن هذه الرشاقة تنافى جسدها المستدير الرخو ، وأن فى حركاتها وسكناتها شيئاً من الغموض ومن التصنع ، وأن صوتها يرن راضياً مطمئناً ، وأنها تضحك كثيراً ، وكنت إذا سمعت ضحكتها قلت لنفسى مفكراً فيها :

— لعلها تريد أن أنسى يوم رأيتها أول مرة .

ولكنى كنت لا أريد أن أنساها . إن كل ما هو شاذ غير طبيعى يغرينى ويملك على سبيلى ، بل إنى فى حاجة إلى أن أتحقق من أنه ممكن ، ومن أنه موجود .

كانت تسألنى أحياناً :

— ماذا تقرأ ؟

وكنت أجيبها بأقل ما يمكن من الكلمات ، وأنا أكاتم رغبة جامحة تدفعنى إلى سؤالها :

ـ وأنت لماذا تريدين أن تعرفى ما أقرأ ؟

قال لى الخباز يوماً ، وهو يداعب متوازى أضلاعه مغيظاً ، محنقاً :

ـ اخرج دقيقة صغيرة . ستذهب إلى أخت المعلم . إنك لتتلعثم . . الطلاب . .

أما أنا فقد وعدته أن أكسر له رأسه إذا عاد إلى مثل هذا التعريض ، ثم خرجت إلى الدهليز فجلست على الأكياس . وسمعت صوت لوتونين يخرج من فرجة الباب ،

ـ وعلام أحاول أن أغضب ؟ لقد ذبحته الكتب ، وهو يعيش كالمجنون .

كانت الفئران من حولى تغنى وتتسابق ، والفتاة فى الحجرة تئن وتشخر ، فخرجت إلى الباحة . وكان المطر يهطل ناعماً ، متراخياً ، صامتاً ، والهواء تفعمه رائحة الحريق ، والغابات من أمامى تشتعل ، والليل قد قطع نصف طريقه إلى الفجر .

كانت نوافذ البيت الذى يواجه الفرن مفتوحة ، تتعالى فى حجراتها التى ينيرها ضوء ناعس ، أصوات جماعة تغنى

القديس فارلام نفسه ،
ذو الرأس الذهبى ،
رآهن ثم ابتسم .

حاولت أن أتخيل ماريا دوراتكوفا نائمة على ركبتى ، كما تنام تلك الفتاة على فخذى الخباز ، وما أسرع ماشعرت ، بكل كيانى ، أن هذا مستحيل ، وأنه أيضاً مخيف مرعب .

وانفصل صوت عن الجوقة ينشد وحده :

وقضى ليلته كلها ،
يشرب ويغنى ،
وكان ما كان ...

أحنيت ظهرى واعتمدت بيدى على ركبتى ! فرأيت من نافذة بيتنا ، ثم من

خلال ثقب فى ستائر غرفة الجيران ،جدراناً يضيئها مصباح صغير ذو غطاء أزرق ، ورأيت أمام النافذة فتاة تكتب ؛ هاهى ترفع رأسها،وتصفف بريشتها الحمراء خصلة من الشعر فوق صدغها ، وعيناها تكاد تغمضهما ،ووجهها يشرق بابتسامة ، طوت الكتاب فى بطء ، وبللت أطراف الغلاف بريقها ،ثم ألقت بالغلاف على المنضدة وتوعدته بسبابتها ، ولمست خنصرى فكان أكبر من سبابتها ولكن هاهى تعود فتمسك بالكتاب،ثم تمزق الغلاف ثم تعيد قراءة ماكتبت ، ثم تأخذ غلافاً آخر وتضع الكتاب فيه ، وتكتب العنوان وهى منحنية على المنضدة ، ثم تلوحه فى الهواء ،كأنه علم صغير أبيض .

وقامت ،وهى ترفع ذراعيها،ومضت إلى الزاوية التى فيها سريرها ، ثم عادت وقد خلعت ثوبها وبدت أكتافها بضة مستديرة كأقراص الحلوى ؛ فحمات المصباح وتوارت وراء الجدار. إن الانسان، إذا كان وحده ، بدا،لعينى من يراقبه،شيطاناً من الشياطين . وعدت إلى الباحة أطويها جيئة وذهوباً وأنا أفكر فى أن لهذه الفتاة — إذا خلت فى زاويتها الصغيرة — وضعاً ما،يجب أن يكون شاذاً غريباً .

أعرف هذه الفتاة ؛ وأعرف أنها تبدو أصغر حجماً وأضأل جسماً،إذا جاءها طالب أشقر،فتحدث إليها فى صوت خافت ، ونظرت إليه هى نظرة ولهى ، وهى توارى يديها وراء ظهرها أو تحت المنضدة : ولقد غاظنى هذا الفتى الأشقر حقاً .

ومرت بى الفتاة المكورة، تتدحرج متلفعة ثم قالت كمن يتجشأ :

— ادخل

ودخلت فحدثنى الخباز ، وهو يرفع العجين من المعجن ، عن فتاته . وكيف كانت مثالا للهو والعبث ، وكنت وهو يحدثنى ، أسأل نفسى :

— يا نفسى ، ماذا يضمر لك المستقبل ؟ وماذا ستكونين ؟

وخيل إلى أن فى زاوية قريبة بؤساً يرقبنى لينقض على .

تقدمت أحوال المخبز،وازدهرت ازدهاراً دفع دورانكوف إلى البحث عن

فرن أكبر وإلى إقرار زيادة مساعد جديد . وكنت بذلك مسروراً ، فقد زادت أعمالى وبلغ بى التعب حد الإعياء . وقال لى الخباز :

ـــ ستكون فى الفرن الجديد مساعدى الأول ، وسأقترح إعطاءك عشرة روبلات فى الشهر . وعرفت ان من الخير له أن أكون مساعده الأول ، فهو لا يحب العمل ما دمت أقوم به متطوعاً ، ولقد كان تعبى برداً على قلبى وسلاماً ، كان يبدد قلق روحى ، ويعقل رغباتى الجنسية ، ولكنه كان أيضاً يحول بينى وبين القراءة .

قال لى الخباز يوماً :

ـــ دع كتبك تأكلها الفيران . وحدثنى عن أحلامك . أتهزأ بى فتزعم انك لا ترى فى منامك أحلاماً ؟ إنك لتحلم ولكنك تكتم عنى ما تراه . العمى . وهل فى رواية الأحلام من حرج ؟

كان كثير الرفق بى وخيل إلى انه يحترمنى ، ولعله خشى ان اكون امين المعلم ، ولكن هذا لم يمنعه سرقة المؤونة فى استمرار وانتظام .

ماتت جدتى ، وعرفت موتها بعد سبعة أسابيع من دفنها ، عرفته من كتاب أرسله إلى أحد أبناء عمومتى ؛ كان الكتاب مختصراً وليس فيه فاصلة واحدة ، فيه أن جدتى سقطت وهى تستجدى أكف الناس من سلم الكنيسة فكسرت ساقها ، وأصابها التهاب فى اليوم الثانى ، وعرفت بعد ذلك أن أخويها وأختها وأبناءهم جميعاً ـ وكانوا شباباً اقوياء يعيشون على صدقات العجوز ـ لم يبلغ بهم التفكير حداً يتيح لهم استشارة الطبيب .

وجاء فى الكتاب :

« دفناها فى مقبرة بطرس وبولس ، ومشى فى جنازتها كل ذوى القربى . كما مشى الشحاذون الذين أحبوها حية وبكوها ميتة ، وقد بكاها جدى أيضاً بكاءاً مراً ، ثم طردنا وبقى وحده على قبرها . ورأيناه من خلال قصب المقبرة يبكى . وسيموت هو أيضاً عن قريب » .

أما أنا فلم أبك ، لقد لفتنى ريح متجمدة صرصر منعت عينى البكاء .

وجلست فى الليل فوق كومة من الحطب فى الباحة ، وأحسست بلهفة قاتلة تدفعنى إلى أن أحدث مخلوقاً من المخلوقات عن جدتى ، وإلى أن أذكر له كم كانت

ذكية وطيبة ، وكم كانت ترأف بالناس وتحنو عليهم . ولقد حملت هذه اللهفة الثقيلة فى نفسى أمداً طويلا ، ولكن أين من أحدثه ؟ أين من أبثه همى ؟ كل ما حولى فراغ لا أجد فيه أحداً ، وهذه اللهفة تضمحل ثم تضمحل ثم تنطفىء .

ومضت الأيام وقرأت تلك القصة العجيبة فى صدقها ، قصة تشيكوف حين تحدث عن حوذى جاء إلى حصانه يخبره أن ابنه قد مات : فأثارت فى نفسى هذه القصة أسفاً جديداً . ياليت أنى كان لى فى تلك الأيام السود حصان أشكو إليه . ولكن لا حصان ولا كلب .

ولم يخطر على بالى أن أقاسم شقاوتى هذه الفيران ، رغم أنها كانت كثيرة عندى ولله الحمد ، ورغم أننا كنا أصدقاء أوفياء .

الفصل السابع

كان نيكيفورتش، عريف المدينة، يحوم حولى كما يحوم العقاب حول فريسته كان طويل القامة، شديد البأس، على رأسه فرشاة من شعر فضى، عريض اللحية. كان ينظر إلى يكاد يمتصنى كما يمتص الشره الشراب، ويتأملنى كما يتأمل المتأمل بطة ذات ريش غداة عيد الميلاد.

قال لى مرة:

— أرى أنك تحب المطالعة. فماذا تقرأ؟ أقرأت الإنجيل وحياة القديسين مثلا؟

كنت قرأتهما فدهش نيكيفورتش وأزعجه ذلك إزعاجاً بيناً.

— نعم، نعم إنها قراءة مشروعة ونافعة! وهل قرأت مؤلفات الكونت تولوستوى؟

وكنت قرأت أيضاً تولوستوى، ولكن كل هذه الكتب لم تكن هى التى يبحث عنها الشرطى.

إنها مؤلفات عادية يكتب أمثالها كل الناس، ولكنى سمعت أن هناك كتباً تحمل على رجال الكنيسة. ياليتنى أستطيع قراءتها....

و «بعض الكتب» هذه، كنت أخرجها من تحت الخبز وأقرأها! وبدت لى محرجة، وكنت أعرف أن ليس من سبيل إلى التحدث عنها إلى سعادته.

كانت هذه الأحاديث تدور بينى وبينه فى الشارع، ثم دعانى الشيخ إلى بيته قائلا:

— زرنى نتحدث ونشرب الشاى.

وعرفت مايرمى إليه، وكنت أريد أن أزوره فاستشرت «أهل الذكر» فاتفقوا على أن رفض عروضه اللطيفة تزيد فى شكوكه فى المخبز.

ها أنا إذن عند نيكيفوريتش فى غرفته، وقد شغل ثلثها الأول الموقد! وثلثها

الثانى سرير مزدوج عليه وسائد كثيرة أغطيتها من قطن ، يستره ستار هندى ، أما مابقى من الغرفة فيزينه مقصف ومنضدة وكرسيان ومقعد تحت النافذة .

جلس نيكيفورتش مرتدياً ثيابه الرسمية على المقعد.وسد النافذةالصغيرة الوحيدة بجسمه،وجلست إلى جانبي زوجته ، وهى امرأة صغيرة القد ، عامرة الصدر ، عمرها عشرون ربيعاً ، صبوح الوجه ، خبيثة العينين لعينتهما ، فى لون بنفسجى غريب ، حمراءالشفتين حمرة قانية، كأن عليهما اشمئزازاً يقول لك:داعبنى،صوتها أجش غضوب ...

قال الشرطى :

— أعرف أن ربيبتى سيكليتيا تكثر من زيارتكم فى المخبز ، إنهاساقطة طائشة، والحق أن النساء كلهن ساقطات .

فسألته امرأته : — أكلهن ؟

قال : — نعم كلهن ! ثم قرقع أو سمته كما يقرقع الحصان نضوته . ومص مصة من كأسه ، وعاد يردد فى اقتناع وسرور :

— نعم إنهن ساقطات طائشات من آخر ابنة من بنات الشوارع إلى أول ملكة من ربات القصور . لقد قطعت ملكة سبأ ألوف الأميال فى الصحراء لتكون حظية من حظايا الملك سليمان ، وكذلك فعلت الامبراطورة كاترين على الرغم من أنهم يدعونها عظيمة .

ثم قص علينا فى تفصيل قصة موقد من موقدى المدافىء ، رفعته الملكة فى ليلة واحدة قضاها معها،رتبة ثم رتبة من عريف إلى جنرال .

وكان امرأته تصغى إليه ،وتقلب شفتيها وتعبث بقدمى تحت المنضدة ،وظل نيكيفوريتش يحدثنا حديثاً فياضاً مختار الألفاظ ثم انتقل ، دون أن أنتبه ، إلى موضوع جديد فقال :

— هنا مثلا طالب فى السنة الأولى يدعى بليتينيف .

وتنهدت زوجته ثم قالت :

— إنه ليس جميلا ، لكنه طيب

ـــ ومن هو هذا ؟

ـــ السيد بليتينيف

ـــ أولا : إنه ليس بسيد الآن ، وسيصبح سيداً إذا انهى دراسته ! أما الآن فهو ليس إلا طالباً من الطلاب مثل ألوف من أمثاله لا أكثر لا أقل . ثانياً ماذا تريدين من قولك إنه طيب ؟

ـــ إنه فتى طروب .

ـــ أولا :إن مرتزقاً من مرتزقة السوق طروب مثله .

ـــ ولكن هذا المرتزق لا يطرب إلا للنقود.

ـــ كفى ، كفى ! ثانياً : إن الكلب العجوز كان صغيراً فى أول عمره . . .

ـــ ولكن المرتزق كالقرد . . .

ـــ كفى ، كفى ، قلت لك ، ألا تسمعين ؟

ـــ طيب .

ـــ إذن فالحمد لله . . .

وعاد ينصحنى بعد ما كان من إهانته لامرأته :

ـــ لا بأس أن تعرف بليتنيف،فهو أهل لأن يعرف . . .

وقلت له ، وقد رآنى من قبل مرات أسير مع بليتنيف فى الشارع:

ـــ ولكنى أعرفه.

ـــ آه , إذن فأنتما صديقان ؟

ومشى الكره فى ألفاظه ، وتحرك فجأة وقد قرقعت أوسمته ، وأخذت حذرى ، فأنا أعرف أن بليتنيف كان من أصحاب ماتحت الخبز ،ودفعت المرأة رجلى دفعة قوية،وهى تنظر إلى الشيخ فى خبث ، أما الشيخ فقد انتفخ كما ينتفخ الطاووس ،وبذل كل ما يستطيع من جهد ليكون حديثه بليغاً فصيحاً،ولقد منعنى تجسس امرأته من الإصغاء إليه ، ثم تغير صوته مرة أخرى ، دون ان ألحظ ذلك بادىء بدء ، وأصبح أكثر هدوءاً مما كان ، وأشد رغبة فى الإقناع .

قال لى ، وقد اتسعت حدقتاه واستدارتا كأنما أخذهما الرعب :

— الخيط الذى لايرى ، أفهمت ؟ لنفرض أن الامبراطور عنكبوت ...

فهتفت امرأته مستغربة ، متعجبة :

- أوه ،ماذا تقول؟

- أما أنت فاخرسى،ياغبية ،إنما أضرب مثلا ليتبين الناس،لالأغضب الامبراطور . قومى فاحملى السماوريا مهرة .

وتقوس حاجباه وتقاربا ، ثم صغرت حدقتاه وضاقتا ، وتابع فى اهتمام :

- أجل خيط لايرى ، مثل خيط العنكبوت ، يخرج من قلب صاحب الجلالة، من قلب صاحب الجلالة الامبراطور اسكندر الثالث. يخرج هذا الخيط فيخترق أصحاب المعالى الوزراء،وصاحب السمو الحاكم، وأصحاب السعادة من ذوى المناصب،وأنا منهم حتى يبلغ آخر جندى : كل يتصل بهذا الخيط ويمت بسبب إليه .وقوة هذا الخيط التى لاترى،هى التى تحرس هذه الدولة وتحميها إلى قيام الساعة . ولكن البولونيين واليهود ، وبعض الروس ويالأسف ، ممن اشترتهم ملكة انكلترا يحاولون أن يقطعوا هذا الخيط ، قطعت أيديهم ، أيان كانوا . ثم هم يدعون أنهم يعملون فى سبيل الشعب .

وسألنى متمتماً مهدداً وهو ينحنى على من فوق المنضدة :

- أفهمت ؟ حسناً ، قد تسألنى لماذا أقول لك ذلك ؟ إن خبازك يلهج بالثناء ويقول إنك فتى ذكى شريف ، تعيش وحيداً فى منعزل عن الناس ؛ ولكن مابال أولئك الطلاب يجتمعون عندك ويقضون الليل مع أخت دورانكوف ؟ لو أنهم مضوا ولم يبق منهم إلا واحد لفهمنا،ولم نحتج إلى كثير من الذكاء،ولكنهم كثيرون إيه : أرجو أن لاتظن أنى أسيء الظن بالطلاب ، إن الطالب اليوم طالب ، وغداً مدع عام أو مستنطق ، والطلاب كرام برره ، ولكن هنالك من يدفعهم من حيث لايعلمون ، وأعداء القيصر لايألون جهداً فى إثارتهم وتحريضهم ؛ أفهمت ؟ سأقول لك كذلك ...

ولكن الشيخ لم يتم كلامه ، فقد فتح الباب على مصراعيه ودخل شيخ ذو أنف أحمر ، تغطى رأسه قلادة من نحاس ، وفى يديه زجاجة من القودكا ، وهو يترنح سكراً

فقال نيكيفوريتش وقد ظهرت فى وجهه الكراهية : -

- عمى ... والد زوجى

استأذنت بعد دقائق وخرجت ، وشيعتنى المرأة إلى الباب ، ثم قرصتنى وهى تغلق الباب من ورائى وتقول : -

- ما أشد حمرة الغيوم ، لكأنها من نار !

فنظرت فلم أجد إلا غيمة واحدة مذهبة تذوب فى أفق السماء :

لست ممن ينكر الجميل أو ينسى المعروف ، ولست أريد أن أتهم إفهام أساتذتى ولكنى أقر وأعترف مع ذلك أن عريف المدينة قد استطاع ان يفسر لى فى شكل جامع مانع لم يبلغوا كلهم شأوه ، الأداة الحكومية وآليتها: هناك فى مكان ماعنكبوت يخرج منه « خيط لا يرى » يحيط بالحياة ويلفها ، وعرفت بعد حين كيف أكشف فى كل مكان من هذا الخيط، مواطن عقده المتينة .

أقبل الليل ، وأغلق باب الحانوت ، واستدعتنى المعلمة إلى غرفتها وأخبرتنى أنها كلفت بمعرفة موضوع حديثى مع الشرطى ، ثم استمعت إلى قصتى فى انتباه وصرخت :

— آه ، يارب!

كانت قلقة تركض كالفأرة من ركن إلى ركن ، وهى تهز رأسها ثم سألتنى :

— ألا يسألك الخباز عن شىء ؟ إن خليلته من قريبات نيكيفوريتش ، أليس كذلك ؟ يجب أن نطرده.

كنت أستند إلى مصراع الباب وأطرق رأسى : لقد نطقت باسم « خليلته » فى بساطة أزعجتنى، ولقد أسخطنى أيضا قرارها بفصل الخباز.

— كن على حذر.

قالت ذلك ، وجعلت تنظر إلى نظرتها المعهودة التى طالما هزتنى ، وخيل إلى أن هذه النظرة تسألنى شيئاً لا أستطيع فهمه ، ثم وقفت أمامى وسألتنى ويدها وراء ظهرها :

ولم أنت حزين هذا الحزن ؟

ـ لقد ماتت جدتى منذ أمد قصير ...

لكأن جوابى حمل اليها العزاء والسلوى فابتسمت وسألتنى :

ـ أتحبها حباً جماً ؟

ـ نعم ...أتريدين منى شيئاً آخر ؟

ـ كلا...

خرجت ، ونظمت فى ليلتى تلك أبياتاً فيها ، كما أذكر ، لازمة عنيدة:

ـ لست كما تريدين أن تكونى ...

تقرر أن ينقطع الطلاب عن المخبز فلا يزوروه إلا قليلا ، وفقدت كل فرصة أطلب فيها تفسير مااستغلق على مما أقرأ،فبدأت أدون ملاحظاتى وأسئلتى فى دفتر، وحدث أن أرهقنى العمل يوماً فنمت فوق الدفتر ، فقرأه الخباز ثم أيقظنى ليسألنى :

ـ ماذا تكتب ؟ « لماذا لم يطرد جاليباردى الملوك » ؟ من جاليباردى هذا؟ وهل يمكن طرد الملوك؟

ثم ضحك والقى بالدفتر على المصطبة وقال :

ـــ اسمع . . انه يريد طرد الملوك . العمى . خل عنك هذه الفصاحة ياحضرة الأستاذ . منذ خمس سنوات قبض الدرك فى ساراتوف على أمثالك من الفصحاء ، كما يقبض على الفيران . إن نيكيفوريتش يراقبك ويهتم بك منذ حين . دع الملوك هادئين . . يرحمك الله . .

لقد كان يحدثنى وهو يريد لى الخير كما يراه ،ولم ارد عليه كما أود ،فقد حرم على أن أتحدث إلى الخباز ، فى موضوعات خطرة . .

ورد المدينة كتاب مثير ، قرأه الناس وتنازعوا فيه ، ورجوت البيطرى لافروف أن يعيرنى إياه فقال لى يائساً :

ـــ لا ياشيخى ، دع عنك أمره . ولكننى أظن أننا سنتلوه فى مكان ما ، وسأمضى بك اليه .

واتبعت فى الظلام ، عند منتصف الليل ، غداة عيد انتقال العذراء ، خيال لافروف وهو يمشى أمامى فى حقل ارسكى على بعد خمسين خطوة .

كان الحقل مقفراً ، وكنت أمشى على الرغم من ذلك خائفاً أترقب ، كما نصح لى لافروف وأنا أصفر وأغنى رافعاً عقيرتى ، محاولا أن أتخذ مظهر «عامل عربيد».

كانت الغيوم السود تسير متراخية فوق رأسى مزقاً مزقاً ، والقمر يلوح بينها كرة من ذهب أصفر وهاج ، والظلال تلقى نفسها على الأرض هنا وهناك ، والحفر إذا مد إليها القمر عيونه التهبت فضة فإذا مدت عليها السحابة ظلها التهبت فولاذاً ، ومن ورائى تدوى ضوضاء المدينة .

وقف رائدى أمام حائط بستان وراء مدرسة الرهبان ، فأسرعت الخطى لأصل إليه ، وتسلقنا الحائط صامتين . واخترقنا البستان الكثيف ونحن نصطدم بالأغصان فتمطرنا قطرات كبيرة من الماء . ثم بلغنا منزلا وجذبنا ستار نافذة فيه ، فبدا لنا رجل ذو لحية لاترى وراءه إلا الظلمة ، ولا تحس همساً ولا ركزاً . قال : — من الطارق ؟

قلنا — أرسلنا يعقوب .

قال — تسلقوا .

فاذا ظلمة كظلمات الجحيم بعضها فوق بعض ، واذا بى أشعر فيها بوجود جماعة كبيرة . وأسمع خشخشة الثياب ، ووطء الأقدام ، وسعال إنسان يسعل فى رفق ، ثم اشتعل عود ثقاب فأضاء وجهى ، وتبينت على الأرض عند الحائط أشباحاً سوداً كثيرة .

— هل من غائب ؟

— كلا .

— ضع الستار ولا تدع فيه ثقباً .

وهتف صوت ناقم غير خافت .

— أى ملعون فطن إلى جمعنا فى هذا المنزل المهجور ؟

وأمرته أصوات خافتة من حوله : — اخفض صوتك .

وأضيء قنديل صغير فى زاوية. كانت الغرفة خالية خاوية على عروشها ليس فيها إلا صندوقان عليهما لوح خشبى تربع فوقه خمسة رجال كأنهم غربان فوق سياج ، أما القنديل فقد كان على صندوق آخر ، وجلس على الأرض ثلاثة آخرون يسندون ظهورهم إلى الحائط ، ووقف عند النافذة شاب طويل الشعر ، نحيل القد ، شاحب الوجه ، لم أعرفه من قبل ، ولم أعرف أيضاً الرجل ذا اللحية ، أما من بقى من الحاضرين فأعرفهم جميعاً .

أعلن ذو اللحية فى صوت خافت أنه سيقرأ علينا منشوراً عنوانه « اختلافاتنا » كتبه « بليخانوف » ، الشعبى السابق .

وتمتم صوت منبعث من الأرض فى الظلام : — معروف .

لقد هزتنى غرابة هذه اللوحة هزاً لذيذاً ، إن شعر الأسرار والأحاجى أسمى الأشعار . وخيل إلى أننى مؤمن يصلى فى الكنيسة صلاة الصبح ، وذكرت الأقبية والمقابر التى كان يأوى إليها المسيحيون الأوائل . وإذا بصوت يملأ الغرفة ، أجش ، واضح النبرات ، يتحدث حديثاً لم أفهمه .

وهتف من جديد هاتف فى الزاوية : — يا للحماقة — وهنالك على الجدار لمعت أداة من نحاس لمعاناً سرياً قلقاً ، ذكرنى بخوذة جندى فى خندق ، وتبينتها فإذا هى فم الموقد .

واختلطت الأصوات الخافتة فلا تسمع إلا فوضى ممزقة من الكلمات لا يمكن أن تميز فيها صوت انسان ، وسأل من جانب النافذة ، فوق رأسى ، سائل صوته عال ساخر :

— أتريدون أن نقرأ ؟ هكذا تكلم الشاب الأصفر .

صمت الجميع ، فكأن على رؤوسهم الطير ، وبدأ تلاوة المنشور صوت خافت ، واشتعلت عيدان الثقاب ولمعت نيران السجاير الحمر ، تضيء وجوه الرجال وقد غدوا مفكرين متأملين ، جاحظة عيونهم أو مغمضة .

ومضت التلاوة طويلة مرهقة ، وتعبت من الإصغاء ، رغم ما فى تلك الكلمات من حدة وعنف ، ورغم أنها كانت تتحول فى سهولة وفى بساطة إلى افكار موقنة

بما فيها من صواب .

وفجأة انقطعت القراءة ، وامتلأت الغرفة بكلمات لاحقة

— مزيف..

— إنه يبصق على دم الشهداء

— أبعد شنق جينير الوف وأوليانوف؟

وسمعنا مرة أخرى من جانب النافذة صوت الشاب :

— ألا نستطيع ياسادة أن نستبدل بالشتائم والسباب ملاحظات جدية عميقة؟ أنا ممن لايحب الجدل ولا يعرف الإصغاء إليه ، وعسير على أن أتتبع القفزات المتقلبة فى التفكير الجامح ، وأتمير غيظاً إذا رأيت الكرامة الشخصية مطروحة على بساط البحث بين الخصوم .

مال الشاب إلى وسألنى :

— أأنت يشكوف الخباز ؟ أنا فيدوسيف . أتريد أن نتعارف؟ قم بنا.ستستمر الضوضاء زمناً طويلا ولكنها لن تفيد كبير فائدة . أتريد أن نخرج ؟

كنت أعرف أن فيدوسيف مؤسس جماعة من الشباب كثيرة الجد والحزم ، ولقد رأيته الآن فأرضانى وجهه العصبى الشاحب وعيناه العميقتان .

ومضينا نمشى فى الحقل فسألنى عن علاقاتى بالعمال، وعن مطالعاتى ، وعن زمنى وقال لى فيما قال :

— سمعت بمخبزك ، ووجدت أن ليس طبيعاً أن تهتم بما لا أعرف من حب للانسانية لايجديها ولا يؤدى إلى خيرها .

ولقد شعرت أنا نفسى منذ حين أن ذلك لايجدى وبسطت له رأيى ، ففرح بما سمع ثم صافحنى فى بأس ، وابتسم فى اخلاص ، وقال إنه مسافر بعد غد ،فغائب ثلاثة أسابيع ، وسيخبرنى إذا عاد أين وكيف نلتقى .

الفصل الثامن

ازدهرت أحوال المخبز فازدادت أحوالى نكراً . ولقد زادنى انتقالنا من فرن إلى فرن عملا على عمل ، فكان على أن أشتغل فيه،وأن أحمل الخبز إلى بيوت الزبائن وإلى الجامعة ثم إلى معهد البنات النبيلات . كن يتناولن الخبز من سلتى ويدسسن فيها بطاقات رشيقة كتبن عليها فى خط صبيانى كلمات داعرة تهزنى خوفا وهلعاً .

كن إذا تزاحمن حول سلتى رائقات الهندام ، طاهرات العيون ، ونبشن بضاعتى نبشاً حبيباً مضحكا ، وجعلن بأيديهن الموردة عاليها سافلها ،أنظر إليهن ، وفى جوانحى إحساس غريب ، وأحاول أن أكشف فيهن اولئك اللواتى كن يكتبن تلك البطاقات الطائشة ، وهن لا يفهمن فى غالب الظن معانيها التى يندى لها الجبين خجلا.

أوقفتنى يوماً فتاة شقراء ، عامر صدرها ، كثيف شعرها ، تتدلى غدائرة ، ثم قالت لى مسرعة خافضة :

ـــ لك عشرة كوبكات إذا أديت هذه البطاقة إلى صاحبها.

وامتلأت عيناها السوداوان اللعوبان بالدموع ، ونظرت إلى وهى تقضم شفتيها قضماً ، وتضرج خداها وأذناها بدم الخجل ، فرفضت المال،وقبلت البطاقة فأعطيتها صاحبها وهو ابن عضو فى المحكمة ، طويل القامة،كسا السل خديه حمرة قانية .

أخرج ما فى جيبه من نقود وأحصى خمسين كوبكا،ثم عرضها على صامتاً مفكراً ، فرفضتها طبعاً وأراد أن يعيدها الى جيبه ، فألقاها دونه فسقطت وتناثرت على الأرض ، ورآها تتدحرج على الأرض من كل صوب فبدا على وجهه القلق و الاضطراب ثم فرك يديه حتى كاد يقد أصابعه ، وتمتم وقد أصابه عسر فى التنفس .....

ـــ ما العمل؟.... الى اللقاء ..... دعنى أفكر فيما نابنى ....

ولم أعرف طبعا نتائج تأملاته العميقة ،ولكنى أشفقت على تلك الآنسة إشفاقا، وسمعت بعد قليل أنها اختفت من المعهد ، ثم رأيتها بعد خمسة عشر عاما معلمة فى

مدرسة ثانوية فى شبة جزيرة القرم . كانت مسلولة تتحدث عن الكون كله حديث الناقم الغاضب . وكان غضبها عنيفاً لاأثر فيه للرحمة ، عصبياً لاأثر فيه لغير الأعصاب ، هو غضب امرأة سحقتها الحياة سحقاً .

وكنت اذا وزعت الخبز نمت ، فإذا حل المساء اشتغلت فى الفرن ، فإذا انتصف الليل حملت الحلوى الى الحانوت ، ثم عدت فبتثال على الناس من دار التمثيل - وكان فرننا قريباً منها - يلتهمون الفطاير الساخنة ؛ ثم أكببت على صنع الخبز البلدى والخبز الفرنسى وماأظن أن من اللعب صنع ثلاثمائة رطل أو أربعمائة رطل من الدقيق . فإذا انتهيت من ذلك كله نمت ساعتين أو ثلاثاً ، وقمت عند الصباح الى حمل الخبز .

كان هذا ديدنى كل يوم ، كان هذا مايؤديه جسمى من أعمال ؛ أما نفسى فقد استبدت بها وملكت عليها سبلها لهفة لاتطاق تريد أن « تزرع الخير والعدل والخلود » كنت رجلا أليفاً ؛ أعرف كيف أقص أحسن القصص فى حياة وقوة ولقد أهرق خيالى كل ماحييته وما قرأته ، ولم تكن بى حاجة إلا إلى القليل كيما أستطيع أن أؤلف من حادث تاريخاً مؤثراً ينساب فيه رقيقاً ناعماً « ذلك الخيط الذى لايرى » وعرفت أصدقاء بين عمال مصانع كريبستوفينكوف والوفوزوف وتوثقت أواصر الصلة بينى وبين فيكيتاروبتسوف ؛ وهو حائك قديم ، ذكى دائم القلق ، طوف روسيا كلها واشتغل فى مناسجها كلها .

قال لى فى صوت مختنق ، وفى عينيه المريضتين ابتسامة تبدو من وراء عوينات سود حاملتها من نحاس ، يضعها على أرنبة أنفه ، ويرسلها من وراء أذنيه فتترك آثارها الخضر .

— لقد طوفت فى الآفاق خمساً وعشرون سنة ياصديقى اليكس مكسيمتش الحبيب ... يا ...

كانوا يلقبونه « الالمانى » لانه يحلق ذقنه ويرسل شاربيه وعثنونه وكان ربعة ، عريض مابين المنكبين يملؤه مرح سوداوى . قال لى وهو يلتى رأسه الاصلع المحدودب على كتفه :

— أحب ملاعب الحيوان ، وأعجب كيف يستطيعون تدريب الخيل مثل هذا التدريب ؟ وهى بهائم . أن ذلك لعظيم . إنى إذا نظرت إلى البهائم نظرة احترام قلت فى نفسى :

— إن فى الامكان أن يعلم الناس الناس استخدام العقل واستعماله : يقولون إن المدربين يطعمون البهائم السكر ونحن نشترى السكر من الحوانيت ، اليس كذلك ؟ ولكن نفوسنا لاتريد هذا السكر الذى نشتريه ، انها تريد سكراً من نوع آخر هو الوداعة واللطف . يجب ياصديق أن يعامل بعضنا بعضاً باللطف لا بضربات العصى ، كما تعودنا أن نفعل حتى اليوم . ألا ترى ذلك معى ؟

اما هو فلم يكن يرفق بالناس ، كان يحدثهم فى سخرية قد تكون احتقاراً . فإذا حدثوه كان جوابه مقاطع لا كلاماً ، وهو يرمى بذلك إلى إثارة الحنق والغيظ فى صدر من يحدثه .

عرفته فى حانة ، وقد هم الناس به لولا أن انقذته بعد أن ذاق لكمتين . قلت له وأنا أمشى فى الظلام تحت رذاذ من امطار الخريف :

— هل أصابك سوء ؟

تقال لى غير مكترث بى :

— أيدعى ذلك سوءاً ؟ اسمع . من أجاز لك أن تسألنى ؟

هكذا بدأت علاقاتنا ، ولقد سخر بى بادىء بدء ، سخرية ناعمة ذكية . وحدثته عن الدور الذى يلعبه فى حياتنا ذلك « الخيط الذى لايرى » فصاح وهو يفكر :

— ولكنك لست بليداً ياصاحبى .

وشرع يعاملنى منذ ذلك الحين فى حنان أبوى ويدعونى باسمى وباسم أبى . قال لى مرة :

— ماأصدق أفكارك يااليكس ماكسيمتش ، ياأخى العزيز ، ولكن الناس لن يصدقوك . وأنت إنما تريد لهم الهدى والخير .

— ولكنك أنت تصدقنى .

— اما أنا فلست إلا كلباً متشرداً ، قصير الذنب ، ولكن من حولك الشعب ، والشعب مجموعة من كلاب مغلولة الرقاب ، طويلة الأذناب تراكم فوقها الفحم

ـ نساء وأطفال ، وآلات وكاوتشوك . كل كلب صغير يعبد بيته . وهم لن يصدقوك أبداً .

حدثت أمس في مصنع موروسوف حادثة كبرى ، ولقد أخذ من قام بها ، فضرب على أم رأسه ، وليس الرأس كالقفا ياصاحبي ..

واعتدلت لهجته كذلك عند ماعرف عامل الأقفال يعقوب شابوشنيكوف ، وهو عامل عند كريستوفينيكوف . كان يعقوب مسلولا ، يجيد العزف على القيثارة وعالماً كبيراً من علماء التوراة ، ولقد صعقت روبتسوف طريقته الناقة فى إنكار وجود الله ، وكان إذا شرع فى ذكر أدلته الشديدة المتحمسة ، بصق فى كل صوب بقايا رئتيه المهترئتين الدامية .

كان شابوشنيكوف إذا تحدث تغيرت ملامحه وأصبح مخيفاً ، كان وجهه دقيقاً نحاسياً ، وشعره أسود مجعداً كشعر النور ، وأسنانه تبدو وراء شفتيه الزرقاوين لامعة كأسنان الذئب ، وعيناه شهلاوين تتركزان جامدتين فى وجه خصمه . لقد كان عسيراً على المرء أن يقاوم هذه النظرة التى تفرض نفسها فرضاً ، والتى ذكرت بها نظرة ذلك المريض المصاب بداء العظمة .

قال لى روبتسوف ونحن عائدان من منزل شابوشنيكوف فى صوت أجش :

ـ ما رأيت أحداً يثور على الله قبل اليوم ، ولم أسمع قط مثلما سمعت اليوم . لقد سمعت كل شيء ، أما هذا فلا ، لن يعمر هذا الرجل طويلا ، يا للهول ، لقد سخن حتى ابيض .لشد ما أهمنى أمره .

ولم يطل الأمد بروبتسوف حتى أصبح صديق يعقوب الحميم ، ومنذ ذلك الحين أصابه غليان دائم وأصبح يحك عينيه بإصبعه دون انقطاع .

قال لى مرة وهو يبلع ريقه :

ـ إن القيصر لا يزعجنى قط . والمسألة اليوم ليست مسألة القياصرة وإنما هى مسألة أصحاب الأعمال . يمكن أن أتفاهم مع أى قيصر حتى مع « ايفان المرعب » ؛ اسمع أيها القيصر ، ابق هنالك جالساً على عرشك واحكم ما طاب لك أن تحكم ، ولكن دعنى أرجع العقل الى رؤوس أصحاب الأعمال . أسمعت ؟ فإذا أنت وافقتنى ولم تعصنى عقدت على رأسك التاج بسلاسل من الذهب .

قرأ مرة المنشور « القيصر مجاعة » ثم صرخ قائلا : — كل ما فيه صدق وحق.
ورأى لأول مرة منشوراً ، فسألنى :

— من كتب هذا ؟ إنها لكتابة جيدة . إذا رأيته فبلغه عنى السلام والشكر

كان روبتسوف متلهفاً شوقاً الى المعرفة ، يصغى تمام الإصغاء إلى الآراء الهدامة التى يعرضها شوبوشنيكوف ، ولقد ظل مرة ساعات وهو يصغى إلى وأنا أحدثه عما قرأت فيضحك مسروراً ، يقلب رأسه الى الوراء ، ويقدم حنجرته إلى الأمام ، وهو شديد الحماسة :

ما أقوى العقل الإنسانى ، انه خير طيب ونعمة كبرى .

كان إذا قرأ ، أجهد نفسه وكانت عيناه المريضتان تحولان بينه وبين المطالعة ، ولكنه كان واسع المعلومات سعة أدهشتنى .

— عند الألمان نجار ، ذو ذكاء خارق للعادة ، يدعوه الملك نفسه إلى مجالس مستشاريه عرفت أنه يعنى ببيل فسألته : — وكيف عرفت ذلك ؟

وقال وهو يحك جمجمته المحدودبة : — أنا عارف .

لم يكن تلاطم الحياة المرهق ليثير اهتمام شابوشينكوف ، إذ كان مشغولا عن ذلك بمهاجمة الأديان والاستهزاء برجال الكنيسة وخاصة بالرهبان الذين كان يكرههم كرهاً خاصاً .

سأله مرة روبتسوف فى هدوء :

— قل لى يايعقوب ، لم تغفل كل شىء حولك ثم لا تهتم الا بالتحامل على الدين؟

فصرخ يعقوب أكثر ما كان غضباً :

— وهل يزعجنى غيره ؟ لقد آمنت به عشرين عاماً ، وعشت خلالها فى خوف منه . وصبرت على كل ما كان منه . كنت أقول : — هذا حكم الله يانفس فاصبرى ، ولا تنكرى أحكامه ، فهى أحكام منزلة من السماء ، عشت موثقاً مقيداً . ثم قرأت التوراة فى عناية وانتباه ، ووجدت أن هذا كله باطل واختراع . نعم اختراع يانيكيتا .

ومد يمينه كأنه يريد تمزيق « الخيط الذى لايرى » ومضى يقول وكأنه يجهش بالبكاء :

— أرأيت ؟ هذا هو الذى قتلنى ولم أبلغ أجلى .

كانت لى علاقات أخرى لذيذة ، كنت أزور كثيراً مخبز سوموتوف لألقى رفاقى القدماء ، فيستقبلوننى فى سرور ، ويستمعون إلى فى لهفة. ولم أكن أستطيع لقاء روبتسوف وشابوشنيكوف إلا نادراً ، فقد كان الأول يسكن قرية الأميرالية ، ويسكن الآخر قرية التتر ، وكانت زيارتهما لى مستحيلة ، فليس لى مكان أستقبل فيه الزائرين ، وزاد الطين بلة أن الخباز الجديد كان جندياً متقاعداً يرافق رجال الدرك ، وكانت « البذلات الزرق » المحترمة تقفز من فوق الحائط ، لتحمل خبزها وخبز قائدها ، وطلب إلى أصحابى أيضاً أن أقلل ، ما استطعت ، من ظهورى ، خشية أن ألفت الأنظار إلى المخبز من غير جدوى .

بدا لى أن عملى أضاع كل ما يبرر وجوده . وقد حدث كثيراً أن الناس كانوا يستنزفون كل ما فى الصندوق من مال ، لا يكترثون بنجاح المشروع ، ولا يهمهم أمره ، ولقد بلغ بنا الأمر أحياناً أنا كنا لا نجد ثمن الدقيق. وكان دورانكوف يعبث بعثونه حزيناً وهو يقول :

ــ سنعلن إفلاسنا عما قريب .

كانت حياته غير راضية أيضاً : هذه فاستيا ذات الجدائل الشقر ، ضخمة بالغة الضخامة ، كانت تشتم وتكشر عن أنيابها كأنها هرة ناقمة . وتثبت على كل شىء ، وعلى كل إنسان نظرة خضراء غاضبة . كانت تمشى إلى أندره على خط مستقيم ، كأنها لا تراه ، فيفسح لها الطريق ، وعلى ثغره ابتسامة مذنب وفى صدره زفرات .

ولقد شكى إلى أمره أحياناً فقال :

ــ أرى أنا فى هزل لا فى جد ، إنهم يأتون على كل شىء دون تفكير ؟ لقد اشتريت ستة أزواج من اللفائف للأرجل ، فطارت دفعة واحدة .

ولقد كان حديثه عن اللفائف مضحكا ، ومع ذلك فلم أضحك . لقد رأيت هذا الرجل المتواضع الذى وهب نفسه ، يكافح من أجل مشروع نافع ، يريد له أن ينجح ، بينما كان كل من حوله يدمر ما يصنع غير مبال ولا مكترث.

لم يكن دورانكوف يطمح إلى أن يعترف له أولئك الذين يضحى فى سبيلهم بما يسدى إليهم من معروف ، فذلك أمر لم يخطر له فى بال،ولكنه كان ينتظر أن يقفوا منه موقفاً أدل على الاهتمام والصداقة ، فلا يجد هذا الموقف .

أخذت عائلة دورانكوف فى التفسخ والانحلال . فقد أصاب أباه خبل دينى حلو ، وأكب أخوه الصغير على الخمر ، وعلى النساء ، وأصبحت أخته غريبة عنه . ولعل حكاية لاتسر ،كانت تدور بينها وبين الطالب الأشقر ، فقد لاحظت أن عينيها قرحتهما الدموع ، فكرهت ذلك الطالب كرهاً عميقاً.

خيل إلى أنى أعشق ماريا دورانكوفا،وأنى أحب أيضاً بائعة مخزننا،ناوجدا تشيرباتوفا، وهى فتاة فى ميعة الشباب ،موردة الخدين، تفتر شفتاها القرمزيتان عن ابتسامة خالدة. كنت عاشقاً على كل حال . سنى ، وطبيعتى ، وحياتى المعقدة ، كل أولئك كانت تتطلب منى علاقات نسوية ،ولكنى جئت فى الزمن الأخير . كنت فى حاجة إلى الحنان ، أو على القليل إلى عناية امرأة تعطف على ، كنت فى حاجة إلى أن أتحدث عن نفسى حديثاً مفتوح الصدر ، كنت فى حاجة إلى أن أجد نفسى الضائعة فى خليط من الأفكار المتنافرة ، وفى فوضى من العواطف المختلفة .

لم يكن لى أصدقاء . وأولئك الذين كانوا يرون أنى « مادة من المواد الخام » لم ينالوا حبى ،ولم يحملونى على الصراحة والصدق . كنت إذا حدثتهم حديثاً لايتصل بهم نصحونى قائلين: — دع عنك هذا .

قبض على جورى بليتينيف ونقل إلى سجون بطرسبرج . ولقد نقل إلى هذا النبأ نيكيفوريتش نفسه . رآنى فى الطريق صباحاً ،تياهاً بأوسمته التى تغطى صدره، كأنه عائد من حفلة استعراض ، رفع يده إلى قبعته ،يحيينى ثم مر صامتاً،ثم وقف وقال لى من ورائى فى صوت كئيب: — قبض الليلة على «جورى اليكساندروفيش» ثم أضاف إلى ذلك فى صوت أكثر خفوتاً ،وهو يتلفت حوله : — مسكين لقد ضيع نفسه،وخيل إلى أن دموعاً تترقرق فى عينيه الخبيثتين . كنت أعرف أن بليتينيف كان ينتظر أن يقبض عليه ، وقد أخبرنى هو بذلك ونصحنى أن لاأزوره .

سألنى نيكيفوريتش، مطرق الرأس، ينظر إلى قدميه، فى صوت اللائم :

— لم لاتزورنى ؟

زرته مساء ، وكان قد استيقظ وجلس على سريره يشرب شراباً ، أما امرأته فوقفت عند النافذة ترقع سروالا . قال لى الشرطى، وهو يحك صدره الذى يغطيه شعر قنفذ :

— قبضوا عليه ، ووجدوا عنده أداوة، يعد فيها حبراً ، ليكتب المنشورات ويهاجم القيصر، ثم بصق على الأرض ، ونادى امرأته فرحاً : — هاتى السروال .

وقالت امرأته ولم ترفع رأسها : — سآتيك به .

غمز الشيخ بعينيه ، وأشار إلى امرأته وهو يقول :

— هاهى تبكى عليه ، وأنا أيضاً آسف لما حل به ، ولكن ماذا يستطيع الطالب أن يفعل ضد الملك ؟

وشرع يلبس ثيابه وهو يقول : — سأخرج قليلا . هيئى لنا الشاى .

كانت امرأته تنظر من النافذة، دون أن تتكلم ، فما كاد يغيب وراء الباب ، حتى استدارت فى نشاط، ومدت قبضتها إلى الباب مهددة ، متوعدة، وقالت، وقد ملأها الغضب :

— يالك من نذل عتيق .

كان وجهها قد نفخته الدموع ، وعينها اليسرى تكاد تغمضها زرقة قاتمة ، ثم قفزت واقتربت من الموقد وانحنت على السماور وهى تصيح :

— سأخونه ... سأخونه مابقى يعوى ، وسيعوى عواء الذئب، لاتصدقه أبداً، لاتصدق كلمة واحدة من كلماته ، إنه ينصب لك الفخ لتقع فيه ، كذاب ، أشر لايرحم ، يصيد الناس ، إنه يعرف كل ماتفعله، وهو يحيا من أجل ذلك، وبذلك ، لايرى الصيد إلا صيد الرجال .

واقتربت منى حتى كادت تلتصق بى ، وقالت لى فى صوت شحاذة: — داعبنى قليلا ... إيه ...داعبنى

كرهت هذه المرأة ، ولكن عينيها كانتا تتطلعان إلى، قلقتين، نافذتين، فعانقتها

وداعبت شعرها الأشعث ثم سألتها :

— من يراقب اليوم ؟

— رجلاني فندق رينو رياد سكايا

— ألا تعرفين اسمه ؟

وأجابت وهي تبتسم :— سأخبره بما سألت . . . هاهو . . .

وقفزت إلى الموقد، ودخل نيكيفوريتش يحمل زجاجة فودكا وحلوى وخبزاً. جلسنا نشرب الشاي وجلست مارينا إلى جانبي، تحيطني بعناية خاصة ، وتنظر إلى بعينها السليمة ، وزوجها يقول لي :— إن هذا « الخيط الذي لا يرى » متغلغل في أعماق القلوب ، فحاول، إن استطعت، قطعه أو استئصاله . إن القيصر عند الشعب هو الله .

ثم سألني فجأة:— إنك درست الكتب، وقرأت الإنجيل، فاخبرني هل كل ما فيه صحيح؟

قلت :— لا أدري .

— أما أنا فأرى أن فيه أشياء لا تنفع. خذ مثلا قوله عن الفقراء:— «طوبى للفقراء ، فإن لهم ملكوت السموات» أو قوله «الفقراء هم أسعد السعداء» وفيم سعادتهم؟ إن في هذا الكلام لخفة وإرسالا له على عواهنه ، وهناك أمور كثيرة تتعلق بالفقراء لا نجد إلى فهمها سبيلا . يجب أن نميز بين نوعين من الفقراء :— فقير كان ولا يزال فقيراً ، وآخر كان غنياً فافتقر. إن هذا لهو البائس التعيس . أرأيت كيف يكون التفكير السليم ؟

— ولماذا ؟

نظر إلي نظرة فاحصة، ثم سكت، ثم عاد يقول في صوت واضح موزون، وهو يشرح أفكاراً، طالما تأملها :

— في الإنجيل رحمة كثيرة، والرحمة أمر ضار سقيم. هذا هو رأيي، فاستمع إلي: تتطلب الرحمة نفقات كبرى ، في سبيل أناس لا ينفعون بل هم خطرون ؛ مستشفيات . . . سجون . . . ، بيمارستانات . . . ؟ يجب أن نمد يد المعونة إلى الرجال

الأقوياء الأشداء، ليتسنى لهم إنفاق قوتهم فيما ينفع، ولكننا نحن نساعد الضعفاء. أفي مقدورنا أن نجعل الضعيف قوياً؟ كلا! إذن فنحن، نضعف الأقوياء ونلقي على عاتقهم الضعفاء. علينا أن نعنى بهذا الأمر وحده. وهناك أمور أخرى يجب أن نعيد النظر فيها. علينا أن نفهم أن الحياة قد بعدت الشقة بينها وبين الإنجيل منذ زمن بعيد، وأن لها سيرها الخاص، واتجاهها الصريح. أتدرى ما الذى قضى على بليتينيف؟ إنها هذه الرحمة!

هذه هى المرة الأولى التى أسمع فيها هذه الأفكار فى هذا الشكل العامى، ولقد كنت سمعتها من قبل، أكثر حياة، وأكثر انتشاراً، مما يظن الناس فى الغالب. وانقضت عشرة سنوات، فقرأت نيتشه، وذكرت به فلسفة شرطى قازان. وإنى لأنتهز هذه المناسبة لأذكر أنى قلما وجدت فى الكتب أفكاراً لم أجدها من قبل فى الحياة.

وما برح «صياد الناس» يتحدث، ويجود، وهو ينقر بأصابعه أطراف الصحاف، ويقسو وجهه الجاف، وينظر إلى مرآة النحاس فى السماور.

وقالت له امرأته مرتين: — لقد آن لك أن تذهب.

فلم يجبها وظل يكوم كلمة فوق كلمة، وفجأة شقت أفكاره، ولم ألاحظ ذلك أيضاً، طريقاً جديدة فقال:

— أنت فتى ذكى متعلم. ولكنك لم تخلق لتكون خبازاً؛ إنك تستطيع، إذا شئت، أن تربح ما شئت إذا قمت بخدمة مملكة القيصر....

وكنت أفكر وأنا أصغى إليه، فى الوسيلة المثلى التى أستطيع بها إنذار من يسكن فى شارع ريبنورياد سكايا. وكنت أعرف أن سيرج سوموف يقطن غرفة فيه، وقد عاد حديثاً من منفاه، وسمعت عنه أنباء خطيرة.

— يجب أن يعيش الأذكياء، أكواماً، أكواماً، كالنحل فى الخلية، أو الزنابير فى العش. إن مملكة القيصر...

وقالت امرأته مرة أخرى: — الساعة التاسعة...

— العمى... ونهض نيكيفوريتش يزر سترته.

— لا بأس. سأركب عجلة. إلى اللقاء ياصاحبى، لا تنس زيارتى ولا تستحى...

الفصل التاسع

خرجت من بيت نيكيفوريتش ، وقد قطعت على نفسى عهداً وثيقاً أن لا أعود إليه أبداً ، لقد بعث فى نفسى،هذا الشيخ،الاشمئزاز والاهتمام فى آن واحد. وكم هزتنى كلماته فى أخطار الرحمة،ورسخت فى ذاكرتى رسوخاً عميقاً،وأحسست بشىء من الصدق فيها ، ولكن الذى غاظنى أنها خرجت من شرطى .

كانت المناقشات،حول هذا الموضوع،متشعبة كثيرة . أدهشتنى واحدة منها دهشة خاصة قاسية:قدم المدينة رجل من أنصار تولوستوى،وهو أول من لاقيت منهم . كان ضخم الجثة ، مفتول الساعدين ، أسمر الوجه ، له ذقن تيس سوداء ، غليظ الشفتين كأنهما شفتا زنجى .كان ،أكثر ما تراه مطرقاً إلى الأرض ، فإذا رفع رأسه أحياناًرفعه فى حركة سريعة مفاجئة،وقد أحرقنى ما فى عينيه الذيتين من لهيب مستعر ، وأحسست أن شيئاً من الحقد يغلى فى هذه النظرة النافذة .

ألقى علينا حديثاً فى منزل أستاذ فى الجامعة ، وسمع الحديث عدد وافر من الشباب منهم قسيس صغير الجسم ،ناحل ورشيق .كان أستاذاًفى اللاهوت، وكانت سترته السوداء تلفت النظر إلى وجهه الجميل الأصفر ،وعليه سيماء الرقـــة ، وقد أضاءته ابتسامة صغيرة،فيها جفاء، تنبعث من عينين باردتين شهلاوين .

تحدث صاحب تولوستوى،حديثاً طويلا،استمر ساعة أو تزيد،عن التضامن الخالد،والانسجام الالهى فى فضائل الإنجيل وحقائقه .كان صوته أصم وجمله قصيرة بينة القصر ، ولهجته فى كلماته الواضحة ،تشعرك بإيمان قوى مخلص.كان إذا تحدث حسبته يبحث عن شىء ،فترافق خطابه حركات متساوقة،تقوم بها يسراه،أما يمناه فلا تكاد تغادر جيبه .

سمعت واحداً من الناس يتمتم فى أذن صاحبه :

— مهرج ! — نعم ممثل .

كنت قرأت قبل ذلك اليوم ، كتاباً ألفه دربير - على ما أظن - عن النضال بين الكاثوليكية والعلم ، وخيل إلى فى هذه اللحظة أنى أسمع رجلا ، من هؤلاء الناس الذين هم مستعدون ، استعداداً تاماً ، لسوق ذوى قرباهم إلى المسلخ ، وذبحهم ، رأفة بهم ، على الرغم من أنهم يؤمنون بأن سلام العالم فى قوة الحب .

كان يلبس قميصاً أبيض ، واسع الأكمام ، وصداراً قديماً يميزه من سائر الحاضرين ، وقد اختتم خطابه وهو يزأر :

— وأخيراً أخبرونى أيها الناس ! أأنتم مع المسيح أم مع داروين ؟

قذف بسؤاله هذا جمهرة من الشباب تقف فى زاوية من زوايا الحجرة ، فى صفوف يرص بعضها بعضاً ، وتنبعث منها نظرات خائفة مترقبة ، ورأيت أن خطابه أثر فى الحاضرين تأثيراً ، فصمتوا مفكرين مطرقى رؤوسهم . فألقى الخطيب عليهم نظرة لاهبة ، لفتهم ، ثم قال فى قسوة :

— إن الفريسيين وحدهم ، قادرون على محاولة الجمع بين هذين المبدأين اللذين لا يجتمعان ، وهم إذا وفقوا بينهما كذبوا على أنفسهم من حيث لا يعلمون ، وخدعوا الناس ، والله خادعهم ، ولكنهم لا يعقلون .

وانتصب القسيس الصغير واقفاً ، ثم أزاح أكمام ردائه فى عناية ، وشرع يتحدث حديثاً غزيراً ، ظاهر اللطف ، خلاب البسمة ، فقال :

— أرى أنكم جميعاً تشتركون فى الرأى الذى يراه العامة فى مسألة الفريسيين وهو رأى ليس ضخم الخطأ وكفى بل هو تام الخطأ من جميع جوانبه .

وشرع ، وقد شدهت ، يثبت أن الفريسيين كانوا هم حفظة التقاليد اليهودية ، وأنهم هم الصادقون المخلصون الذين أيدهم الشعب دائماً ضد أعدائه ، وسار وراءهم

— اقرؤوا مثلا فلافيوس جوزيف ...

قفز صاحب تولوستوى ، وأشار بذراعه إشارة حصدت رأس فلافيوس ، ومن لف لفه ، وكانت عريضة هدامة ، ثم صرخ :

— إن الشعوب اليوم تمشى وراء أعدائها ضد أصدقائها . ولكن هذه الشعوب لا تسير سيرها الخاص ، فهى مدفوعة دفعاً ، مشدودة شداً ، وماذا يعنينى من

صاحبك فلافيوس... وقطع القسيس وبعض الحاضرين موضوع المناقشة الأساسى تقطيعاً. وانتهى الأمر، وصاحبنا مايزال يصرخ : الفضيلة هى الحب .

أما عيناه فكانتا تقدحان حقداً واحتقاراً .

كنت دائماً لا أكاد أتبين نفسى، فى مثل هذه المناقشات، وكنت أشعر أنى سكران بالكلمات ، غافل عن الأفكار ، وأن الأرض تدور تحت قدمى فى عاصفة لفظية، وكنت أفكر فى نفسى يائساً، معتقداً أن ليس على ظهر الأرض إنسان أكثر منى حمقاً وأقل منى موهبة .

كنت أفكر فى ذلك ، وصاحب تولوستوى يصرخ، بكل ما أوتى من قوة، وهو يمسح العرق المتصبب على جبينه :

— ألغوا الإنجيل إلغاء، أو أنسوه نسياناً، كيلا تكذبوا. واصلبوا المسيح مرة أخرى فذلك أولى بكم وأشرف لكم .

وانتصب أمامى هذا السؤال كما ينتصب الحائط العالى :

— إذا كانت الحياة نضالا لاهوادة فيه، يريد أن يظفر بالسعادة على الأرض، فالرحمة والحب لا يستطيعان إلا أن يعوقا، أو يعرضا للهلاك نجاح هذا النضال .

عرفت أن صاحبنا يدعى كاوبسكى ؛ وعرفت أين يقطن، فزرته فى اليوم الثانى مساء. كان ينزل بيت فتاتين من عائلة نبيلة، ووجدته فى البستان جالساً وراء منضدة معهما، فى ظل زيزفونة كبيرة باسقة . كان يرتدى سروالا أبيض وقميصاً عريضاً ، ورأيته طويلا، جافياً، على مثال الصورة التى تخيلتها نفسى عن التائه الذى يبحث عن الحقيقة .

كان يأكل بملعقة من الفضة ، كرزاً بابن ، فيزدرد اللقمة فى شراهة ويتمطق بشفتيه الغليظتين .

كانت إحدى الفتاتين تقوم بخدمته، وتقف إلى جانب المنضدة، أما الأخرى فتعتمد على جزع الزيزفونة ، تتطلع حالمة إلى السماء الحارة المغبرة . وكانتا كلتاهما تلبسان ثياباً خفيفة ، موردة ، وقد بدتا فيها متشابهتين ، حتى لا تكاد تميز بينهما إلا فى جهد .

حدثنى صاحب تولوستوى، فى رغبة وعطف، عن قوة الحب المبدعة ، وأكد لى أن علينا أن ننمى فى نفوسنا هذه العاطفة، فهى، وحدها، قادرة على أن تصل الإنسان بروح العالم، أى بالحب الذى يبسط ظلاله على كل مافى الحياة أيان كانت .

قال :— الحب، وحده، هو الذى يستطيع أن يصل بين الناس، ويربطهم بأواصر لا تنفصم ، وأنت لن تفهم الحياة إذا لم تحب . أما أولئك الذين يزعمون أن قانون الحياة هو النضال، فهم قوم ليس لهم عيون يبصرون بها ، وهم أموات شبع من نفوسهم الموت . إنك لن تستطيع إطفاء النار بالنار ، وكذلك فلن تنتصر قوى الشر على الشر .

ومضت الفتاتان الى البيت فى أقصى البستان فأتبعها أنظاره، وعيناه مغمضتان إلا قليلا :

— وأنت من أنت ؟

أصغى إلى، ثم قال لى، وهو ينقر المنضدة :

— إن الإنسان إنسان حيث كان، وأنى كان، وليس على الإنسان أن يسعى إلى تبديل وضعه فحسب ، بل إن عليه أيضا أن يسمو بفكره فى حب أخيه . كلما كان الإنسان منحطاً كان أقرب إلى الحياة الصحيحة ، إلى الحكمة القدسية. وشككت قليلا فى معرفته للحكمة القدسية ، ولكنى سكت، وشعرت أنى أزعجه فقد كان يتطلع إلى، من بعيد ، ويتأرجح، ويضع ذراعيه وراء عنقه ، ويمد ساقيه، ويغمض عينيه متراخياً ، ومع ذلك فقد حدثته عن آراء الشرطى فى أخطار الرحمة ، فتمتم ، وما يزال يغمض عينيه :

— نعم لامحل للرحمة فى النضال . ذلك أمر واضح .

وقال وهو يهوم نعساً :

— الصبر الجميل فى الحب . . . قانون الحياة .

وحرك ذراعيه، وهو يرتجف، كأنه يحاول أن يمد بسبب إلى السماء، ثم حملق فى خائفاً وقال:

— ماذا ؟ أنا تعب ، فعـــذراً ...

ثم أغمض عينيه، وصرف بأسنانه كأنه يتألم ، ومط شفته السفلى، ورفع شفته العليا ، ونهض، ونهضت شعرات شاربيه الزرق . وخرجت غاضباً ، أشك شكاً غامضاً فى إخلاص هذا الرجل.

صادفت كلوبسكى بعد أيام ، وأنا أحمل الخبز إلى معيد فى الجامعة، عربيد عزب، ورأيت وجهه سيئاً حاله، من ليلة قضاها لم ينم فيها، ولا شك، ورأيت عينيه منتفختين وكأنه ثمل ، أما المعيد فكاد يبكى وقد لبس ثيابه السفلى ، وفى يده قيثارة ، وهو قائم فى فوضى من الأثاث، والمقاعد، والزجاجات الفارغة ، والملابس الموزعة ، كان يتأرجح ويصيح به :

— افتح لنا باب الرحمة والإحسان.

وصرخ كلوبسكى غاضباً حازماً .

— لا رحمة، ولا إحسان . نحن أمام أمرين : إما أن ينضجنا الحب، وإما أن يسحقنا النضال فى سبيله ، ونحن على كل حال هالكون ...

وقبض على منكبى ، وأدخلنى الغرفة وقال لصاحبه :

— سل هذا ينبئك عما يريد . سله هل هو فى حاجة إلى حب أخيه وقريبه ؟

ورمقنى المعيد دامع العينين ، ضاحكاً ، ثم قال:

— هذا هوا الخباز ، وهو يريد ديونه .

وترنح، ثم مد يده إلى جيبه، فأخرج مفتاحاً ، وقدمه إلى قائلا :

— خذ كل ماوجدته .

ولكن صاحب تولوستوى خطفه منه ، وأشار إلى بيده :

— اذهب ، وسيدفع لك دينك عما قريب .

ثم أخذ الخبز من السلة ، وقذف به على المقعد فى زاوية من زوايا الغرفة .

لم يعرفنى ، وكنت بذلك سعيداً حقاً ، وعدت، وفى ذاكرتى ماذكره من هلاكنا فى الحب ، وفى قلبى شعور بالقرف منه .

وعرفت بعد حين أنه أعلن الحب مرتين، لكلتا الفتاتين، وتحدثتا إلى بعضهما بهذا الحب فرحتين ، مغتبطتين ، فانقلب سرورهما غضبا ونقمة وأمرتا الحمال

فدعا رسول الحب، إلى مغادرة منزلهما رأساً ، واختفى محبهما معاً من المدينة .

لقد عرضت لى، منذ، نعومة أظفارى، مسألة الحب والإحسان، ومقدار أثرهما فى حياة الإنسان، وهى مسألة معقدة مخيفة ، عاشت أوائل حياتها، غامضة، مشوهة ، حادة، رغم غموضها وتشويهها ، ثم أخذت لها صورة واضحة فى سؤال واضح هو :

ـ ماهو دور الحب ؟

كان كل ماقرأت مفعماً، بالآراء المسيحية والإنسانية، محشواً بصرخات العطف على الناس، وسمعت كل من أعرف من أخيار الناس، وذوى فصاحتهم وجرأتهم، يتحدثون عنه مثل هذا الحديث ، ذلك ما كانت أسمعه وأقرأه .

أما ما كنت أراه وألاحظه ملاحظة مباشرة، فلم يكن له مايصله بالعطف على الإنسان. كانت الحياة تجرى أمامى سلسلة لا نهاية لها من العنف والعدوان، ونضالا مستمراً وغير شريف، فى سبيل امتلاك ما لا قيمة له من الأشياء . وكنت أرى أنى لا حاجة بى إلى غير الكتب ، أما سائر ما فى الدنيا، فتافه لا أهمية له عندى.

كان يكفينى أن أخرج إلى الشارع وأن أبقى ساعة فى الباب واقفاً على عتبته، حتى أفهم أن كل من أرى من حوذيين، وحمالين، وعمال، وموظفين، وبائعين لايحيون الحياة التى أحياها، ولا يحيون حياة من أحب ، وأنهم لا يطلبون ما نطلبه نحن ، ولا يسيرون فى الطريق التى نسير فيها .

أما أولئك الذين كنت أحترمهم، وأؤمن بهم ، فكانوا على نقيض من سلف، كانو يعيشون معتزلين ، غرباء غير نافعين، فى محيط تسود فيه أكثرية ساحقة من الناس ، يعملون كالدود، عملا صناعياً، تافهاً، يبنى بغير انقطاع، قرية نمل للحياة ، هذه الحياة التى بدت لى كلها، حياة بهيمية مضجرة ، ولطالما لاحظت أن هؤلاء الناس ليسوا محسنين، محبين إلا فى الكلام، وأنهم يتبعون، فى الواقع ومن غير أن يشعروا، مجرى الحياة العام .

كان كل هذا قاسياً على. ولم أكن أعلم أين أنا منه ؟

قال لى مرة لافروف البيطرى ، وهو رجل أصفر الجلد ، نفخه ما يعانى من ضيق فى التنفس :

— يجب علينا أن ندفع القسوة إلى أقصاها، حتى يملها كل إنسان، وحتى توحى إلى الناس جميعاً، وإلى كل منهم على حدة، مايوحيه إلى هذا الخريف اللعين.

ولقد كان هذا الخريف المبكر شديد المطر، قارس البرد، غنياً بالأمراض والانتحارات. وقد مل لافروف انتظاره الطويل ليخنقه ضيق تنفسه، فتجرع جرعة طيبة من سيانور البوتاسيوم، وانتحر.

ولقد رثاه الخياط ميدنيكوف، صاحب منزل لافروف، حين سمع بموته، فقال:

— كان يربى البهائم، ففطس كما تفطس البهائم.

تلك هى الكلمات التى رافقت جثة لافروف إلى قبره. ولقد كان هذا الخياط قصيراً، نحيلا، متخذلقاً، يحفظ أغانى العذراء عن ظهر قلب.

كان ينهال على ولديه بالسوط، وهما فتاة فى السابعة، وطالب فى الحادية عشرة، وكان له سوط ذو ثلاث شعب؛ أما امرأته فكان يضربها بعصا خيزران، ثم يجأر بالشكوى:

— لقد حكم على الحاكم لأنى تعلمت، كما يزعم، هذه الطريقة الصغيرة، من أهل الصين؛ وأنا لم أر فى حياتى صينياً قط إلا فى الصور والاعلانات...

كان يقول عنه عامل من عماله، كالح الوجه، عبل الساق، يلقب «زوج دونكا»

— إن أخشى من أخشاه اللطفاء المتقون؛ أما الرجل الشديد، فأعرف من هو، وهو أيضاً يدع لى فسحة من الوقت لأتقيه، وأما الرجل اللطيف فينقض عليك وأنت لاتراه، كما تتسلل الأفعى من بين الأعشاب، فتعضك، فجأة، فى أكثر مواطن جسمك تكشفاً وانطلاقاً، إنى لأخشى اللطفاء.

لقد كان فى كلمات «زوج دونكا» شىء من الحق، فهو نفسه لطيف، خبيث، وخيل إلى أحياناً أن هؤلاء «اللطفاء»، وهم يعلكون كالأشنة الأكالة قلب الحياة الصخرى، يجعلونها أكثر رقة وخصباً، ولكنى كنت إذا رأيت العدد الوفير من هؤلاء «اللطفاء» وأبصرت ألفتهم اللبقة لكل ماهو حقير تافه، وعرفت مافى نفوسهم من تقلب، ومافى أرواحهم من مرونة، وسمعتهم يطنون طنين الذباب؛ كنت إذا

رأيت ذلك وسمعت هذا ، شعرت بما يشعر به الحصان الراسف فى قيوده، إذا أحاطت به سحابة من ذباب .

كنت أفكر فى هذا، وأنا عائد من بيت الشرطى .

الريح تعصف وتزأر ، وأنوار المشاعل تترنح، وخيل إلى أن هذا الاضطراب هو اضطراب السماء ؛ وكانت تزرع فى الارض مطراً تشريينياً ناعماً كالهباب . ورأيت فى الشارع فتاة مبللة ، تجر رجلا ثملا وقد أمسكت به من تحت إبطه . أما هو فكان يدمدم، وكان يتنحب ، والمرأة تقول له فى صوت أخرسه التعب :

— نصيب ، نصيب !

وقلت فى نفسى :

وأنا ما أزال أيضاً أجر نفسى جراً إلى الزوايا القذرة ، وأرى أموراً دنسة وحزينة وأبصر أوشاباً من الناس من كل جنس . لقد سئمت كل هذا يا نفس .

يمكن أن لا تكون هذه الفكرة قد ارتدت هذه الألفاظ ، ولكنها هى التى عرضت لى ؛ لقد شعرت لأول مرة بالسآمة تقضم نفسى ، وبالتأكل يهرىء قلبى. وشعرت منذ هذه اللحظة، أن فكرى يمرض شيئاً فشيئاً ، وشرعت أنظر إلى نفسى فى برود ، ومن خارج ، إذا صح هذا التعبير وبعينين أجنبيتين معاديتين . ورأيت أن فى كل إنسان تقريباً تكمن التناقضات فى غير نظام، وأن هذه التناقضات ليست تناقضاً بين القول والعمل وكفى ، بل هى تناقضات بين العواطف ، ولقد كان لهوها المغرى مثاراً لأقسى ما عرفت من الألم والعناء . ولقد كان أقسى من ذلك كله، وأشد على، أن ألاحظ فى نفسى أيضاً هذا اللهو والعبث . كان كل شىء يغريني: — النساء، والكتب، والعمال، والطلبة الضاحكون — ولكنى لا أبلغ شيئاً منها فى حينه، ولا أعيش مع هؤلاء ولا مع هؤلاء . كنت أدور كما يدور الخزروف، وأشعر فى الوقت نفسه ، أن يداً مجهولة قوية، تلهبنى بسوط لا أراه .

وبدأت أتعلم العزف على الكمان ، فأهزه فى الليل هزاً عنيفاً ، وأزعج المصباح والفئران ، ولقد أحببت الموسيقى ودرستها فى لهفة، وحرارة . خرجت فى درس من دروسها، وتركت أستاذى، وهو عازف فى المرقص، ففتح باب الصندوق

وعدت، فوجدته يملأ جيوبه مالا . رآنى واقفاً فى عتبة الباب، فمد نحوى عنقه، ووجهه الأمعط، الكالح، ثم قال لى فى صوت خافت :

— تعال . اضرب .

كانت شفتاه تختلجان ، ودموعه تنهمر من عينين أضاعتا لونهما ، كبيرة كبراً غريباً. كنت أريد أن أضربه ، ولكى أتجنب ذلك قعدت على الأرض، ووضعت يدى تحت فخذى ، وأمرته بإرجاع المال إلى الصندوق ، فنفض جيوبه ومضى إلى الباب ، ثم وقف، وقال فى صوت هائل، مخيف، مأفون .

— هات عشر روبلات .

وأعطيته ماأراد ، وتركت الكمان .

قررت فى كانون الأول (ديسمبر) أن أنتحر ، وقد حاولت أن أصف العوامل التى دفعتنى إلى قرارى هذا، فى قصتى « حادث فى حياة ماكار » ولكنى لم أوفق فيما حاولت فقد كانت القصة غير ماهرة ، وكانت مزعجة ، خالية من الحقيقة الداخلية ، وفى رأيى أن من الواجب أن نعد فقدان الحقيقة فقداناً تاماً فيها من أول صفاتها. نعم إن وقائعها صحيحة ، ولكنى أشعر أنى لست أنا من أخرجها إلى النور ، وأن آخر غيرى قصدت إليه فيها . ومهما يكن من أمر هذه القصة، ففيها شىء واحد يرضينى :

لقد أحسست فيها أنى اجتزت نفسى .

الفصل العاشر

اشتريت مسدساً، فيه أربع رصاصات، ثم أطلقت النار فى صدرى راجياً أن أصيب قلبى ، ولكنى لم أظفر إلا بخرق رئة واحدة ، وعدت إلى العمل فى المخبز بعد شهر، خجلا، مرتبكاً شاعراً أنى أحمق حمقاً ليس عليه من مزيد، ولكنى لم ألبث أن تركت المخبز. عدت يوماً فى أواخر آذار (مارس) إلى المخزن فوجدت فيه صديقى الأوكرانى . كان جالساً على كرسى عند النافذة، يدخن سيجارة غليظة، وهو يفكر وينظر فى انتباه إلى غيوم الدخان . قال لى ولم يسلم على :

ـ أأنت غير مشغول ؟

ـ نعم خلال عشرين دقيقة .

ـ اجلس ، ولنتحدث .

كان ، كما كان دائماً ، يتلفع بقازاقية من «جلد الشيطان» ، وذقنه تتربع على صدره العريض، وجبهته العنيدة تتوجها شعرات قاسية، مقصوصة، قصيرة ، وفى رجله حذاء فلاح ، ثقيلة، تفوح منها رائحة الشحم .

قال لى فى هدوء ، وصوت متزن :

ـ أتريد أن تشاركنى فى عملى ؟ إننى أقطن قرية كراسنوفيدوف ، على بعد خمسة وأربعين ميلا من هنا ، وعندى فيها دكان . ستكون مساعداً لى ولن يكلفك ذلك زمناً طويلا، وعندى هناك كتب طيبة ، وسأعينك على دراستك. أقبلت؟

قلت: ـ نعم

قال :ـ كن يوم الجمعة فى الساعة السادسة صباحاً على رصيف كورباتوف. واسأل عن مركب كراسنوفيدوف ، وعن المعلم فاسيلى بانكوف، وسأكون هناك فأراك . إلى اللقاء .

ثم نهض: ومد إلى يداً عريضة، وأخرج بيده الأخرى، من صدره، ساعة من فضة،

ثقيـــلة ، وقال:

ـــ لقد انتهينا فى ست دقائق. آه. إن اسمى ميخائيل انطونوف، وأكنى روماس

ومضى دون أن يلتفت ، فى خطى متزنة ، وكانت رجلاه تحملان حملا مريحاً جسده الثقيل العملاق.

وكنت بعد يومين، أركب السفينة إلى كراسنوفيدوف .

بدأت العقبة ، وتأرجحت على مياه الفولجا المضطربة ثلاجات متقطعة دكن ، تتكسر على الشاطىء ، إذا اجتازها المركب، وتتفرق بلورات حادة ، وكانت ريح الشمال تلعب ، وتقذف بالموج على ظهر المركب ، والشمس تسطع فتغشى العيون وتنعكس على زرقة الثلاجات ، خطوطاً ، بيضاً ، شديدة البياض .

وكان الفلك يسير مثقلا باكياس، وباميل ، وصناديق ، يدير ساريته بانكوف وهو فلاح شاب ، عليه معطف من جلد الخروف، مزرر على صدره . كان حزيناً هادىء الوجه ، بارد النظرة ، يشبه قليلا ما أهل الجبال ، وعلى مقدمة الفلك، وقف مساعد بانكوف، وقد أمسك بيده عرجوناً . كان أشعث الشعر ، صغير الجسم ، يلبس صداراً ممزقاً ، وقد اتخذ زناراً من حبال ، ووضع على رأسه قبعة خورى ممزقة ، يبدو من تحتها وجهه، وقد غطته آثار جراحات زرق ، كان يدفع الثلاجات برفشه الطويل حينا وبشتائمه الهائلة حينا :

ـــ روحى . . إلى أين ؟

كان اسمه كوكوشكين .

جلست فوق صندوق ، فى ظل السارية ، إلى جانب روماس ، وهو يحدثنى فى رفق بين :

ـــ الفلاحون لايحبوننى، والأغنياء منهم أكثرهم مقتاً وكرهاً لى . وعليك أن تتحمل أنت أيضاً هذا العداء .

وقال كوكوشكين ، وقد وضع الرفش عند قدميه ، وأدار وجهه إلينا فى قوة وحرارة :

ـــ والخورى اكثر الناس كرهاً لك يا انطونيتش.

وقال بانتكوف مؤيداً . — نعم : تماماً .

— ومع ذلك فلن يستطيع هذا الكلب العقور أن يبلغك .

وعاد روماس يقول : — ولكن لى بينهم أصدقاء، وسيكون لك أنت أصدقاء فيهم.

كان البرد شديداً ، وشمس آذار (مارس) تسطع ولا تدفىء قط، والأغصان القائمة على الأشجار العارية تتأرجح على الشاطىء، هنا وهناك فى الحفر والمستنقعات يتراكم الثلج أكواماً مخضوضرة وعلى طول النهر تستلقى الثلاجات كأنها قطعان من الخرفان، خيل إلى أنى فى حلم وأن كوكوشكين يقول وهو يحشو غليونه :

— لو كنت امرأة الخورى لفهمنا سبب خصامه لك ، ولكنك لست امرأته، وواجب مهنته يحتم عليه أن يحب جميع المخلوقات ، كما ورد ذلك فى الكتب .

وسأله روماس وهو يرى جراحاته :

— ومن فعل بك هذا ؟

فقال كوكوشكين فى احتقار :

— قوم سفلة ، لامقام لهم ولاشأن ، ثم تابع فى كبرياء :

— نعم إنهم سفلة .ضربنى مرة رجال المدفعية ، نعم إن ضربهم هذا وحده يدعى ضرباً . ولا أستطيع أن أفهم كيف عدت إلى الحياة على أثره .

— ولم ضربوك ؟

— من ؟ أصحابى بالأمس ؟ أم رجال المدفعية ؟

— لا بل أصحابك أمس.

لاأدرى ولا يمكن أن أعرف لماذا أضرب ثم أضرب . إن الناس عندنا كالثيوس يهجمون عليك لأدنى سبب . يجب أن تتضارب .

— أعتقد أن لسانك هو الذى يدفع الناس إلى ضربك فهو خبيث.

— قد يكون هذا صحيحاً .فأنا طلعة بطبيعتى،وعادتى أن أسأل دائماً دون انقطاع. إن معرفة ماهو جديد سعادة عندى .

واصطدم الفلك بثلاجة صدمة عنيفة ، وحدثت على الشاطىء قرقعة صاعقة ،

وأمسك كوكوشكين ،وهو يترنح بعرجونه ، وقال له بانكوف يلومه ....

— انتبه إلى عملك ياستيفان .

فصرخ كوكوشكين وهو يدفع الثلاجة .

— أما أنت فلا تخاطبنى . أترى أنى أستطيع العمل والكلام فى آن واحد ؟

وتنازعا فى غير خبث ، وقال لى روماس :

— الأرض هنا أقل خصباً من أوكرانيا ، ولكن أهلها أطيب قلوباً . وهم حقاً موهوبون .

أصغيت إليه وصدقته . هدوءه وما فى ألفاظه من تناسق، وبساطة ورسوخ ، أرضيانى ، وشعرت أن هذا الرجل يعرف كثيراً من الأمور ، وأنه حقاً يعامل الناس كما يحب هو أن يعاملوه .

ولقد سرنى منه قبل كل شىء أنه لم يسألنى لماذا أردت أن أقتل نفسى . ولو كان غيره لسألنى عن ذلك منذ زمن بعيد ، وهو سؤال طالما نلت منه مايكفينى ، وهو فوق هذا وذاك صعب لاأعرف جوابه ، ولعل الشيطان وحده هو الذى يعرفه ، ولو سألنى عنه روماس لم يظفر منى بغير جواب طويل سخيف .

كنت حقاً لاأحب أن أذكر هذا الحادث . ماأجمل الفولجا . إنه لهو الحرية والنور . والتحم المركب بالشاطىء ، واتسع النهر عن يسارنا فطغى على الشاطىء الرملى وقد غطته المروج ،ومضى موجه طليقاً أو هويهم أن يكون طليقاً ،يداعب شجيرات الشاطىء ويهز أقصابه . وتراكضت سيول الربيع الصافية تتلقاه وهى تدرج صاخبة . والشمس تضحك وأشعتها تدغدغ ريش العنادب الفولاذى الأسود وتنير مناقيرها الصفر ، والعنادب رائحة غادية تجدد بناء أعشاشها .وهناك من خلال الأرض يطل لاستقبال الشمس رأس حشيشة زاهية وهو مايزال يشد قواه ليرنو إليها سامقاً عالياً . وهذا جسمى تأخذه قشعريرة من برد ، وهذه نفسى يملؤها فرح ناعم رقيق وتتولد فيها آمال تتدفع عذبة مع نسائم الربيع .لا بأس ،لا بأس أن أعيش على ظهر الأرض فى الربيع .

كان صوت روماس يبلغنى من خلال تهويمة خفيفة :

— هنا صياد اسمه إيزوت ستألفه ويألفك .

بلغنا كراسنوفيدوف ظهراً ، وهناك على قمة تل عال منحدر الجنبات ، قامت كنيسة ذات قبة زرقاء ، واصطفت على جانبها بيوت جيدة متينة تلمع تحت الشمس أخشاب سقوفها الصفر ، ويسطع قشها الذى يعلوها ، بساطة وجمال ، شدما أعجبت بهذه القرية . وقال لى روماس وأنا أعاون كوكوشكين فى حمل الأكياس :

ـ أذن فأنت قوى ؟ ثم تابع ولم ينظر إلى : ـ ألا تشكو صدرك ؟

ـ أبداً ..

ولقد ألقى سؤاله فى رقة هاجتنى ، وكنت أتمنى ، وقد تخلصت من المدينة ، أن لا يعرف الفلاحون محاولة انتحارى :

وكان كوكوشكين لا ينقطع عن الثرثرة :

ـ أما قوته فهو قادر على أن يوزع منها ماشاء على الناس ، ومن أين أنت أيها العملاق من نيجنى نوفغورود ؟ إنهم يسمونكم « شراب ماء » .

وهبط من التل ، من منحدر طينى يابع فيه ألف ينبوع من الفضة ، فلاح طويل القامة ، عارى القدمين واسع الخطى ، يلبس قميصاً وسروالا من خام غليظ ، له لحية نبى مجعدة ، وشعر كثيف أشقر ، ونادى فى صوت رنان حبيب :

ـ مرحباً بالقادمين ..

ونظر حواليه فأخذ رفشاً ثم آخر وسند طرفيها على الشاطىء ثم قفز خفيفاً إلى الفلك وقال :

ـ ضع قدميك على طرفى الرفشين حتى لا ينزلقا ، وتلق البراميل . تعال ساعدنى ياولدى .

كان جميلا كأنه صورة ، وكان قوياً تضىء وجهه الورد وجانبى أنفه الأقنى ، عينان زرقاوان . قال له روماس :

ـ سيصيبك الزكام يا ايزوت !

ـ أنا ؟ لا . لا تخف .

ودحرجت على الأرض برميل بترول ، وحدجنى إيزوت بنظرة كأنه يوزنى ثم سأل :

— أأنت الشريك الجديد؟

وقال له كوكوشكين :— هلا تصارعتما؟

— أراك قد كسرت بوزك مرة أخرى ياستيفان...

— وماذا تريد أن أفعل بهم ؟

— بمن ؟

— بهؤلاء الذين يتضاربون!

وقال ايزوت وهو يتنهد :

— آه : أى رجل أنت ؟

وأضاف يخاطب روماس :

— ستأتى العجلات حالا . لقد رأيتكم قادمين من بعيد ، وكنتم مسرعين . اذهب باانطونيتش وسأتولى عنك عملك .

لاحظت أنه يعامل روماس معاملة صديق معوان فيها أثارة من حماية ، رغم أن الأوكرانى أكبر منه بعشر سنوات.

وكنت بعد نصف ساعة فى غرفة نظيفة موموقة من منزل جديد لا تزال تنبعث منه رائحة السياج، وامرأة نصف،قوية العينين تضع مائدة الطعام، والأوكرانى يخرج كتباً من حقيبة ثم يضعها فوق رف قريب من الموقد . قال لى :

— إن غرفتك فى العنبر

رأيت من نافذة العنبر قسماً من بيوت القرية ، ورأيت فى آخر النهر من بين القصب بساتين وحقولا سودا تنتهى إلى واد رائع يمتد نحو الغابة الزرقاء عند الأفق.

هنا فلاح أزرق الثياب ، يمتطى صهوة حصانه، يمسك بيده معولا ويسند على كفه جبينه ، ويسير إلى جانب الحمامات وهو يتطلع إلى الفولجا . وهناك عربة تئن وبقرة تخور ، وسواق تصل . وهنالك امرأة ترتدى السواد ،تخرج من باب بيت كبير ، ثم تعود فتقف عند عتبته وهى تصرخ فى صوت عال :

— يا ليتكم تفطسون جميعاً .

وسمع صوت العجوز صبيان يسدان بالحجارة والطين مجرى ساقية وكانا ينهمكان

فى عملهما فهرولا يسابقان الريح . أما هى فالتقطت من الأرض قطعة خشب، وبصقت فوقها ثم ألقتها فى الساقية ، وخربت برجلها المنتعلة بحذاء فلاح بنايات الطفلين ثم هبطت إلى النهر .

ـــ أية حياة سأحياها هنا ؟

ودعيت إلى الغداء ،وكان إيزوت جالساً إلى المائدة مادأ ساقيه الطويلتين وهو يتحدث فلما رآنى سكت ، فقال له روماس مستغرباً .

ـــ مالك ؟ تكلم .

ـــ هذا كل ماعندى.لقد أخبرتك بقراراتهم ـــ سنبلغ منهم مانشاء وحدنا... أما أنت فاخرج بمسدس أو بهراوة ونحن لا نستطيع أن نتحدث بكل شىء إلى بارينوف ، فهو مثل كوكوشكين ، لسان امرأة . أتحب الصيد ياولدى ؟

ـــ كلا .

وشرع روماس يتحدث عن ضرورة تنظيم الفلاحين ، والملاك الصغار للبساتين وانقاذهم من أيدى السماسرة التجار.فأصغى إليه إيزوت فى انتباه ثم قال:

ـــ ولكن أكابر القرية سيجعلون حياتك مستحيلة فيها .

ـــ سنرى !

ـــ سيكون ما قلت لك .

ونظرت إلى إيزوت مفكراً إن من أمثال هذا الفلاح قد استوحى كورونين وزلاتوفراتسكى قصصهما،وسألت نفسى أترين يا نفس أنى وفقت إلى لقاء أمر جدى ؟ إنى أستطيع أن أشترك بعد الآن مع أناس يعرفون حقاً كيف يعملون.

وتغدينا ثم قال إيزوت :

ـــ لا تعجل يا ميخائيل أنطونوف،فرب عجلة تهب ريثا.وأولى لنا أن نترفق.

ومضى ، فقال روماس مفكرا :

ـــ رجل شريف ذكى،ولكنه ويا للأسف قليل الثقافة،لايكاديعرف القراءة، وهو يتعلمها الآن فى صبر دائب . ساعده إذا استطعت .

وأخبرنى روماس عن أسعار البضائع فى مخزنه ، ثم قال لى .

— أنا أبيع بأسعار أقل من أسعار البائعين الآخرين فى القرية . وذلك لا يرضيهما فهما يهددانني بالضرب ، وأنا أعيش هنا لا لأن التجارة شيء لذيذ ذو أرباح ، بل لأسباب أخرى . إنه مشروع مثل مشروع المخبز ...

وقلت له إنى فهمت ذلك من قبل :

— نعم... يجب أن نوقظ الناس قليلا . أليس كذلك؟

وكانت الدكان مغلقة، وسرنا وفى يدنا قنديل، ورأينا فى الشارع إنسانا يخوض الوحل ، ويصعد درجات السلم فى صعوبة .

— أسمعت ؟ هناك من يمشى . أنه سيريلكا ، وهو متشرد ، سكير ، فاسد، يجب أن يسيء إلى الناس كما تحب الفتاة الجميلة غزل الشباب . لا تتحدث إليه إلا وأنت فى حذر ، وكن على العموم حذراً .

وصلنا إلى غرفته ، فأشعل غليونه ، وأسند ظهره إلى الموقد ، وأغمض عينيه، وأرسل فى لحيته خيوطاً من الدخان ، ثم قال فى هدوء وفى كلمات سهلة واضحة إنه منذ زمن طويل لاحظ أنى أضيع بلا فائدة أيام شبابى :

— أنت حقاً ذو مواهب ، عنيد، تملؤك الارادة الصالحة : يجب أن تتعلم على أن لاتحجب الكتب عنك الإنسان ؛ لقد قال حكيم وكان على صواب: « الانسان مصدر كل علم» نعم، إن الناس يعلمون الناس فى ألم وفى قسوة، ولكن هذا العلم وحده هو الذى يبقى ثابتاً راسخاً .

وذكر لى حقائق متداولة ، وصرح أن الواجب ، فى بلاد زراعية ، يتقاضانا أن نوقظ وعى القرية قبل كل شيء ؛ وكان كلامه معروفاً ومع ذلك فقد لاحظت فيه معنى أكثر عمقاً وطرافة :

— يتحدث الطلاب عندكم كثيراً عن حب الشعب ؛ ولكم قلت لهم: الشعب لايمكن أن يحب ؛ إن حب الشعب لفظة لاأكثر من ذلك ولا أقل

وضحك فى ذقنه وهو ينظر إلى نظرة عميقة ، وشرع يغدو ويروح فى الغرفة وهو يقول فى قوة :

— الحب موافقة ، وتراجع ، وغض ، وتجاوز ، وهذا ماتريده المرأة . ولكن

هل تستطيع أن تلاحظ جهل الشعب فتوافق على خطيئات تفكيره ، وتتجاوز عن كل انحطاطه ، وتعفو عن قسوته ؟

ـ كلا !

ـ أرأيت ؟ هناك ، عندكم ، يقرأ الناس ويترنمون بنيكراسوف دائماً ، وهم لن يبلغوا بنيكراسوف شيئا ، يجب أن نفهم الفلاح مايلى : ـ إنك لست فى صميمك انساناً شريراً جداً ، ولكن حياتك شر وأنت لاتعرف سبيلا إلى جعلها اكثر خيراً أو أكثر يسراً : إن البهيمة لتهتم بنفسها أكثر مما تهمك أنت نفسك وتدافع عن نفسها أكثر مما تدافع أنت عن نفسك .. منك أيها الفلاح انبثق كل شىء : النبلاء ، والكهنة ، والعلماء والقياصره كانوا كلهم فلاحين : أرأيت ؟ أفهمت ؟ إذن فتعلم كيف تحيا كيلا تهلك وتبيد :

ومضى إلى المطبخ وأمر الخادم بأشعال السماور ، وعرض على كتبه وكانت أكثرها علمية : بويكل ، لوك ، لوبوك ، تايلور ، ميل ، اسبنسر ، داروين ، ورأيت من الكتـــاب الروس بيساريف ، دوبرولوبوف ، تشيرنيشيفسكى ، بوشكين نكراسوف .

وداعب روماس بيده العريضة هذه الكتب فى حنان ، كأنه يداعب قططاً صغيرة ، وتمتم فى حب :

ـ كتب طيبة ، هذا الكتاب نادر تماماً ، فقد أحرقته المراقبة ، إذا أردت أن تعرف ماهى الدولة فاقرأه . ومد الى كتاب الدولة لهوبز :

ـ وهذا أيضاً يعالج قضية الدولة ولكنه أكثر سهولة ، وتسلية ، ولم يكن هذا الكتاب المسلى غير « الأمير » لصاحبه ماكيا فيللى .

وحدثنى عن موجز حياته ونحن نشرب الشاى . كان ابن حداد من تشيرنيكوف ، وكان يشحم القاطرات فى محطة كييف عند ماتعرف إلى رجال ثوريين ، وشكل بين العمال لجنة للتعليم الشخصى ، فألقى عليه القبض وقضى سنتين تقريباً فى السجن ثم نفى عشر سنين إلى مقاطعة ياقوت .

ـ كنت فى بادىء أمرى أعيش مع الياقوتيين فى قراهم ، وأعتقد أن لن

أعود من هناك . كان الشتاء الشيطان هناك قاسياً لاحد لقسوته ، فالروح تتجمد فى الجسد والدماغ يتجمدفى الرأس و«هو» هناك غير نافع إن تجمد أو لم يتجمد. رأيت فيها روساً مشردين غير كثيرين ، ولكنهم موجودون على كل حال ، ولكى لايداخلهم الملل كان يضاف إليهم فى كل يوم عدد جديد. كانوا رجالا طيبين فيهم طالب هو فلاديمير كورولانكو ، وقد عاد هو أيضا من منفاه . وكنت أنا وهو على أتم مايكون التفاهم ثم تفرقنا: كنا متشابهين كثيرا ولكن التشابه لاينفع شيئا فى الصداقة . كان جدياً جلداً ، موهوباً فى كل عمل . كان يصور حتى التماثيل ، ولقد ساءنى ذلك فيه ، ويقال إنه الآن كاتب ناجح ينشر فى المجلات.

وانتصف الليل وظل روماس يبسط نفسه ويتحدث عنها ، راغباً ولاشك فى أن يساوى بينى وبينه . ولم يحدث مرة أن كنت طيب النفس مع أحد مثلى معه : لقد شعرت أنى سقطت سقوطاً هائلا فى احترامى لذاتى ، بعد محاولتى الفاشلة فى الانتحار ، وشعرت أنى ناقص ، مذنب ، أخجل من الحياة . ولقد فهم ذلك روماس ، ففتح أمامى ، فى إنسانية وبساطة ، باب حياته ، وأخذ بيدى يوقفنى على قدمى ، وشعرت أنى فى أرض راسخة الدعائم ثابتة الأركان وأن يومى ذلك كان يوماً خالداً لا أنساه ، ولا يمكن أن أنساه .

فتحنا أبواب الدكان يوم الأحد بعد الصلاة ، وانثال الفلاحون زرافات ووحداناً يجتمعون حول الدرج وكان أولهم ماتفى بارينوف ، وهو رجل وسخ وغليظ ، له ذراعا قرد طويلتان وعينا امرأة جميلتان نظرتهما حاقدة شاردة . قال بعد أن ألقى التحية :

— هل من جديد فى المدينة ؟

ولم ينتظر الجواب بل مضى يقول لكوكوشكين :

— ستيفان ! لقد أكلت قططك ديكاً آخر !

ثم مضى مرة ثالثة فروى علينا أن الحاكم غادر قازان لمقابلة القيصر فى بطرسبرج ليطلب إبعاد كل التتر إلى القوقاز أو تركستان . ثم أثنى على الحاكم وقال إنه رجل ذكى ، يعرف عمله ... وقال روماس فى هدوء :

ـ إنك لتلفق هذا كله يا صاح

ـ أنا ؟ ومتى ؟

ـ لا أدرى !

ـ ولماذا أنت قليل الثقة بالناس ، يا أنطونيتش ؟

قال ذلك بارينوف فى لهجة لائم، وهو يحرك رأسه تحريك مشفق رحيم ثم قال:

ـ أما أنا فأشفق على التتر . إن العيش فى القوقاز عسير على من لم يألفه .

واقترب فى أدب ، رجل نحيل يلبس مانعاً ممزقاً ، يبدو جلياً أنه ليس له ، ووجهه الأسمر قد غيرت معالمه تقطيبة تمد شفتيه القاتمتين فى ابتسامة مؤلمة. وعلى عينه اليسرى التى تطرف بلا انقطاع يهتز حاجب أبيض يقطعه أثر جرح قديم .

قال له بارينوف ساخراً :

ـ سلاماً يا ميجون ! ماذا سرقت الليلة؟

ـ دراهمك .

قال ذلك ميجون فى صوت جهورى وهو يرفع قبعته أمام روماش .

وخرج من الباحة صاحب البيت وهو جارنا، بانكوف ، وكان يلبس سروالا، ويضع كوفية حمراء فى عنقه ، وعلى صدره سلسلة فضة طويلة كأنها غل، فألقى على ميجون نظرة غاضبة وقال :

ـ إذا رجعت إلى بستانى أيها الشيطان العتيق كسرت ساقيك بالمجرفة .

ـ وقال ميجون فى هدوء :

ـ هذا هو الحديث المعاد المكرور. ثم تنهد وأضاف :

ـ كيف يستطيع الانسان أن يعيش ثم لا يضرب أو لا يضرب .

وأغلظ له بانكوف فقال ميجون :

ـ لست أبداً عجوزاً وأنا لم اتجاوز السادسة والاربعين .

ـ ولكنك بلغت الثالثة والخمسين غداة عيد الفصح الماضى. لقد قلت ذلك لى أنت ، نعم ثلاث وخمسون فلماذا تكذب ؟

ـ أكذب لكى تكون صادقاً مرة واحدة فى حياتك ، على الأقل !

وجاء سوسلوف ، وهو شيخ قوى ذو لحية ، وجاء معه إيزوت ، فبلغ عدد المجتمعين عشر رجال .

كان الأوكرانى جالساً على الدرج عند باب الدكان ، يدخن غليونه ويصغى صامتاً إلى أحاديث الفلاحين الذين جلسوا على الدرجات أو على المقاعد من كل جانب

كان النهار بارداً حولا ، وعلى السماء الزرقاء التى جمدها الشتاء ، تمضى الغيوم مسرعة ، وهنا وهناك بقع من النور ومن الظل ، تغتسل فى الغدران وفى البرك فتغشى الأنظار بلمعانها القوى حيناً ، وتداعبها بعذوبة مخملية حيناً .

ومشت الصبايا وقد أخذن زينة الأحد ، يزين الشوارع التى تؤدى إلى الفولجا . كن يقفزن البرك وقد رفعن أثوابهن وأظهرن أحذيتهن الثقيلة . والصبيان يترا كضون حاملين عصى الصيد الطويلة فوق أكتافهم ، وبعض ذوى الوقار من الفلاحين يمرون فيلقون على الجمع عند الدكان نظرة مائلة ثم يرفعون فى صمت قبعاتهم .

وكان ميجون وكوكوشكين يحاولان فى هدوء أن يحلا موضوعاً أشكل عليهما وهو : من الذى يستطيع أن يصرع الآخر ؟ التاجر أم الآغا ؟ — أما كوكوشكين فيزعم أنه التاجر ، ويصر ميجون على أنه الآغا ، وقد علا صوته الرنان على كلمات كوكوشكين المبعثرة :

— لقد جر أبو الآغا فنيخوروف نابليون بونابرت من لحيته ، وطالما أمسك الآغا باثنين من طوق ردائهما ، ثم حرك ذراعيه ، فضرب جبهة هذا بجبهة ذاك ، ها هما على الأرض هامدان لا يتحركان .

— نعم ... هذا ، ... هذا صحيح ، قبل كوكوشكين ، ولكنه لم يلبث أن قال — ومع ذلك فالتاجر يأكل أكثر من الآغا ...

شكا المحترم سوسلوف وهو جالس على أعلى درجة من السلم فقال :

— إن الفلاح لا تصل بينه وبين الأرض صله يا ميخائيل أنطوفيش عندما كان قناً لم يكن له حق فى الحياة إذا لم يعمل ، فكان لكل إنسان عمله . فأجابه إيزوت :

— يجب أن تبعث بتقرير لكى يعيدوا عهد العبودية إلينا !

ونظر إليه روماس صامتاً ثم أفرغ غليونه ، فضربه على حافة الدرج .

سألت نفسى متى يتكلم . وكنت،وأنا أصغى فى انتباه إلى أحاديث الفلاحين الشاردة،أحاول أن أتخيل ماسوف يتحدث به إليهم . وخيل إلى أنه أضاع سلسلة من الفرص أتاحت له الاشتراك فى الحديث . ولكنه كان صامتاً فى غير اكتراث ، جالساً فى مكانه لايتحرك كأنه صنم ينظر الى الريح تنسج الماء فى البرك وتلم الغيوم فى السماء فى سحابة كثيفة دكناء .

وتثاءبت باخرة على النهر وتصاعدت أغانى الصبايا إلينا ، وعزفت الموسيقى، وهبط الشارع سكير يعربد ويترنح ويحرك ذراعيه وساقيه حركة آلية.وسكتت أحاديث الفلاحين ، وتمشت فيها الكآبة ، ثم تمطت فأصابتنى بها معها . السماء الباردة تنذر بالمطر وهاأنا أتذكر مافى المدينة من ضوضاء لاتنقطع ومافى ضوضائها من تنوع ، ومافى الشوارع من حركة ،ومافى تعليقات الناس من حيوية ، ومافى كلماتهم من غزارة ، تثير الفكر وتدفع إلى البحث .

وجاء المساء ، وكنا نشرب الشاى ، فسألت روماس لم لم يتحدث إلى الفلاحين.

ـ وعم أتحدث ؟

ثم أصغى إلى وقال :

ـ آه ، لو تحدثت إليهم هكذا ، وفى الشارع أيضاً ، لعدت إلى الياقوت لامحالة .

وحشا غليونه وأشعله ، وتجلبب بسحابة من الدخان ، وحدثنى فى هدوء وبكلمات لاتزال راسخة فى ذكراتى ، عن حذر الفلاح وعدم ثقته ، إنه يخاف نفسه ويخاف جاره ويخاف خاصة من الغريب . إنه لم توهب له حريته إلامنذ ثلاثين عاماً ، وكل فلاح بلغ من العمر أربعين سنة ولد عبداً ويذكر أنه ولد عبداً : ومن العسير أن يدرك ماهى الحرية . يقول له التفكير البسيط : إن الحرية هى الحياة كما تهوى . ولكن هناك فى كل مكان سلطات تمنعك هذه الحياة .

القيصر هو الذى أنقذ الفلاحين من الأشراف ، إذن فالقيصر هو الان وحده سيد الفلاحين . ولكن ماهى الحرية مرة أخرى ؟ سيأتى يوم يبين فيه القيصر ماهى هذه الحرية ..... إن الفلاح يؤمن كثيراً بالقيصر ، فهو وحده صاحب الأرض

ومالك ثروتها جميعاً . لقد سلب النبلاء الفلاحين ، وهو قادر على أن يسلب التجار مراكبهم ومخازنهم .

الفلاح مع القيصر ، وهو يقول لنفسه إن الأسياد إذا كثروا كانوا شراً وإن من الخير له أن يكون له سيد واحد ، وهو ينتظر ان يفسر له القيصر فى يوم من الأيام معنى هذه الحرية ، وعند ذلك فليذهب كل إنسان بما يستطيع أن يذهب به. كل إنسان يرجو هذا اليوم ، وكل إنسان يخشاه ، وكل إنسان يعيش فى نفسه آخذاً حذره ؛ المهم عنده أن لا يضيع يوم القسمة العالمية الحاسم. الفلاح يحذر نفسه ويريد كثيراً من الأشياء والكثير موجود معروض فماذا يصنع ؟ يشحذ الناس كلهم أنيابهم ويرقب الناس كلهم هذه النهاية . ولكن هنالك حيثما ساروا عدداً لا يحصى من السلطات تناصب الفلاحين وتناصب القيصر العداء ، وهم لا يستطيعون أن يتخلوا عنها وإلا فإنهم يقتلون ويقتتلون .

كانت الريح الغاضبة تسقى الزجاج مطراً ربيعياً سخياً وتمطت فى الشارع سحابة دكناء واصبح كذلك كل مافى قلبى أسود قلقاً . وكان صوت روماس يقول هادئاً خافتاً مفكراً .

— افهم الفلاح أن عليه أن يزيل سلطة القيصر شيئاً فشيئاً وقل له إن الشعب له الحق فى أن ينتخب من صفوفه كل السلطات . المفوض والحاكم والقيصر .

— ولكن هذا يتطلب مائة عام !

وسألنى روماس جاداً :

— أتظن أنك بالغه قبل عيد الحلول ؟

خرج مساء وسمعت حوالى الساعة الحادية عشر صوت طلق نارى فى الشارع ، وهرعت فى الظلام تحت المطر فرأيت شبح ميخائيل أنطوفيتش الكبير الأسود يسير نحو الباب وئيداً غير مستعجل ، وهو يتجنب فى عناية سيول المياه ويقول :

— ماذا ؟ أنا أطلقت النار .

— على من ؟

— أناس هاجمونى يحملون معاولهم ؛ فقلت لهم دعونى وإلا أطلقت النار

فلم يسمعوا قولى ، فأطلقت النار فى السماء ، ولا أظن أنها أضرت بها ...

ووقف فى الدهليز يخلع ثيابه ، ويهز لحيته المبللة وينفخ كأنه حصان :

ـــ لقد تمزق حذائى ، ووجب أن أستبدل به غيره . هل نظفت مسدساً أبداً؟

ـــ إذا شئت ، وإلا أكله الصدأ ، امسحه بالبترول ....

لقد غاظنى هدوؤه الذى لا يدرك غوره ، ونظرته الحلوة الصابرة التى تلمع فى عينيه الشهلاوين وقال لى وهو يمشط لحيته أمام المرآة :

ـــ كن حذرا إذا اجتزت المدينة ، ولا سيما فى أماسى الأعياد، فسيحاولون ضربك،ومع ذلك فلاتحمل هراوة،إنك إن تحملها تشرهم فيظنوا أنك خائف:وعليك أن لاتخاف . أما هم فكلهم جبناء .

الفصل الحادى عشر

عشت منذ اليوم حياة شائقة حقاً ، يحمل إلى كل يوم فيها مفهوماً جديداً ومهماً ، وأكببت فى شره على الكتب التى تبحث فى العلوم الطبيعية . وروماس يرشدنى :

— يجب أن تدرس هذا العلم الطبيعى يامكسيمتش قبل كل علم وأكثر من كل علم ، فقد وضع العلماء فيه أحسن ما فى العقل البشرى .

وكنت أنا ألقى على إيزوت درساً فى القراءة ثلاث مرات فى الأسبوع . كان بادىء ذى بدء غير مطمئن إلى ، ساخراً بى سخرية خفيفة ، ولكنه بعد بضعة دروس قال لى بادى الإخلاص والسرور :

— ما أحسن شرحك ! يجب أن تكون معلماً يا ولدى .

ثم عرض على فجأة هذا العرض :

— إنك لتبدو قوياً ، فهلا لعبنا بالعصا !

وأخذنا عصوين من المطبخ ، وجلسنا على الأرض وقد أسند كل منا قدمه إلى قدمى الآخر ، وحاول كل منا زمناً طويلا أن يقيم صاحبه . وروماس يحرضنا وهو يبتسم :

— عليك به !

وأقامنى أيزوت ، وكأنما فرج هذا عنه كربته ، وخيل إلى أنه أصبح بعد ذلك أقرب إلى وأدنى منى . وقال لى يعزينى :

— لا بأس ... إنك لقوى . وكم ساءنى أنك لاتحب الصيد . تعال معى إلى الفولجا تر الجنة : الفولجا والليل .

كان يتعلم فى إخلاص وفى نجاح غير قليل ، وطالما أخذه عجب لذيذ ، فنهض فجأة فى خلال الدرس ، وتناول كتاباً من الرف ، وتهجى فى جهد سطرين أو ثلاثة أسطر ، وهو يقطب حاجبيه ، وينظر إلى وقد علته حمرة الخجل ،

ويردد وهو مصعوق :

ــ ولكن ها أنا ذا أقرأ .

ثم يغمض عينيه ويردد :

تنوح على السهـــل الحزين حمامة ٭ كما ناحت الثكلى رأت خضرة القبر

سألنى مرات خجلا خافتاً صوته :

ــ فسر لى ، يا صاحبى ، كيف يمكن أن يكون هذا ؟ إشارات وخطوط صغيرة ، ينظر إليها الإنسان فيجد فيها ألفاظاً وكلمات يعرفها ، هى كلمات حية ، كلمات أنا صاحبها . قل لى وكيف أعرفها ؟ ولم يخبرنى بها أحد . لو كانت صوراً لفهمتها ، ولكنى أجد الأفكار ذاتها مطبوعة ها هنا . ما معنى ذلك ؟

كيف وبماذا أجيب ؟ إن « لا أعرف » تغيظ هذا الرجل كلما سمعها منى .

فيقول وهو يتنهد وينظر إلى صفحات الكتاب فى النور :

ــ ذلك هو السحر المبين !

كانت حيويته وانبثاقاته لذيذة مؤثرة ، فيها صفاء طفولة، ولقد ذكرنى بالفلاح ذى القلب الطيب ، الذى يتحدث عنه الناس فى الكتب. وكان كأكثر الصيادين شاعراً يحب الفولجا ، ويهوى الليالى الصامتة ، ويؤثر الوحدة وحياة التأمل . كان ينظر إلى النجوم ثم يسألنى :

ــ يقول روماس إن عليها قوماً مثلنا ، فماذا ترى ؟ هل هذا صحيح ؟ ياليتنا نستطيع أن نشير إليهم نسألهم كيف يعيشون ، لعل حياتهم خير من حياتنا ...

كان يتيماً لا يملك شبراً من الأرض ولا علاقة له بإنسان فيما يباشر من عمل هادىء . ولقد بدا لى راضياً بعيشته فى قرارة نفسه . ولكنه كان يكره الفلاحين ويحب أن يحذرنى منهم .

ــ لا يغرنك ما ترى من تقربهم منك ومسايرتهم لك. إنهم زائفون منافقون فاحذرهم. هم اليوم ما ترى وغداً غير من رأيت . لا يرى كل منهم إلا نفسه ، أما المصلحة العامة فهى سجن لهم .

ثم تحدث فى حقد يندر أن تضمره مثل هذه النفس الحلوة ، عن « الذوات » و« الأكابر » فقال :

— ولم كانوا أغنى من غيرهم ؟ ذلك لأنهم أشد ذكاء . أنظر إلى الفلاحين ، أيها اللعين ، تجدهم مختلفين متفرقين وقد وجب أن يتحدوا ليكونوا قوة ذات بأس . ولكنهم ينشقون على أنفسهم فى القرية كما تنشق العيدان فى الحزمة الواحدة : إنهم هم أعداء أنفسهم ، أشرار أنذال ، ألا ترى مايقاسى روماس منهم ؟ .

كان إيزوت قوياً ، جميلا ، يعجب النساء أيما إعجاب ، فيتهافتن عليه تهافتا . قال لى مرحاً :

— نعم أنا من أجل ذلك مقصى مكروه ، إن ذلك يسخط أزواجهن ، والحق أنى لو حللت محلهم لغضبت . ولكنك لاتستطيع الإ أن تشفق على النساء ، فالمرأة روح ثانية لك ، هذه الروح لاتجد مرحاً ولا تعرف عاطفة ، فتعمل كالفرس ولا تجد إلا العمل : أما زوجها فقد شغله عمله عنها ، ولكنى أنا رجل حر طليق . وهناك كثيرات عرفن غير أزواجهن فى السنة الأولى من زواجهن : لقد سلوت بهن ، ثم لم أسألهن الإ شيئاً واحداً ، لاتتنازعن . فأنا أكفيكن كلكن ، لاتتحاسدن ، فأنا أحبكن كلكن وأشفق عليكن كلكن » ثم يبتسم إيزوت ويقول فى خجل :

— ولقد لهوت أيضا بسيدة ، قدمت القرية فى عطلة ، كانت جميلة بيضاء كاللبن .... أما شعرها فحرير ناعم ، وعيناها زرقاوان ، بعتها سمكاً ثم نظرت إليها نظرة طويلة فسألتنى :

— مالك ؟

فقلت لها :

— أنت تعرفين ماأريد .

— حسناً سألقاك هذه الليلة فانتظرنى .

ولقد جاءت حقاً . ولكن الذباب كان يلذعها ثم يلذعها فلا تستطيع إلى دفعه سبيلا . هاهى تكاد تبكى وهى تقول : — ماأقسى لذعها وأشده .

وجاء زوجها القاضى فى اليوم التالى . . . أرأيت إلى السيدات ماأرقهن ؟ إنهن يمنعهن الذباب العيش . . .

وبدا على وجه إيزوت الحزن والملامة ....

ومدح إيزوت كوكوشكين كثيراً :

ـــ انظر إلى هذا الفلاح . إن له نفساً طيبة . ولكن الناس لايحبونه وهم فى ذلك مخطئون ؛ نعم إنه ثرثار ، ولكن لكل حيوان منا عيبه .

كان كوكوشكين كذلك لاأرض له ، فتزوج عاملةزراعيةتسكردائما ، ولكنها لبقة ، قوية ، خبيثة ؛ كانا يسكنان الحمامات ، بعد أن أجر كوكوشكين منزله للحداد ، وكان كوكوشكين مولعاً بالأخبار يرويها ، فإذا لم يجدها مرة ، اخترع أساطير كانت تحوم دائما حول موضوع واحد لايتغير :

ـــ أسمعت يامخائيل أنطونيفتش ؟ حارس تانكوف يريد أن يكون راهباً! يزعم أنه لايريد أن يكون مضطراً ، قياماً بوظيفته ، إلى كسر أشداق الفلاحين . فلقد كفاه ماجناه من قبل .

ويجيبه روماس فى جد :

ـــ كذلك ستزول كل أنواع السلطة من ديارنا !

فيفكر كوكوشكين فيما قال روماس ، وهو يشد شعره الذى اختلط به القش والحشيش والريش :

ـــ لا ، لن تذهب كذلك كلها . ولكن ذوى الوجدان لن يطيقوا الصبر على وظائفهم . أنا أرى يا انطوفيتش أنك لاتثق بالوجدان ، ولكن لاسبيل إلى الحياة بلا وجدان ، ومهما كان المرء ذكياً ..... اسمع ماجرى ...

ثم قص حكاية صاحبة أملاك « لم ير أذكى منها » فقال :

ـــ لقد كانت خبيثة خبثاً دفع الحاكم نفسه ، رغم سمو منزلته ، إلى زيارتهما فى بيتها ثم قال لها :

ـــ كفى ياسيدتى . فقد بلغت أنباء قسوتك بطرسبرج !

أما هى فقد سقته الخمر وقالت له :

ـــ اذهب فى سلام ، فلن أستطيع تبديل طبعى .

ومضت سنوات ثلاث ثم مضت بعدها بضعة أشهر ، فإذا بها تجمع فجأة

فلاحيها: — خذوا أرضى كلها ، وداعاً ومغفرة . . أما أنا فأريد أن أدخل ....

وقال روماس :

— الدير

ونظر إليه كوكوشكين فى انتباه ثم قال :

— نعم رئيسة دير ، وهل سمعت أنت بهذا النبأ ؟

— كلا ، أبداً . . .

— ولكن كيف عرفته؟

— لأنى أعرفك !

وتمتم اللعوب العابث ، وهو يحرك رأسه : — يالك من رجل جاحد .

كانت أقاصيصه كلها كما سمعت ، أشخاصه كلهم يملون القسوة ثم يختفون فلا يتركون وراءهم أثراً ، وكان كوكوشكين يبعث بهم فى غالب الأحيان إلى الدير ، كما ترسل القطع المعدنية إلى المصنع لتستبدل . . .

ولكم خطرت فى باله أفكار غريبة غير متوقعة فتراه — إذا جاءت — قطب وجهه وصرخ :

— لقد أخطأنا حين هزمنا التتر وغلبناهم ، فهم خير منا . . . .

وكان الحديث يدور آنئذ حول إنشاء جمعية لمزارعى الخضار ، ولم يجر ذكر التتر ، على لسان إنسان .

وحدث مرة أخرى أن كان روماس يتحدث عن سيبيريا وفلاحيها الأغنياء ، فإذا بكوكوشكين يتمتم مفكراً :

— لو ترك الناس صيد السمك إلا بالغى سنتين أو ثلاث سنوات لتكاثر ثم تكاثر ثم طغى البحر على الشاطىء وحدث الطوفان ، ما أكبر هذا السمك !

أما القرية فكانت تعتبر كوكوشكين امرأ تافهاً . كانت قصصه وأفكاره غريبة تزعج الفلاحين وتبعث إهاناتهم وسخرياتهم ؛ ومع ذلك فقد كانوا يصغون دائماً إليه فى انتباه واهتمام ، كأنهم يرجون أن يصلوا إلى الحقيقة من خلال هـــذه

الإختراعات . وكم رآه ذوو الوقار من الرجال ثم قالوا :

— يالك من طاحون كلام .

أما بانكوف الظريف فكان يقول وحده :

— أما استيفان فصاحب ألغاز ورموز .

كان كوكوشكين عاملا ماهراً جداً ، يعرف صنع البراميل ، ويبنى الأفران . ويربى النحل ويعلم النساء تربية الدواجن وينقش الخشب فى مهارة . كان ماهراً فى كل مايعانى رغم أنه كان يشتغل فى بطء وفى غير رغبة . كان يحب القطط ويربى فى الحمامات عشرة منها فقط ، ولم تكن هى وحدها بل كان معها أولادها . وكان يطعمها الطيور والعصافير ، وقد زادت فى حقد الفلاحين عليه ، تلك العادة التى عودها قططه ، وهى أن تأكل الدواجن ، فكانت تأكل الدجاج والأفراخ فتطاردها النساء ويضربنها ضرباً مبرحاً ، ثم يجتمعن عنده ، ناقمات صاخبات ، ولم يكن ليزعجه صراخهن ولم يكن ليزيد على قوله لهن :

— اسكتن ياغبيات ، ألا تعرفن أن القط حيوان صياد ، وأنه هو خير من الكلب؟ أنا أريد أن أعلمها الصيد فى الحقول دون الكلاب ، أصغين إلى أعرض عليكن مشروعى سنربى مئات من القطط ، وسنكون نحن وحدنا تجارها ولن تعود عليكن هذه التجارة إلا بالربح ، أيتها الغبيات ...

كان يعرف القراءة ولكنه نسيها ولم يفعل شيئا ليتذكرها ، وكان ذكياً بالفطرة وكان أول من يفهم مغزى قصص روماس ، فيقول وقد تغضن وجهه كالطفل إذا تجرع جرعة من دواء مر :

— نعم ، نعم إذن فلم يكن إيفان المرعب عدواً للشعب ....

وكان هو وإيزوت وبانكوف يزورونا فى المساء ويمكثون حتى ينتصف الليل ، يصغون إلى روماس يتحدث إليهم عن تنظيم العالم ، وعن الحياة فى الدول الأخرى . وعن ثورات الشعب وكانت الثورة الفرنسية ترضى بانكوف خاصة فيقول :

— إنها انقلاب حقيق فى الحياة !

ويقولها مؤيداً موافقاً ...

صفى بانكوف حساباته مع أبيه منذ سنين ، وكان أبوه فلاحاً ناتىء الحنجرة ، غائر العينين ، إلى درجة مخيفة ، وأحب بانكوف ثم تزوج يتيمة هى ابنة أخى إيزوت ، وكان يعاملها معاملة قاسية . ولكنه يكسوها كما تكتسى سيدات المدينة . وقد لعنه أبوه لعقوقه ، وكان إذا مر ببيت ابنه الجديد بصق على الأرض بصقة ناقة . وقد أجر بانكوف بيتاً من بيوته إلى روماس وبنى إلى جانبه دكاناً ، رغم اعتراض أثرياء القرية ، الذين يكرهوه من أجل ذلك . أما هو فكان يعاملهم فى غير اكتراث ، ويتحدث عنهم فى قرف ، ويخاطبهم فى لهجة عنيفة ساخرة ؛ وقد كانت حياة القرية ترهقه ، وطالما ردد قوله :

— لو أن لى مهنة لهاجرت إلى المدينة .

كان كثير النظام ، دائم نظافة الثياب ، وقور المجلس ، كثير الكرامة ، شديد الحذر ، قليل الثقة بالناس .

قال لروماس ذات مرة :

— قل لى ، أتقوم بهذا المشروع رغبة فيه وتذوقاً له أم لأمر وراءه أنت تخفيه ؟

— وأنت ماذا ترى ؟

— كلا ، قل أنت .

— ولكن أيهما خير عندك ؟

— لا أدرى ، وعندك ؟

وكان الأوكرانى عنيداً فانتهى إلى إلجاء الفلاح إلى أن يكون أول معترف :

— حقاً ، إنه لمن الخير أن نعمل من أجل هدف ، ولكننا لا نبلغ بلا مال ، فإذا نحن استطعنا جمعه شد إزرنا فى مشروعاتنا . القلب مستشار غير مؤتمن . ولو اتبعت قلبى لنالتنى الأرزاء ، من كل جانب ولأشعلت النار فى بيت القسيس ، لأعلمه كيف يتدخل فيما لا يعنيه .

والحق أن القسيس ، وهو شيخ خبيث ، له أنف خلد أرهق بانكوف بتداخله فى نزاعه مع أبيه .

عاملنى بانكوف بادىء الأمر فى غير رضا ، وربما فى سخط ، وحدثنى حديث

السيد ، ولكنه بدل سريعاً موقفه هذا منى ، وشعرت أن لا يزال فى قلبه شيئاً من عدم الثقة بى ، وكان هو أيضاً لا يرضينى إلا قليلا .

لاتزال ذكرى لياليا التى قضيناها فى الغرفة النظيفة ، ذات الحيطان الخشبية، حية قوية ، هذه ستائر النوافذ مسدلة ، وهذا مصباح يلتهب فى زاوية على منضدة، وقدجلس وراءها رجل عالى الجبهة، كبير اللحية،قصير الشعر،يتكلم فى هدوء ويقول:

— بعد الإنسان شيئاً فشيئاً عن الحيوان ، هذا هو جوهر الحياة ومغزاها.

وقد أصغى إليه ثلاثة من الفلاحين،وعيونهم كلها جميلة،ووجوههم كلها ذكية ، أما إيزوت فجالس لا يتحرك أبداً ، لكأنه يسترق السمع إلى صوت بعيد ، هو وحده يسمعه ،وأما كوكوشكين فيضطرب ويتحرك ويختلج كأنما الذباب يلذعه لا يفترعن لذعه،وأما بانكوف فيتأمل متمتماً فى صوت خافت وهو يفتل شاربيه:

— إذن فقد كان طبيعياً أن ينقسم الشعب إلى طبقات .

لم يكن بانكوف يخاطب كوكوشكين أبداً خطاب العنيف به ، رغم أنه كان فى خدمته،وكان يصغى إلى اخترعات هذا الحالم العجيبة — شدماسرنى هذا وأسلانى:

كنت إذا انتهى الحديث ، أذهب إلى مستودعى ، فأجلس عند النافذة المفتوحة.أنظر إلى القرية النائمة ،وأتطلع هنالك إلى الحقول وقد خيم عليها صمت لا تزعجه نأمة . وأحدق فى الشهب تهوى وتخترق القتام ، وهى تبتعد عنى كلما اقتربت من الأرض .

وهكذا يعصر الصمت قلبى عصراً شديداً ، فتنتشر وتنطلق أفكارى فى الفضاء اللا محدود ، وأرى ألوفاً من القرى تستلقى على ظهر الأرض كما تستلقى قريتنا هذه، فى هدوء وسكون .

لفنى الضباب برطوبته،وشد على روحى بألوف من شرايين لا أراها ،وشعرت بقلق يداعبنى ثم يستولى على شيئاً فشيئاً .أنا صغير دقيق فوق الأرض ...وظهرت لى الحياة فى القرية كئيبة لا سرور فيها ، ولكم سمعت أن هذه الحياة القروية أكثر عافية ، وأكثر صدقاً من الحياة فى المدينة ، وها أنا ذا أرى الآن هؤلاء

الفلاحين ينهمكون فى جهد لا ينقطع ولا يفتر ، هو جهد المحكوم عليهم بالأشغال الشاقة ، ها أنا ذا أرى فيهم كثيراً ممن تهدمت أجسامهم ، هدمها الجهد والإرهاق ، أو حرمها المرح والنشاط . نعم إن صناع المدينة وعمالها ليسوا أقل عملا ، ولكنهم يعيشون عيشة أكثر سروراً ، وهم لا يرهقونك بمثل ما يرهقك به هؤلاء الناس المتشائمون . ولم تبد لى حياة الفلاح بسيطة أيضاً ، فهى تتطلب انتباهاً دائماً للارض ، وكثيراً من الحيلة فى علاقات الناس بالناس ، وهى أيضاً ليست أكثر صدقاً ، ولقد خيل إلى أن كل الفلاحين يعيشون فى حذر دائم ، كالعميان حين يمشون ، وأنهم دائماً يخافون شيئاً من الأشياء ، وأنهم أبداً لا يثق بعضهم ببعض . إن فيهم لذئباً .

لم أفهم قط لماذا كانوا يصرون على كره روماس وبانكوف وكل أولئك الذين يزورونا ، كل هؤلاء الذين يريدون الحياة كما أمر بها العقل . وظهرت لى هنا مزايا المدينة فى وضوح ، ففيها ظمأ دائم إلى السعادة ، وتطلع دائب إلى الفهم ، وتنوع شائق فى الأهداف والأعمال . وطالما تذكرت فى مثل هذه الليالى هذه اللوحة : « ف . كالوجين وز . نيبى ، خبيران فى الساعات ، يقومان أيضاً بإصلاح كل أنواع الآلات ، وأدوات الجراحة وآلات الخياطة ، وعلب الموسيقى من كل الأجناس الخ . . . »

كانت هذه اللوحة معلقة فوق باب ضيق ، لدكان صغيرة ، فيها نافذتان مخبرتان ، جلس عند إحداهما كالوجين ، وهو رجل أصلع ، أصفر الصلعة منظاره على عينه ، ووجهه مستدير وقوى ، يبتسم دائماً ، وهو يعبث بكماشة رفيقة بالساعات ، وكان يغنى دائماً فإذا لم يغن فتح فاه المدور تحت فرشاة شاربيه البيضاء . وجلس عند الثانية « ز . نيبى » أسود الشعر أشعثه ، معقوف الأنف ، كبير العينين كأنهما منشوران ، دقيق العثنون ، كان جافاً قاسياً كالشيطان ، وكان هو أيضا يصلح ويبدل الأشياء الدقيقة الصغيرة ، ويصرخ بين حين وحين فجأة فى صوت جهورى :

— ترا — تا ، تن ، تن

وتتراكم وراء ظهر الساعاتى فوضى من الصناديق والآلات والإطارات والأدوات

والكرات الأرضية ، وعلى الرفوف كثير من الأدوات المعدنية ، من كل نوع ، وعلى الحيطان يتحرك عدد كبير من الرقاصات ، كنت أحب أن أقضى يومى كله ، أنظر إلى هذين العاملين ، ولكن جسمى الطويل كان يحجب عنهما النور فيسخران بى كثيراً ، ويحركان أذرعهما ، ثم يطردانى فأمضى ، وأنا أقول فى حسد وحرقة :

— ما أسعد من يصنع ما يشاء !

احترمت هذين الساعاتيين ، وتصورت أنهما يعرفان كل مافى هذه الآلات والأدوات من أسرار ، وأنهما يصنعان كل شىء فى العالم ، ويصلحان كل شىء فى العالم . أولئك هم الرجال .

أما القرية فلم أرضها ، ولم أفهم فلاحيها ؛ فالنساء شاكيات ، يطق دائماً شىء ما فى قلوبهن » أو « يقبض على صدورهن » و « بطونهن دائماً مريضة » . كن يتحدثن دائماً عن ذلك فى سرور ، وخاصة إذا جلسن أيام الأعياد ، أمام منازلهن على ضفاف الفولجا . وكن يغضبن فى سهولة ثم يتشاتمن فى غيظ ، وربما ثار النزاع بين ثلاث عائلات ، من أجل إبريق مكسور لا يسوى أكثر من اثنى عشر كوبكاً ، فتكسرت ذراع عجوز ، وانشقت جمجمة صبى . ولم يكد يخلو أسبوع من مثل هذه المعارك والملاحم .

وكان الشباب يلاحقون الفتيات فى دعر صريح ، ويعبثون بهن فى وقاحة ، ويمسكونهن فى الحقول ، ثم يرفعن أذيالهن ، ويعقدونها فوق رؤوسهن ، عقداً وثيقاً ، بحبال من لحاء الأشجار ، يسمون ذلك « تحويل الفتاة إلى زهرة » وكانت الفتيات العاريات من أقدامهن إلى خصورهن ، يتملصن ويشتمن ، وقد قيل لى إن هذه اللعبة تسرهن ، والذى أعرفه أنا أنهن كن يحللن عقدة أثوابهن فى بطء لو أردن لأنقصن منه .

وفى الكنيسة ، خلال المواعظ ، كانوا يقرصون أعجاز البنات ، ولولا ذلك لهجروا الكنيسة فى الغالب ، وكم خطب فيهم القسيس فقال :

— يا خبثاء ! هلا جربتم خبثكم فى غير بيوت الله !

قال لى روماس :— فى أوكرانيا تجد الروح الشعرية أوفر نصيباً فى دين الشعب ، أما هنا فالإيمان بالله لا يخفى وراءه إلا أحط غرائز الخوف والملق . إن الناس هنا لا يحبون الله حق الحب ، ولا يتحمسون لجماله وقوته حق الحماسة. وعندى أن ذلك خير لهم.فهم يستطيعون أن يتحرروا فى سهولة من الدين ، وهو فى رأيى أشد الأحكام السابقة عرقلة لسير الحياة .

وكان الناس هنا كثيرى الجعجعة ولكنهم جبناء ، وقد حاولوا مرتين أو ثلاثة ، عندما صادفتهم فى الطريق أن يضربونى ، فلم يستطيعوا إلا مرة واحدة، أصبت فيها بعصا على فخذى ولم أخبر روماس طبعاً بهذه الدعابات ، ولكنه لاحظ عرجى وفهم ماحدث فقال :

— إيه ، إيه إذن فقد وصلتك الهدية . ألم أخبرك ؟

ونصح إلى أن لا أتنزه فى الليل ؛ ولكنى كنت أحياناً أخترق البساتين إلى ضفة الفولجا ، وأجلس فى ظل الصفصافات ؛ أنظر إلى أكلة الليل الشفافة ، وإلى النهر ، ثم إلى المروج النائمة على ضفته الثانية ؛ كان مجرى الفولجا البطىء الذى ترسم ألوانه أشعة الشمس التى لاتراها ، والتى يعكسها القمر علينا، عظيماً حقاً . أنا لا أحب القمر ، ففيه شىء حزين ، يوحى إلى ، كما يوحى إلى الكلب ، الكآبة والرغبة فى العواء عواء مزعجاً . وكم كنت سعيداً جد سعيد عندما علمت أن هذا القمر لا يضىء لنا بنوره الخاص ، وأنه عالم ميت لا يمكن أن تجد فيه حياة ما . وكنت من قبل أتخيله ، وقد سكنه أناس من نحاس ، أجسادهم مثلثة ، يمشون مشى المثلثات الخشبية ، ويفكرون تفكير الأجراس فى الأعياد ؛ وأن كل شىء فيه من نحاس ، الزرع والحيوان ، وأنها كلها ترن لا تفتر عن الرنين ، وأنها كلها كارهة للأرض ، تريد بها الشر . ولكم كان لنيذاً عندى أن أعرف أيضاً أنه قابع فى السماء فى زاوية فارغة من زواياها ؛ ومع ذلك فقد كنت أحب أن يسقط على هذا القمر شهاب يصدمه ، فلعل قوة احتكاكه به تكفى لاشعاله، ولعله ينير الأرض مرة واحدة بنوره الشخصى ، مرة واحدة على الأقل ...

رأيت النور على الفولجا يضطرب فى عصب ملونة ، والنهر يولد هناك فى مكان

ما بين الظلمات ، ثم يترعرع ثم يختفى فى ظلال الشاطىء ، ورأيت فكرى يزداد حركة ووضوحاً . وهكذا فى مثل هذه الليالى يفكر الإنسان فى أشياء بعيدة عن حياته اليومية ، فى أشياء لا تعبر عنها الألفاظ .

كان الماء يجرى أخرس صامتاً ، وهناك على صدره المظلم ، جرى مركب كالعصفور المارد ، له ريش من نار ، يمشى ويترك وراءه رفيف أجنحته الثقيلة ، وعلى الشاطىء الذى كسته المروج ينتشر شعاع صغير على الماء أحمر دقيقاً . ذلك صياد يصيد على ضوء المصباح ، فتخاله نجمة سقطت من السماء على النهر ، فاستحالت إلى زهرة من نار ، تتنزه فوق الماء فى كبر وخيلاء .

وهكذا يستحيل ما يقرأه الإنسان فى الكتب إلى أحلام غريبة ، وأوهام عجيبة ، ينسج لها الخيال دون كلل ولا ملل ، لوحات ذات جمال لا يضارعه جمال ، ويخيل إلى الإنسان فيها أنه يسبح فى لجة الليل الهادىء هنالك وراء لجة الماء . وكنت ألقى إيزوت ، فأراه فى الليل أكبر منه فى النهار وأرضى . يسألنى وهو يجلس إلى جانبى :

ـــ ها أنت هنا ، ثم يبقى زمناً طويلا صامتاً ، متمركزاً على نفسه ، يتأمل النهر والسماء ويداعب الحرير الناعم فى لحيته المذهبة . ثم يحلم ...

ـــ إذا غدوت مثقفاً ، وإذا قرأت كثيراً ، فسأركب الأنهار كلها ، وسأفهم كل شىء ، ثم أعلم الناس . نعم ، نعم ، لا بأس أن تقاسم قلبك آخر مثلك ، ياصاحبى . سأجد أيضا بعض النساء اللواتى يفهمننى إذا حدثتهن حديث الروح . لقد كانت ، منذ أمد غير بعيد ، فى زورقى هذا ، واحدة منهن فسألتنى :

ـــ ماذا نغدو إذا متنا ؟ أنا لا أعتقد ، كما قالت ، بجهنم ولا بالآخرة .

أرأيت ؟ هن أيضا ياصاحبى . . . .

ولم يجد الكلمة فسكت ثم أضاف :

ـــ أرواح حية .

كان إيزوت إنساناً سوداوياً . كان يحس الجمال ويعرف كيف يتحدث عنه ، فى كلمات هادئة يهذى بها طفل حالم . كان يؤمن بالله كما تراه الكنيسة ، ولكنه

كان لايخافه ،وكان يتصوره كهلا جليلا محترماً قيوماً على الكون عاقلاطيباً ولكنه لايستطيع أن ينتصر على الشر لانه ، كايقول : « لايقدرعليه ، فقدتكاثر الناس كثيرا ، ولكن هون عليك ، فسيقضى عليه يوماً ما ، وسترى . أما المسيح فهو وحده الذى لاأستطيع فهمه أبداً . إنه لايسمن ولا يغنى من جوع . أفهمت ؟ هنالك إله قلنا : — قبلنا ، قالوا : وهاهو إله آخر . وهو ابنه ، وماذا يجدينا لو كان ابنه مادام الإله حياً لم يمت ؟ »

ولكن إيزوت كان يبقى جالساً فى أغلب الأحيان صامتاً مفكراً ،يرددمن حين إلى حين وهو يتنهد :

— أرأيت .....؟ ...

— ماذا ؟

— لاشىء! أنا أحدث نفسى .

ثم يعود ، فيتنهد مرة أخرى ، وهو ينظر إلى البعيد المضطرب :

— ماأجمل الحياة !

وأجيبه

— نعم ، ما أجملها !

كان الماء يجرى قوياً قاهراً ، وقد ارتسمت على صفحته المجرة الفضية ، وبرقت فيها النجوم الكبيرة ، كأنهاقبرات من ذهب،وغنت الأفكارفى سر الحياة غناء رقيقاً ، لايسمعه الاالقلب.

— الشمس ماأروعها . وابتسم إيزوت ابتسام السعيد القلق .

هاهى أشجار التفاح ، زاهرة زاهية ، والقرية يكسوها ثلج مورد ذو رائحة مرة ، تتغلغل فى كل شىء ، وتخنق رائحة القطران والدخان . ومئات من الأشجار المنورة تمشى صفوفاً منتظمة ، من بيوت القرية إلى الحقول ، وقد زينت بغلائل موردة . وفى الليالى القمراء كانت الفراشات إذا هزها النسيم وشوشت وشوشة غير مفهومة ، وكانت القرية مكسوة بغيوم ثقيلة ، ذات زرقة ذهبية ، وفى النهار كانت البلابل تشدو هائجة غير متعبة ، تتنازع،وكانت القبرات ، من حيث لاتراها

تسكب على الأرض ، دون انقطاع ، هتافاتها المتصاعدة.

وفى أماسى الأعياد كانت الفتيات والفتيان يتنزهون فى الشارع يغنون ، وأفواهم فاغرة كأنها مناقير العصافير عليها بسمة عصبية مريضة . وكان إيزوت يبتسم فيها أيضاً ، ابتسام رجل مخمور ، فقد غدا نحيلا ، وغاصت عيناه فى محجريهما القاتمين ، وأصبح وجهه أكثر رصانة وجمالا ، كأنه وجه قديس . وأصبح ينام أياماً كاملة ، ولا يبدو فى الشارع إلا عند المساء ؛ كان مشغولا مفكراً تفكيراً حلواً . وكان كوكوشكين يمازحه فى رشاقة وحب ، أما إيزوت فيقول وعلى ثغره ابتسامة مرتبكة :

ـــ اسكت . ليس لى عمل يشغلنى . ثم يثور فيقول :

ـــ أوه ، الحياة حلوة ، وحبنا يزيدها حلاوة وجمالا ، رب كلمة تبلغ القلب . رب كلمة لا ننساها ما بقينا أحياء غير أموات ، فإذا متنا ثم بعثنا ، كانت هى أول ما تتذكره من هذا العالم .

وقال له روماس ذات مرة وهو يبتسم رفيقا حنوناً :

ـــ الحذر الحذر ، فالأزواج يتربصون بك ليقتلوك .

فأجابه إيزوت

ـــ إن يفعلوا فقد أنضجت جلودهم غيظاً .

لم تكد تخلو ليلة ، فى الساعة التى يزقزق فيها العصفور ، من صوت ميجون ، ينشر فى البساتين والحقول على شاطىء النهر ، عالياً مضطرباً ، ينشد فى فن مدهش أغانى جميلة أكسبته وحدها رضا الفلاحين .

فإذا حل مساء السبت اجتمع حول الدكان نفر يزدادون شيئاً فشيئاً ، منهم بارينوف والعجوز سوسلوف ، والحداد كروتوف ، أما ميجون فلم يغب عنها مرة . وكانوا إذا اجتمعوا جلسوا ينظر بعضهم إلى بعض مفكرين ، ثم قام من قام ، وقدم من قدم ، حتى اذا انتصف الليل تفرقوا ؛ وربما قامت النزاعات بينهم ولاسيما إذا حضر الجندى كوستين ، وكان أعور لم يبق له فى يسراه إلا ثلاث

اصابع . وكانت أكمامه مهترئة يهز فيها قبضته ، ويقترب من الدكان ، فى كبرياء ديك من ديكة القتال ويصرخ فى جهد بصوت صخرى :

— أيها الأوكرانيون ! يا أبناء الشعب القذر ! أيها الملاحدة ! لماذا لاتذهب الى الكنيسة ، قل ، أجب ، ياسليل الهراطقة يازارع الفتنة أجب من أنت ؟

وكانوا يهزؤون به :

— ميشكا ، لماذا قطعوا لك إصبعين من أصابعك ؟ ألم يملأك الترك فزعاً ورعباً ؟

ويهجم عليهم فيقبضون عليه من ذراعـــه ويدفعون به دفعاً إلى المستنقع ضاحكين صارخين . ويتدحرج فيه المسكين كما يتدحرج الخروف وهو يصرخ صراخاً مخيفاً :

— النجدة ! النجدة : قتلت .

ثم يخرج ، وقد غطاه الغبار ، ويرجو روماس أن يدفع له مايشترى به فودكا .

— وعلام أدفع لك وقد كان منك ماكان ؟

— ولكنى أضحكتكم !

وينفجر الفلاحون جميعاً ضاحكين .

الفصل الثانى عشر

فى صباح يوم من أيام العيد ، أشعلت الطاهية النار فى الموقد ، ثم خرجت وكنت فى الحانوت ، فسمعت فجأة زفرة هائلة فى المطبخ ، اهتزلها الحانوت ، وسقطت الأوانى من الرفوف ، وتحرك الزجاج ، وزلزلت الأرض ، فهرعت إلى المطبخ وإذا بغيوم سود تنفذ من الباب ، ومن خلفها شىء يدوى وينفجر .

أمسك روماس بى ثم قال :

ــ اسكت !

وجاءت الطاهية ، تصرخ فى الدهليز ، فناداها أن كفى ياغبية ، ثم مضى إلى المطبخ فغاب عنا بين الدخان وسمعناه يحرك شيئاً .ثم يشتم ويصرخ :

ــ كفى . . . كفى . . . هاتوا ماء .

كان الدخان مايزال ينتشر من الأخشاب فى أرض المطبخ ، وفيها واحدة ما تزال تشتعل ، وهناك آجرات متناثرة ، وفم الموقدنظيف كانه كنس كنساً. وعثرت وأنا أتقرى بيدى فى الدخان ، على سطل ماء فاطفأت النار وأعدت الأخشاب إلى الموقد .وأمسك روماس بالخادم يجرها جراً ويقول لها :

ــ هونى عليك ولا تجزعى !

ثم أغلق عليها باب الغرفة وقال:

ــ أغلق باب الدكان يامكسيم . قف فقد يحدث انفجار آخر !

ثم انحنى فأخرج الأخشاب من الموقد ، وتحراها واحدة واحدة ، ومد إلى واحدة منها كنت ألقيتها فيما ألقيت ثم قال :

ــ انظر !

ونظرت إليها ، فوجدت فيها ثقباً غريباً يتصاعدمنه الدخان،وروماس يقول لى.

ــ أفهمت ؟ لقد حشا الأبالسة هذه الاخشاب بارودا ، ولكنهم أغبياء، فما يكفى رطل من البارود لنسف منزل .

ثم ألقى بالخشبة جانباً ، وغسل يده وهو يقول .

— لو لم تخرج إكسينيا لأصابها شر عظيم .

تقشع الدخان الأسود ورأينا على الأرض صحافاً متكسرة ، ورأينا ألواح الزجاج فى النوافذ محطمة كلها تحطيماً ، ووجدنا آجرات اقتلعها الانفجار من الموقد.

غاظنى هدوء روماس فى هذه اللحظة وساءنى ، فقد كان يتحدث عن الاختراع الأحمق وكأنه لا يثيره ولا يتعلق به فى كثير أو قليل .

تراكض الأولاد فى الشارع وهم يصرخون .. النار ... النار عند الأوكرانى، النار .. وصرخت امرأة رددت صراخها إكسينيا . — يحاولون الدخول إلى الدكان ، يا ميخائيل أنطونيفتش .

وقال روماس وهو يمسح لحيته المبللة بمنديله :

— صبراً ! صبراً .

وأطلت علينا من نوافذ الغرفة وجوه فاغرة أفواهها، أحالها الخوف والغضب، محمرة أعينها غيرها الدخان ، وسمعنا منادياً ينادى :

— اطردوه من القرية ... ففى كل يوم له حادثة ، وما معنى ذلك يارب ؟

وجاء فلاح أشقر يصلب ويحرك شفتيه ، ويحاول أن يتسلق النافذة ، فلا يستطيع ، وفى يمناه فأس ، فسأله روماس ، وقد أمسك بيده خشبة :

— إلى أين ؟

— إلى النار ...

— هون عليك فقد أطفأناها...

فغر الفلاح فاه رعباً وهلعاً ، ثم اختفى وراء الناس وخرج روماس فوقف على درج المخزن وأشار إلى الخشبة وقال يخاطب الجموع المحتشدة :

— لقد حشا أحدكم هذه الحطبة بارودا ، ثم دسها فى حطبنا ، ولكن البارود كان قليلا . ووقفت وراء الأوكرانى أنظر إلى الناس ، وسمعت الفلاح ذا الفأس يقول فى صوت خافت :

— ماله يتوعدنى ؟

وصرخ كوستين الجندى وكان ثملا . .

ـــ يجب علينا أن نطرده ... أن نحاكمه .... شيطان لعين .

أما سائر الناس فكانوا صامتين ساكنين ينظرون إلى روماس خائفين، ويستمعون إليه قلقين .

وقال روماس :

إن نسف بيت واحد يتطلب عشرين رطلا من البارود... عودوا إلى بيوتكم.

وسأل واحد من جاره :

ـــ أين العمـــدة ؟

وقال آخر :

ـــ أرى أن نستدعى الشرطة .

ثم مضوا كلهم غير عجلين كأنما هم يأسفون على شىء ...

جلسنا نشرب الشاى ، وإكسينا ، أحسن وألطف ما تكون ، تنظر إلى روماس فى عطف وحنان وتقول :

ـــ مالك لا تشكوهم ولا تقيم عليهم دعوى ؟ إنهم يعرفون منك ذلك ، فهم لذلك يصرون على العبث بك .

وسألته :

ـــ ألست غاضباً ؟

قال :

ـــ كلا ، ليس لى من الزمن مايسع غضبى لو أردت أن أغضب لكل حماقة.

وفكرت فى نفسى قائلا : لو أن الناس قاموا بواجبهم فى مثل هذا الهدوء ....!

أما هو فقد كان يتحدث عن رحلته القادمة إلى قازان ويسألنى عن الكتب التى أريد .

خيل إلى أن فى هذا الرجل شيئاً من الساعة ، وأنه استبدل بالروح لولباً أداره مرة واحدة وكفى ليبقى دائراً ما بقيت الحياة تختلج فى عروقه . لقد أحببت الأوكرانى واحترمته احتراماً جماً . ولطالما تمنيت أن أراه غاضباً على أو على غيرى

مرة واحدة ، صار خائباً أو بغير مرة واحدة ، ضارباً برجله الأرض مرة واحدة ، ولكنى لم أظفر بشيء من ذلك كله . لقد كان غير قادر على الغضب ، أو راغباً عنه إذا فرضنا أنه كان قادراً عليه . كان إذا هزته حماقة أو حقارة ، غمز بعينيه الشهلاوين ، ساخراً هازئاً ثم همس كلمات حاسمة باردة قاطعة .

وهكذا كان شأنه حين سأل سوسلوف :

— أخبرنى لم تفعل ما لا يرضاه ضميرك وأنت شيخ كبير ؟

واحمرت وجنتا العجوز واحمرت جبهته الصفراء ، وخيل إلى أيضاً أن لحيته البيضاء قد احمرت إلى أقصى جذورها .

— ثم إن ذلك لا يجديك ولا ينفعك ، ولكنه ، على العكس ، يذهب باحترام الناس لك . فأطرق سوسلوف برأسه وقال :

— صدقت . ثم قال :

— يا له من قائد يقتاد النفوس . يا ليت رجال الحكم فينا ، يختارون لنا من أمثاله !

ذكر لى روماس ما يجب أن أقوم به فى غيبته ، وخيل إلى أنه نسى الانفجار الذى قصد فيه إلى إرهابه كما ينسى المرء لذعة ذبابة من الذباب .

جاء بانكوف ففحص الموقد وسألنا قلقاً :

— ألم تخافوا !

— ولم ؟

— هذه هى الحرب .

— اجلس واشرب الشاى .

— زوجى فى انتظارى .

— وأين كنت ؟

— فى الصيد مع إيزوت .

ومضى وهو يردد هم المطبخ مرة أخرى فى تفكير :

— هذه هى الحرب .

كان حديثه مع روماس حاسماً قاطعاً دائماً ، كأنما حدثه سلفاً منذ زمن بعيد

عن كل شيء ، عن كل ما هو مهم عسير .

كان الأوكرانى يوماً يحدثنا عن عهد إيفان المرعب فقال إيزوت :

ـــ هذا قيصر مزعج .

وقال كوكوشكين :ـــ جزار .

وقال بانكوف جازماً :

ـــ أرى أنه لم يكن ذكياً حقاً . نعم إنه غلب الأمراء ، ولكنه زاد عدد النبلاء الصغار ، ثم لم يكفه ذلك فجاء بشعب أجنبى ، وذلك عمل لا يدل على ذكاء قط . إن السيد الصغير أشد خبثاً من السيد الكبير ، ألم تر أن الذبابة ليست ذئباً ، وأنها لا تقتلها البندقية ، ومع ذلك فهى أشد إزعاجاً لك من الذئب.

وجاء كوكوشكين حاملا سطلا من الطين فوضع الآجرات فى مكانها من الموقد ، وهو يقول :

ـــ ماذا اخترع هؤلاء الشياطين ؟ إنهم لا يستطيعون الخلاص من القمل الذى يأكلهم.ولكنهم تحت تصرفك إذا أرادوا خراب إنسان . إذا ذهبت يا أنطونيتش إلى المدينة فلا تأت دفعة واحدة بكل ما تريد من بضاعة ، بل وزعها على دفعات ، فقد يشعلون النار فى بيتك ، وما دمت تريد أن « تمشى » هذا الحادث فترقب حوادث أشد منه خبثاً وتعساً .

ساء هذا الحادث القبعات الكبيرة فى القرية ، ولكن الأوكرانى يعاونه بانكوف وسوسلوف واثنان أو ثلاثة آخرون من الأذكياء ، قد استغله أحسن استغلال ، فأصبح كبار الملاكين يعاملون روماس فى إيناس وعطف ، وزاد زبائن الدكان زيادة محسوسة ، حتى إن بعض الفلاحين « الصالحين للاشيء » مثل بارينوف بذلوا أقصى ما يستطيعون لمساعدة الأوكرانى .

أحببت ميجون حباً جماً ، وأحببت أغانيه الحزينة ، كان إذا غنى أغمض عينيه وهدأت رعشات وجهه الحزين الخائف ، كان يسهر الليالى القاتمة فإذا غاب القمر وغطى السماء حجاب كثيف من الغيوم ، نادانى فى رفق :

ـــ تعال نذهب إلى الفولجا .

ونمضى فيجلس إلى جانب زورق ، وساقاه القائمتان تهتزان فى الماء القاتم ، ويداه تلقيان بالشبكة فى الماء لصيد نوع من السمك كان محرماً ممنوعاً ، وفمه يتمتم

— لو سخر بى سيد لاحتملته ، فذلك أمر قد يطاق ، ثم ليعضه الكلب ، إنه شخصية من الشخصيات ، ثم هو يعلم ما لا أعلم . أما أن يسىء إلى إنسان مثلى ، فلاح ، فذلك مالا سبيل إلى احتماله ، وكيف أحتمله ؟ وما الفرق بينى وبينه ؟ أظن أنه إن اشترى هو بروبلات ، اشتريت أنا بكوبكات . ذلك كل ما بيننا من فروق.

كان وجه ميجون شديد التقلص دائم الرجفان والرعشة فى ألم وخوف ، كثير اهتزاز الحاجبين ، سريع حركة الأصابع ، إذا عقد أو حل شباكه ، وطالما رن صوته الحنون رفيقاً فى ظلمة الليل .

— يخالنى الناس سارقاً ، وهذا صحيح ، فقد حدث ذلك لى ، ولكن الناس جميعا يعيشون على السرقة ، يأكل بعضهم بعضاً ، ولسنا أحباء الله ولكنا أولياء الشيطان وأحباؤه .

والنهر الأسود يجرى والغيوم القاتمة تجرى ، والشاطىء يكاد يحجبه الظلام ، والأمواج تدغدغ الرمل ناعمة ، وتبلل رؤوسها قدمى ، تريد أن تجرنى معها إلى ماهنالك من ظلمات لاتنتهى أو تنتهى حيث لاأدرى . وميجون يتنهد قائلا :

— ألا ترى أن علينا أن نعيش سعداء ؟

وهنالك فى أعلى التل كلب يعوى عواء مخيفاً ، وأنا أسمعهما كليهما وأفكر كأنى فى حلم :

— ولم يعيش أمثالك من الناس ؟

والهدوء يظلل النهر ، وتظلله معه ظلمة الكون ورهبته ، ظلمة حارة لاتعرف الحدود . وميجون لايزال يتمتم :

— سيقتلون الأوكرانى ، وقد يقتلونك أنت أيضا .

ثم يغمض عينيه ، ويغنى فى صوت هادىء :

أمى حنون رؤوم تقول لى فى حنان
عش ياعزيزى وروحى فى عزة وأمان

وينطلق صوته عالياً قوياً أكثر مايكون الصوت قوة ، حزيناً أشد مايكون

الصوت حزناً ، وأصابعه تحل الشبكة ، ثم يبطىء الصوت الذى ينشد :

لم أصـــغ يوماً لأمى فعشـــت فى خســـران

واستبد بى شعور غريب ، وخيل إلى أن الأرض ومن عليها قد ابتلعتهم حركة هذا السائل القاتم الثقيل ، ثم غاصت بهم ؛ وأنى أيضاً منحدر ثم منحدر فى هذا القتام الذى غرقت فيه الشمس إلى الأبد ....

وسكت ميجون فجأة كما غنى فجأة ، ثم جر المركب فى صمت إلى الماء ، واختفى فى الظلام وأتبعته نظرى . وأنا ما أزال أطرح على نفسى هذا السؤال :

ـــ ولم يعيش أمثالك من الناس ؟

وصديق لى آخر يدعى بارينوف ، كان مجموعة من فوضى وكسل وتهالك وغيبة ، وكان متشرداً لا يقر له قرار . عاش حيناً فى موسكو فكان إذا تحدث عنها تحدث وهو يبصق :

ـــ تلك مدينة من جهنم . حيص بيص ، أما كنائسها فأربعة عشر ألفاً ، وست كنائس أيضاً وأماسكانها فكلهم نشالون يأكلهم الحسد والغيرة كما يأكلان الخيل ، هناك الباعة والجنود والبرجوازيون راهم كلهم يمشون وهم يتدافعون بالمناكب ، نعم إن فيها « القيصر ـــ المدفع » ، وهو سلاح عظيم ، صهر حديده وفولاذه بطرس الأكبر نفسه ، ليرد عادية الناقمين الذين ألبتهم عليه امرأة نبيلة أشعلت نيران الثورة لأنها تحبه .

لقد عاشا معاً سبع سنين ، ثم هجرها هى وأطفالها ، فغضبت عليه ونشبت الثورة . أما هو فلم يقف مكتوف اليدين . بم بم . المدفع يدوى ويخمد الثورة ، وهذا المدفع حصد بقذيفة واحدة تسعة آلاف وثلاثمائة وثمانين نسمة ، ولقد هال هذا العدد القيصر نفسه وأخافه ، كلا ، إنه قال للمتروبوليت فبلاريت يجب أن نصلب هذه المرأة الحقيرة حتى نجعلها نكالا للناس . ولقد صلبوها حقاً .

قلت له إن هذه كلها أحاديث خرافة ، ومجموعة من الحماقات فغضب وقال:

ـــ يا إلهى . ياسيدى . ما أخبثك وأخبث أخلاقك ، أتنكر ذلك وقد قص على هذه القصة رجل عالم ؟ وأنت....

ولقد قام « بزيارة القديسيين » فى كييف وقص علينا أخبارها :

ـــ أما هذه المدينة فتقع على رابية مثل قريتنا ، ويخترقها نهر نسيت اسمه ، ولكنه ساقية صغيرة إذا قيس بالفولجا . وهى مدينة معقدة عسيرة تتلاقى فيها الشوارع ثم يمضى كل منها فى سبيله ، وأهلها أوكرانيون ، ولكنهم ليسوا من جنس ميخائيل أنطونوف ، نصفهم بولونيون ونصفهم تتر . وهم قذرون يأكلون الضفادع ، ولكن ضفادعهم كبيرة تزن الواحدة منها ستة أرطال . وهم يركبون البقر ، ويستخدمونها حتى فى الفلاحة ، وبقرهم عجيب ، فأصغر بقرة عندهم أكبر من أربع بقرات كبيرة عندنا ، وزنها ثلاثة وثمانون قنطاراً . وفى كييف سبعة وخمسون ألف راهب ومئتان وثلاثة وسبعون أسقفاً .... ما أغرب طبعك ! أتناقش ما لا سبيل إلى مناقشته ؟ وكيف ، وقد رأيت ذلك بعينى رأسى ؟ أما أنت فهل ذهبت إليها أو مررت بها ؟ كلا ! إذن لماذا هذه الفصاحة ؟ أنا ياصاحبى أعشق الوضوح وأهوى البيان قبل كل شىء .

كان يحب الأرقام فعلمته الضرب والجمع ، ولكنه كان يكره التقسيم . كان يضرب الأرقام فى حماسة ، ويرتكب الأخطاء فى شجاعة ، ويخط على الرمل بعصاه قائمة طويلة من الأرقام ينظر إليها مصعوقاً ، فاغراً فاه ، مقلباً عينيه كالطفل ، وهو يصيح :

ـــ هذا رقم لا أستطيع التلفظ به .

كان ضعيف البنية ، متضائلا ، متنافراً ، ومع ذلك فقد كان وجهه يكاد يكون جميلا ، وقد أحاطت به لحية خفيفة متنافرة الشعرات ، وفى عينيه الزرقاوين لاحت ابتسامة طفل ، وكان يشبه كوكوشكين ومن أجل ذلك كانا يتنافران .

ورأى بارينوف بحر الخزر مرتين ، وصاد فيه ، وهو ما يزال قبلة أحلامه :

ـــ البحر ياصاحبى ليس كمثله شىء ..... وأنت أمامه ..... ذبابة ، إذا نظرت إليه فكأنك غير موجود . الحياة فيه حلوة سعيدة . وفيه من كل نوع من البشر : فيه قسيس يشتغل هو أيضاً ، وفيه كذلك طاهية هى خليلة النائب العام ، وماذا تريد أكثر من هذا ؟ ومع ذلك فلم تستطيع الطاهية على النائب صبراً ، أنت أيها

النائب المحترم ظريف حقاً ، ولكن ... الوداع ... إن من رأى البحر ولو مرة واحدة فقد ملك عليه لبه أبد الدهر ... هنالك تجد السعة التى لا تحيط بها إلا السماء. سأعود إليه أنا أيضاً إلى الأبد ؛ أنا لا أحب الناس ؛ هكذا خلقت ، ولقد كان على أن أكون راهباً فى الصحراء ؛ ولكنى ، ويا للأسف ، لا أعرف أين تكون هذه الصحراء الطيبة .

كان يجر حياته فى القرية كالكلب الشريد ، يحتقره كل الناس ، ولكنهم يصغون إلى قصصه إصغاء لا يضارعه إلا إصغاؤهم إلى أغانى ميجون ، ويقول بعضهم لبعض :

ــ كلها كذب ، ولكنها لذيذة ...

كانت خيالاته تشوش أحياناً أفكار أكثر الناس رصانة مثل بانكوف ، فقد سأل روماس مرة حذراً :

ــ يرى بارينوف أن الكتب لا تذكر حياة إيفان المرعب كلها ، وأن فيها أموراً كثيرة تخفيها عنا ، يظهر أنه كان ساحراً ، فقد كان يتحول إلى نسر ، ولذلك أصبحت النسور تضرب على العملة إكراماً له وإشارة إليه .

لاحظت أن الغريب الشاذ ، حتى ولو كان ظاهر الخلل ، يرضى الناس أكثر مما ترضيهم القصص الجدية عن الحياة الحقيقية الواقعية ، وذكرت ذلك لروماس فأجابنى وهو يبتسم :

ــ سيزول ذلك . لو تعلم الناس كيف يفكرون لوصلوا إلى الحقيقة. أما هؤلاء، الذين هم نسيج وحدهم ، من أمثال بارينوف وكوكوشكين فيجب أن تفهم أنفسهم ودخائلهم . ألا ترى أنهم فنانون خياليون ؟ ولقد كان المسيح ولا شك من هذا النوع، نسيج وحده ، ولنقرر أنه جاء بأمور لم تكن كثيرة الشر ....

عجبت وحق لى أن أعجب ، كيف لا يذكر هؤلاء الناس الله إلا قليلا ، وكيف إذا ذكروه لم يذكروه إلا فى غير اكتراث . وكان الشيخ سوسلوف وحده يقول غالباً ، وهو جد مؤمن موقن :

ــ كل بأمر الله .

كان حديثه دائماً حديث اليائس المستسلم .

لقد سرنى حقاً عيشى بين هؤلاء الناس ، وكنت إذا خلونا للحديث فى الليل ، تعلمت منهم أشياء كثيرة ، ولطالما خيل إلى أن كل كلمة من كلمات روماس تنبت كما تنبت شجرة كبيرة ، تمد جذورها فى قلب الحياة وأن هذه الجذور ، فى أعماقها ، تختلط بجذور شجرة أخرى مثلها موغلة فى طيات القرون ، وأن على كل غصن من أغصان هذه الشجرة كماً من أكمام الزهر يفوح بالأفكار ، ونبعاً رائعاً تنبجس منه كلمات قوية داوية . وكنت أشعر بما يحدث فى من تطور ، وأشتار كالنحل العسل الشهى من الكتب ، وأتحدث فى ثقة تزداد يوماً بعد يوم وتتضح ، وكم هنأنى روماس ، وعلى ثغره ابتسامة خفيفة :

— إنك لتتقدم تقدماً مطرداً طيباً يامكسيمتش .

ولكم كنت شاكراً له هذه الكلمات .

كان بانكوف يزورنا هو وامرأته أحياناً ، وهى امرأة صغيرة الجسم ، قصيرة الوجه ، زرقاء العينين ذكيتهما ، كانت تلبس ثياب المدنيات ، وتجلس متحفظة ، فى زاوية من الزوايا ، وقد أطبقت شفتيها فى تواضع ، فإذا تحدثنا فتحت الدهشة فاها ، ووسع الخوف عينيها ، فإذا سمعت تعبيراً مثيراً ضحكت فى حياء ، وسترت وجهها بكفيها ، وبانكوف يغمز روماس ويسر إليه :

— أراها فهمت !

وربما زار روماس زوار مترقبون حذرون ، يصعدون إلى عنبرى ، ويمكثون فيه ساعات طويلة ، وتصعد إليهم إكسينا بشرابهم وطعامهم ، وينامون فى مكانهم لا يبرحونه ، ولا يراهم أحد إلا أنا وإكسينا وكانت مخلصة لروماس ، إخلاص الكلب لصاحبه ، تكاد تعبده .

فإذا أظلم الليل ذهب بهم إيزوت وبانكوف إلى زورق ينتظرهم إلى مركب يمر ، أو إلى مرفأ لو بيشكى .

وكنت أرى من أعلى الرابية هذا الزورق يجرى على النهر الذى صبغه الظلام بالسواد ، أو طلاه القمر بالفضة ، وقد ترنح عليه نور مصباح ، يرشد ربان

المركب إليه ، كنت أتأمل بهذا كله ، وأشعر أنى مشترك حقاً فى مشروع سرى جليل .

هذه ماريا دورانكوفا تزورنا فى قريتنا ، ولكن مالى لا أجد فى نظراتها ما كنت أجده من قبل فيقلقنى ويهيجنى ؟ بل أذهب إلى أكثر من ذلك فأنظر إلى عينيها ؛ إنها عينا فتاة سعيدة ، لأنها تعرف أنها جميلة ، مغتبطة لأنها ترى رجلا ذا لحية يغازلها ، وهذا روماس يتحدث إليها ، كما يتحدث إلى سائر الناس هادئاً كثير الهدوء ساخراً خفيف السخرية ، ولكنه يكثر من العبث بلحيته ، ولكن فى عينيه نظرات هى أكثر حرارة ، بل هى أكثر قلقاً . وقد رن فى أذنيه صوت ماريا الصغير الملون فرحاً مسروراً ، وبدت أمامه فى ثوب أزرق وعلى شعرها الأشقر عصابة زرقاء ، ويداها الطفلتان تبحثان عن شىء تستقران عليه أو تعبثان به ، وهى تغنى فلا تبين ، وتفتح فاها ، وتلمس وجهها المورد بمنديلها لمساً ؛ إن فيها شيئا يوحى إلى قلقاً جديداً يغيظنى ويثير غضبى ، وكنت أحاول أن لا أراها ، ما استطعت إلى ذلك سبيلا ...

الفصل الثالث عشر

فى أواسط أيلول (سبتمبر) اختفى إيزوت. وقيل إنه غرق، ثم تحققت هذه الشائعة، فقد وجد زورقه طافياً، مكسر الجوانب، فوق الشاطىء المنخفض على بعد سبعة أميال من شاطىء القرية. وافترض الناس فى الحادث أن إيزوت نام وهو فى الزورق فقذف به النهر على راسيات المراكب الثلاثة فحطمته، وتبعد هذه الراسيات خمسة أميال من قريتنا.

كان روماس غائباً عنا فى قازان حين وقعت هذه الحادثة. وجاء كوكوشكين مساء إلى فى الدكان، فجلس حزيناً على الأكياس وظل هكذا صامتا ينظر إلى قدميه، ثم سأل وهو يشعل سيجارته:

— متى يعود الأوكرانى؟

— لاأدرى.

ومسح وجهه المدمى بيده مسحاً عنيفا، وهو يلعن ويشتم فى صوت خافت، وينخر كأنه ابتلع عظماً عرضاً فوقف فى لهاته لايتجاوزها.

— مالك؟

نظر إلى وهو يعض شفتيه، وعيناه حمراوان، وفكاه يرتجفان، ورأيت أنه لايستطيع أن يتكلم، فانتظرته قلقاً، لاأدرى ماأصنع، وأخيراً نظر إلى الشارع نظرة فاحص، ثم قال وهو يجهد نفسه فى صوت أجش ملجلج:

— ذهبنا إلى هناك مع ميجون. وفحصنا الزورق... زورق إيزوت. لقد اخترقت أرضه ضربة فأس. أفهمت؟ إذن فقد قتل. نعم لقد قتل إيزوتشكا.. لقد قتلوه...

ثم مال برأسه، وشاد قصراً من الشتائم المخيفة، وهو ينشج نشيجاً جافاً حاداً ثم سكت وصلب.

إنك لن تطيق مهما أطقت ، رؤية هذا الفلاح ، وهو يريد أن يبكى ، فلا يستطيع ، ويريد أن ينتحب ، فلا يعرف إلى ذلك سبيلا ، فيهتز كله عضواً عضواً وينفخ كالقدر غضباً وحزناً . ثم يقف فجأة ويمضى يهز رأسه .

عثر الأولاد فى اليوم التالى على جثة إيزوت ، وهم يسبحون ، تحت مركب مكسور عند الشاطىء قبل القرية،غاص نصفه فى الرمل وطفا نصفه فى الماء ، وتمددت عند ساريته جثة إيزوت الكبيرة ، وقد كسرت جمجمتها ، وفرغت وحمل الماء بخها معه فقد قتل الصياد من خلفه ؛ وبدا أنفه كأنما قصمته ضربه فأس .

وكان التيار يهز إيزوت ، فتنخبط قدماه على السد وتتحرك ذراعاه فى الماء لكأن هذا الصياد يجمع قواه وبحشدها ليبلغ الشاطىء حتى بعد أن مات .

وتجمع على الشاطىء عشرون فلاحاً غنياً أو يزيدون وقد بدت عليهم الكآبة والأسى ؛ وكان الفقراء من الفلاحين لايزالون فى الحقول ، ووقف العمدة بينهم خائفاً يترقب ، ويحرك عصاه . حركة رجل مشغول حزبه أمر خطير،وكان ينفخ ، ويمسح أنفه بكم قميصه المعصفر .

ورأيت هناك كوزمين ، وهو تاجر ثرى ، وكان يحدق بى مرة وبكوكشكين أخرى ، وقد ألقى بطنه أمامة ،وفرج بين قدميه . وهو يحك حاجبيه حكاً مخيفاً ، وخيل إلى أن عينيه اللتين ليس فيهما لون تغرورقان بالدمع وظهرلى وجهه المجدور أهلا للرأفة به ، حرياً بالإشفاق عليه

ونادى العمدة ، وهو يضرب فخذيه العبلتين :

ـــ ياللهول ... لقد أسأتم صنعاً أيها الناس .

وكان كنته . وهى صبية هيفاء ، تجلس على صخرة وتنظر إلى الماء نظرة طائشة ، وتصلب بيد مرتعشه ، وكان فمها يختلج ، وشفتها السفلى حمراء منتفخة تتدلى تدلياً مزعجا كأنها شفة كلب ، ومن وراء شفتها أسنان عنزة صفر .

واثالت الفتيات والفتيان من كل صوب كتلا ملونة ، وتراكض الفلاحون شعثاً غبراً ، وكان كل منهم يردد فى حذر وفى خرس :

ـــ ياله من ألد ذى خصام .

— وفيم كان خصامه ؟

— قتل الإنسان جريمة شنعاء .

— لقد عاش إيزوت فى هدوء وسلام .

صرخ كوكوشكين ، وهو يهجم على الفلاحين :

— نعم فى سلام ، إذن فلماذا قتلتموه أيها الأوغاد ؟ قولوا لماذا ؟

وانفجرت امرأة فجأة بضحكة هستيرية ، أصابت الجمهور كأنها ضربة سوط ، فصرخ الفلاحون وتدافعوا وتشاتموا ونفخوا ، ومضى كوكوشكين إلى كوزمين التاجر فلطمه لطمة هائلة :

— خذها إليك أيها الحيوان !

ثم مرق من الجمهور وهو يحرك ذراعيه وهتف بى كأنه فرح مسرور :

— تعال فلنتضارب .

ولكنه كان قد ضرب ، فسال الدم من شفته الممزقة ، ولكن وجهه كان يفيض سروراً .

— أرأيت أية لطمة نالها كوزمين ؟

وهرع بارينوف إلينا ، وهو خائف يترقب الجمع المحتشد عند المركب ، وكان صوت العمدة المجدور يصل إلينا :

— كلا ، بلغه أنى أتركه إكراما لغيره .

وتمتم بارينوف وهو يتوقل التل :

— يجب أن أمضى من هاهنا .

كان المساء حاراً ثقيلا راكد الهواء ، وكان عسيراً علينا أن نتنفس ، وتحدرت الشمس حمراء قانية بين الغيوم الزرق الكثيفة ، وسطعت أشعتها منعكسة على أوراق الأشجار والقصب ودوى الرعد فى مكان مامن السماء .

وتطلعت فرأيت أمامى جثة إيزوت تهتز ، ورأيت شعره فوق بقايا جمجمته ، وقد جرفه التيار فى طريقه ، فبدا كأنه قف رعباً وهلعاً .

تذكرت صوته الجهورى وكلماته الحلوة ، وهو يقول :

— فى كل رجل جانب من الطفل . وعلى هذا الجانب الطفلى فيه يجب أن نعتمد . أنظر إلى الأوكرانى ، إنك تخاله قد قد من حديد ، ومع ذلك فليست نفسه إلا نفس طفل .

وقال كوكوشكين وهو يمشى إلى جانبى غاضباً :

— سيفعلون بنا .... مثلما رأيت . ما أكثر هذا الخرق ! يارب...

عاد الأوكرانى بعد يومين ، فى الليل ، مسروراً أكثر ماكان قط سروراً ومرحاً ؛ فتحت له الباب فربت على كتفى وقال :

— مالك لاتنال حاجتك من النوم يامكسيمتش ؟

— قتلوا إيزوت !

— ماذا ؟

انتفخت أوداجه وارتجفت لحيته ، كأنها تستلقى على صدره ، ووقف منتصباً فى وسط الغرفة وقبعته ماتزال فوق رأسه ، وعيناه تكادان تغتمضان ، ثم حرك رأسه :

— قتلوه ! ألم يعرف قاتله ؟

واقترب من النافذة بطيئا ، وجلس ثم مد ساقيه :

— لقد أنذرته . وهل عرفت الحكومة ؟

— نعم ، جاء المفوض .

— ثم ماذا ؟ وأجاب هو نفسه على سؤاله :

— لاشىء طبعاً .

وقلت له إن المفوض نزل على عادته عند كوزمين ، وإنه قد أرهق كوكوشكين من أمره عسراً ، لأنه ضرب التاجر .

— أجل ، أجل ، لاشىء .

ذهبت إلى المطبخ أعد السماور ، وقال روماس وهو يشرب الشاى :

— إنى لأرثى لهؤلاء الناس ، فهم يقتلون خيرهم لهم ، إنهم يخشونهم ويخافون منهم ... إنهم يقولون : ليس هذا فى سبيل بيوتنا ولا من أجل عائلاتنا .

كنت فى طريق إلى سيبيريا نجتاز مرحلة مرحلة ، فحدثنى أحد المعتقلين فقال إنه كان رئيس عصابة ، فيها خمسة لصوص وبيناهم كذلك ذات يوم ، صرح أحد رجال العصابة إلى أصدقائه فقال : كفانا سرقة أيها الأصدقاء . إن السرقة لن تنفعنا ، ونحن الآن غير سعداء . . . وهم من أجل ذلك خنقوه ، خنقوه بعد أن سكر ونام . وقد أطرى المنفى القتيل إطراء طويلا ، لقد قتلت ثلاثة بعده ، فلم أندم أبداً على شىء أما هو فقد ندمت على قتله ، لقد كان لى رفيقاً ذكياً ، صالحاً مرحاً ، كان نفساً صافية نقية . وسألته : إذن فلماذا قتلتموه؟ أكنتم تخشون أن يشى بكم ويسلمكم .

ورمقنى السجين بنظرته وقال :

— كلا ، فلو أعطى الدنيا وما فيها ليشى بنا ماوشى ، ولكنه وهو الصديق ، لم يكن كما ينبغى أن يكون الصديق ، لقد كنا جميعاً مجرمين وكان هو وحده فاضلا . إن فضيلته لا يمكن أن نغتفرها له ؛ إنها هى وحدها ذنبه .

ونهض الأوكرانى يزرع الأرض جيئة وذهوباً ، ويداه وراء ظهره ، وغليونه بين أسنانه ، وكل مافيه أبيض ؛ كان يضرب الأرض بقدميه العاريتين ضرباً شديداً ، كأنه يريد أن يخرق الأرض خرقاً ، وكان يتحدث فى لهجة عذبة متأملة كأنما يحدث نفسه :

— لقد اصطدمت كثيراً بهذا الخوف من الفضيلة ومن العدل ، وبذلك التهرب والتخلص من الناس الأشراف . إن الناس ليعاملونهم إحدى معاملتين : إبادة بكل الوسائل بعد الإرهاق والتعذيب ، أو نظرة إليهم محدقين كما تنظر الكلاب إلى صاحبها ، فاتحة صدورها طائعة . وهذا قليل نادر . أما أن يتعلموا منهم كيف يجب أن يعيشوا ، وأما أن يترسموا خطاهم ، فذلك مالا يستطيعونه وما لا يعرفونه . أتراهم أيضاً لا يريدونه ؟ ولا يرغبون فيه ؟

ثم شرب كأس شاى باردة ومضى قائلا :

— قد لا يريدونه ، ففكر إذن فى أسباب ذلك ! لقد أجهد هؤلاء الناس أنفسهم فنظموا نمطاً من أنماط الحياة ألفوه واعتادوه ، ولكن ها هوذا ثائر يثور :

— أيها الناس ! إن حياتكم بائسة ..... أبائسة هى حقاً ؟ ولكننا أنفقنا عليها، أو على هذا النمط منها ، كل ما لدينا من قوى ، وبذلنا فى سبيلها أحسن ما عندنا من نشاط ..... كلا ولتخسف بك الأرض أو لتتخطفك الجن فتهوى بك فى مكان سحيق .... خذ .... خذ .... ، إليك أنت أيها السيد .... إليك أنت أيها العادل.... إليك أنت أيها الفاضل .. . ثم دعنا هادئين وادعين .... ولكن الحق والعدل فى قول الذين قالوا : « إن حياتكم بائسة » الحق لا يزال رغم كل ذلك فيما يقولون. إنهم هم الذين يدفعوننا دفعاً إلى حياة فيها هناء وفيها سعادة .

ثم أشار إلى الكتب على الرف :

— آه أيتها الكتب يا ليتنى أستطيع أن أكتب كتاباً أضمه إليك . ولكنى لا أستطيع ؛ إن أفكارى ثقيلة ناقصة .

وجلس على المنضدة وأسند رأسه إلى كفيه :

— آه ! وأسفا عليك يا إيزوت

وقال بعد صمت طويل :

— هيا بنا إلى النوم

مضيت إلى غرفتى ، وجلست قرب النافذة . كان البرق فوق الحقول يغمر نصف السماء ، وكان القمر يرتجف خائفاً كلما غمرت الأرض البروق ، وكانت الكلاب تعوى فى جهد ولولا عواؤها لظننت نفسك فى بلد ميت ، وكان الرعد يدوى من بعيد والنافذة تبيح جريان تيار ثقيل من الحرارة الخانقة .

أمامى جثة إيزوت متمددة على السد ، تحت القصب والحشيش ، وأمامى وجهه الأزرق يتطلع إلى السماء، وأمامى عيناه الزجاجيتان تنظران إليها قاسيتين ، وأمامى ذقنه المحددة تخفى فمه الذى فتحته الدهشة .

— المهم عندى يامكسيمتش أن تكون النفس طيبة رفيقة .... أنا أحب الفصح لأنه أعذب الأعياد .....

هذا ، وأمامى سرواله الأزرق جففته الشمس المحرقة ، فالتصق بساقيه الزرقاوين وقد غسلتهما مياه الفولجا غسلا كاملا . والذباب يطن فوق وجهه ، وجثته

تبعث رائحة كريهة قاتلة .

هذه أقدام تصعد السلم وهذا روماس ، وقد تقوس ظهره ، يدخل ويجلس على سريرى يقضم ذقنه بيـــده :

ـــ أتدرى ؟ سأتزوج ! نعم،سأتزوج .

ونظر إلى نظرة ثابتة كأنه ينتظرما أقول ، ولكنى لم أكن ممن يستطيعون أن يقولوا شيئاً ، وكانت أنوار البرق تملأ الغرفة بلون خرافى من مصنع الأوهام.

ـــ سأتزوج ماشا دورانكوفا .

وابتسمت مرغماً ، ولم يكن قط خطر فى بالى أن ممن الممكن أن تسمى هذه الفتاة ماشا . ذلك شىء يسلى ويضحك . أنا لا أذكر أن أباها أو أخوتها دعوها ماشا . وأنا ، هل من الممكن أن أنادى قط امرأة باسم غزلى مصغر ؟

ـــ ولماذا تضحك ؟

ـــ هكذا ...

ـــ أتظن أنى أكبر منها ؟

ـــ كلا !

ـــ قالت لى إنك كنت لها عاشقاً .

ـــ أظن أن نعم .

ـــ وهل تقضى ذلك اليوم ؟

ـــ نعم على ما أظن .

وترك لحيته ثم قال فى رفق :

ـــ يظن الشاب فى مثل هذه السن أنه غالباً عاشق ؛ أما فى مثل سنى فلايظن المرء ذلك ظناً ، فالحب يملك عليك نفسك كلها ، ولا يدع لك سبيلا إلى تفكير أنت غير قادر عليه . وأظهر أسنانه القوية وتابع فى سخرية خفيفة :

ـــ لقد أضاع أنطونيو معركة أكتيوم ضد أوكتاف لأنه ترك أسطوله وقيادته ، ليلحق بسفينة كليوباترة ، حين خافت وهربت من المعركة . هذا ما كان.

ونهض روماس ونصب ظهره وردد كالمحكوم عليه ، أو كالذى يفعل ما

لا يريد :

ـــ وأخيراً سأتزوج

ـــ أعن قريب ؟

ـــ فى الخريف عندما ينتهى موسم التفاح .

ومضى لاوياً رأسه تحت الباب الواطىء أكثر مما ينبغى . استلقيت مرة أخرى لأنام . خيل إلى أن من الخير لى أن أغادر مكانى هنا فى الخريف . لماذا يتحدث عن أنطونيو ؟ إن هذا ليزعجنى .

وبدأت بواكير موسم التفاح ، وكان الموسم طيباً ، وأغصان الأشجار تنوء بأثمارها وتغلغلت رائحة النسرين العاطرة ، فعمت البساتين التى انتشر فيها الأطفال صاخبين ، يلتقطون الأثمار اليانعة ، والتفاح الأحمر والأصفر ، الذى تلقيه الريح .

عاد روماس فى أوائل تشرين الثانى (نوفمبر) من قازان ، فى مركب مثقل بالبضاعة ومركب آخر ملىء أكياساً ، وكان ذلك يوم الأحد ، الساعة الثامنة صباحاً ، وبعد أن غير ملابسه واغتسل وتهيأ ليشرب الشاى قال لى فى فرح :

ـــ ما أجمل الإبحار فى الليل !

وفجأة تنفس وشم ، ثم سأل فى قلق : ـــ أتشم رائحة دخان ؟

ودوت فى الوقت نفسه ، فى الباحة ، صرخة إكسينيا ـــ النار ... النار ...

أسرعنا إلى الباحة ، فرأينا حائط العنبر يحترق من جانب البستان ، وكنا قد أودعنا فى العنبر البترول ، والزيت والقطران ، ورأينا فى لحظات ألسنة النار الصفر وقد تلاعبت بألوانها أشعة الشمس تلمس فى عنف الحائط ، وتضرب السقف وحملت إكسينا سطل ماء ، فألقاه روماس على الحائط الملتهب ثم قال :

ـــ لكن ماهو كائن ، اخرج البرميل يامكسيمتش واذهبى أنت إلى الحانوت يا إكسينا . ودحرجت فى سرعة برميل القطران إلى الباحة ثم إلى الشارع وأمسكت ببرميل البترول ولكنى لاحظت أن غطاء مفتوح وأن البترول يجرى على الأرض ، وبينما كنت أحاول البحث عن غطائه لم تنتظرنى النار ، فاخترقت الحائط وقعقع السقف وصفر شىء من الأشياء صفيراً ساخراً .

ورأيت ، وأنا أدحرج البرميل ، النساء والأطفال يصرخون فى الشارع .

وأخرج روماس واكسينا البضاعة من الدكان وألقوها فى حفرة المستنقع بينما وقفت أمرأة بيضاء الشعر ، سوداء الثياب ، فى الشارع تنادى — آه أيها الابالسة

وعدت مرة أخرى إلى العنبر ، فوجدته وقد أفعمه دخان كثير ، وانفجارات وفرقعات ، وتدلت من سقفه عمائم أرجوانية وهى تئز واستحال الحائط إلى شعلة حادة كالجمر .

واستطعت ، وقد خنقنى الدخان وأعيانى ، أن أخرج بعد لاى برميلا آخر إلى باب المستودع ، وتمكن فى موضعه هناك ، فلم يرد أن يتزحزح ، وهبطت على من السقف شرارات أحرقت جلدى واستنجدت فهرع إلى الاوكرانى . وقبض على يدى ، ودفعنى إلى الباحة .

— هيا أنقذ نفسك ، سينفجر العنبر .

واندفع فى الدهليز فتبعته ، ثم صعدت إلى غرفتى وكان لى فيها كتب كثيرة فألقيتها من النافذة ، وأردت أن ألقى صندوقاً من القبعات ، ولكن النافذة كانت ضيقة ، فحاولت خلع مسامير الصندوق بوزنة صغيرة . ولكن شيئاً زعق زعقة صماء واضطرب السقف ، وعرفت أن برميل البترول قد انفجر ، ثم رأيت السقف الذى فوق ، يشتعل أيضا ويئز ، وتدحرجت موجة شقراء من النار أمام النافذة ، وشعرت بحرارة لاتطاق ، وهرعت إلى الدرج ، فصعدت إلى لقائى غيوم كثيفة من الدخان - وانسابت فئات من الأفاعى الحمر على درجات السلم ، وسمعت أزيزاً فى الدهليز ، كأن أسناناً من الحديد تقضم عيداناً من الخشب ... فقدت صوابى ، وأعمانى الدخان وخنقنى وبقيت بضع ثوان لانهاية لها لاأتحرك ، وأطل على ، من أعلى الدرج ، شدق أصفر ذو لحية شقراء إطلالة خجلى ، فاشتعل السقف ، وأحسست أن شعرى يتقلص وينكمش وأنى لاأسمع إلانسيسة . وشعرت أنى هالك وثقلت ساق وأوجعتانى ، رغم أنى غطيتهما بيدى ، ولم أدر كيف هدتنى غريزة حفظ البقاء الحكيمة إلى طريق الخلاص الوحيدة ، فأمسكت بكلتا ذراعى فراشى ووسادتى ، ولففت رأسى بفروة روماس ، وكانت من جلد خروف ، وقفزت

من النافذة ، وعدت إلى رشدى ، وأنا على ضفة المستنقع ، وقد مال على روماس يسألنى

ـ ماذا بك ؟ فنهضت فرأيت بيتنا يذوب ويستحيل إلى كومة من الجمرات الحمر والألسنة الساطعة أمامه تلف الأرض السوداء والنوافذ تنفث دخاناً أسود ، وعلى السطح تنبت أزهار صفر تتأرجح وتميس .

وصرخ الأوكرانى : ـ ماذا بك ؟

كانت تسيل على وجهه الغارق بالعرق والهباب أدمع قذرة ، وعيناه خائفتان تنفتحان وتنقبضان ، وذقنه المبللة خالطتها نثرات من الهباب الأسود .

لقد غمرتنى موجة ندية من الفرح واستبد بى شعور واسع جد واسع ، قوى كثير القوة ، ثم شعرت فى ساقى اليسرى بألم حاد فاستلقيت ، وقلت للأوكرانى :

ـ لقد كسرت ساقى .

وضرب لى على ساقى ، ثم جذبها فجأه ، فصعقنى ألم حاد ، ثم وجدتنى بعد ذلك بلحظات أحمل إلى حماماتنا ، وأنا أعرج ، وقد سكرت فرحاً ، ما أنقذناه من متاعنا وروماس يقول مسروراً ، وغليونه بين أسنانه :

ـ تأكدت أنك مختنق لامحالة حين انفجر برميل البترول ، وسال على سقف غرفتك ، فقد شبت النار فى عمود عال ، وثبتت فى السماء مظلة كأنها مظلة من الفطر كبيرة ، ثم غاص البيت كله فجأة فى النار وقلت لنفسى : ـ ضاع ما كسيم .

وقد كان هادئاً كعادته فرتب متاعه ، فى عناية ، وقالى لأكسينيا :

ـ انتظرى هنا واسهرى ، لا يسرق أحد شيئاً . سأذهب لإطفاء النار .

وتطايرت قطع من الورق الأبيض فى الدخان فوق المستنقع فقال روماس :

ـ آه يا كتبى المسكينة ، التى أحب !

كانت النار تشتعل فى أربع بيوت مجاورة رغم أن الهواء كان ساكناً ، وتذهب ذات اليمين وذات الشمال ، فى غير سرعة ، وتمد أظفارها اللينة كأنها آسفة خجلى ، إلى سياج البيوت وإلى سقوفها ، وكأن مشطاً من نار يكتسح القش على السطوح وكأن أصابع من نار تعبث بالسياجات ، كما تعبث الأصابع بأوتار العود ، وفى الهواء ترن معزوفة سوداء حادة ، يوقعها اللهيب ، ويرافقه بها الخشب وهو يطقطق

رقيقاً رفيقاً كأنه عاشق يتغزل وهو يذوب وهطلت من غيوم الدخان على الشارع وعلى الباحة ، شعل مذهبة كالشهب .

وكان الفلاحون والفلاحات يروحون ويغدون عبثاً ، وكنت لا تسمع إلا صرخة لا تنقطع :

— الماء . . . الماء . . .

كان الماء بعيداً فى الفولجا ، فجمع روماس الفلاحين فى سرعة . يقبض على أكتافهم ويدفعهم ، ثم قسمهم قسمين وأمرهم بهدم السياجات ، وما يتصل بمركز الحريق من الجانبين ، وأطاعوه راضين وبدؤوا يقاومون فى نظام أرقى اندفاع النار التى تريد أن تكتسح الشارع كله . ومع ذلك فقد كان الناس يعملون فى غير شجاعة ، وفى غير أمل ، كأن هذا العمل لا يهمهم أبداً .

كنت طروباً ، شاعراً أنى أقوى ما كنت قط ، ولاحظت فى طرف الشارع ، جماعة صغيرة من الأغنياء ، على رأسهم العمدة وكوزمين ، مكثوا هنالك نظارة يرقبون ولا يقومون بأى عمل ، وكانوا يصرخون ، ويحركون عصيهم وأيديهم ، ووصل من الحقول فلاحون يمتطون الجياد ، فاستقبلتهم النساء صارخات واستقبلهم الاطفال راكضين مهرولين .

واتصلت النار ببيت آخر فوجب هدم حائط الاصطبل ، وهو أعمدة كبيرة توجتها عمائم من اللهب وبدأ الفلاحون يلقون بالأخشاب ولكن الشرر والفحم انهالا عليهم فتراجعوا مسرعين ، يطفئون بأيديهم قمصانهم وهى تحترق . وناداهم الأوكرانى أن لا تخافوا ، ولكن نداءه ذهب سدى ، فنزع قبعة فلاح وشدها على رأسه وقال :

— اهدموا من هاهنا ، وأنا أهدم من هناك .

وقذفت بعمود وعمودين فانهار الحائط وجذبنى الأوكرانى من قدمى وغطانى الغبار والتراب إلى قمة رأسى . ثم سحب الفلاحون كلهم السياج وألقوه فى الشارع .

وسألنى روماس : — هل أصابتك النار ؟

ضاعف حدبه على ، شدتى ، ومهارتى ، لقد كانت بى رغبة جامحة تدفعنى إلى أن أكون ذا مزية ، فى عينى هذا الرجل العزيز على نفسى ، فكنت أقوم بجنون ،

ثم يحنون ثم يحنون لأستحق مدحه وثناءه ، وكانت أوراق كتبنا لا تزال تتطاير كالحمامات فى سحب الدخان ونحن نرقبها قسراً حيناً بعد حين ونجحنا أخيراً فى إيقاف الحريق، من الجهة اليمنى، ولكنه كان يزداد فى الجهة اليسرى ، كان وقد بلغ البيت العاشر.

ترك روماس بضعة فلاحين ، يراقبون حيل الأفاعى الحمر ، فى ذلك الجانب. ومضى بأكثر العمال إلى الجانب الأيسر ، وسمعت وأنا أجرى أمام الأغنياء كلمة خائنة أثيمة: — لقد أشعلوا النار عمداً . وقال التاجر : — يجب أن تقوم بتفتيش حماماته . . .

لقد انطبعت هذه الكلمات فى ذاكرتى انطباعاً مزعجاً ، قتالا .

يعرف الناس أن كل هيجان ، ولا سيما هيجان اللذة يزيد فى قوانا ، وكنت وأنا فريسة هيجان لذيذ أعمل فى حماسة مطلقة ، وأخيراً وجدتنى فى الرمق الأخير. أذكر أنى جلست على الأرض ، وأن روماس كان يرش وجهى بالماء ، وحولنا الفلاحون يتمتمون فى احترام .

— ما أقواه .

— إنه لا يكل ولا يمل .

ألصقت رأسى بفخذ روماس ، وبدأت أبكى بكاء مراً مخجلا ، أشد الخجل وأقساه . وكان يداعب رأسى المبلل ويقول :

— هون عليك كنى . كنى .. وقادنى كوكوشكين وبارينوف وكلاهما أسود كالشيطان إلى المستنقع ، وهما يعزيانى :

— لاشىء ياصديقى كنى ، هل خفت ؟ لم أكد أستريح وأجلس حتى رأيت طائفة من أغنياء الفلاحين يمشون إلى حماماتنا ووراءهم حارسان يمسكان بروماس من ذراعه . كان حاسر الرأس وقد نزع كم قميصه المبلل ، وغليونه يصر عليه بين أسنانه ووجهه القوى القاسى مخيف ، وكان الجندى كوستين يصرخ صراخاً قوياً ويعبث بعصاه ويقول : — إلى النار أيها الكافر .

— افتح الحمامات .

وأجاب روماس فى صوت عال :

— اكسروا الأقفال . لقد أضعت المفتاح .

قفزت على قدمى وأمسكت بمجرفة على الأرض ووقفت إلى جانب الأوكرانى وتوزع الشرطة ، وصرخ العمدة فزعاً :

— يا أورثوذكس : القانون لا يبيح لنا كسر الأقفال .

وصرخ كوزمين وهو يشير إلى — أهذا أنت ؟

وقال روماس : — صبراً يامكسيمتش إنهم يظنون أنى قد خبأت البضاعة فى الحمامات ثم أشعلت النار عمداً فى الدكان .

— بل كلا كما .

— اكسر .

— يا أرثوذكس .

— اكسر ونحن نتحمل العقاب ، اكسر ولا بأس عليك .

وتمتم روماس : — كن خلفى كيلا يضربونا من ورائنا .

كسروا قفل الحمامات وأسرع كثيرون منهم فى الدخول إليها ثم خرجوا رأساً منها ، وكنت قد وضعت المجرفة فى يد روماس وتناولت أخرى من الأرض .

— لاشىء . . . — لا شىء . . .

— آه يا أبالسة . . . وقال فلاح فى خجل وحياء :

— أخطأتم أيها الفلاحون . وأجابت أصوات مخمورة .

— ماذا ؟ أخطأنا ؟

— ألقوه فى النار . . . يامثير الفتن . . .

— يريدون أن يشكلوا نقابات . ؟

— لصوص . . .

— عصابة لصوص . . .

وصرخ روماس فى صوت قوى :

— اسكتوا اسكتوا . . . لقد رأيتم بأم أعينكم أن ليس عندى بضاعة أخفيها فى الحمامات ، فماذا تريدون بعد ذلك ؟ لقد احترق كل شىء ،

ولم يبق إلا ما ترون . وماذا يجديني أن تأكل النار كل ما عنـــدى ؟

ـــ بضاعتك مضمونة . . .

وصرخت عشرة حناجر صراخاً عنيفاً :

ـــ لا تكترثوا بما يقولون .

ـــ كفى ، كفى ، لقد احتملنا أكثر مما نطيق .

ارتجفت ساقاى ، ولم أر ما أمامى ، ولمحت خلال ضباب أحمر أشداقاً وحشية وثقوباً بنفسجية فى مكان الأفواه ، وضبطت فى جهد كبير رغبتى الحارة فى أن أضرب هؤلاء الناس ، كانوا يصرخون ، وهم يدورون حولنا : ـــ آه ـــ آه لقد أمسكوا بالمجارف . . . ـــ مجارف .

وقال الأوكرانى وظننت أنه يبتسم : ـــ سوف ينتفون لحيتى يامكسيم ، وأنت أيضاً ستنال نصيبك ، ولكن صبراً يا مكسيمتش . . .

ـــ انظروا إلى هذا القدوم فى زنار الفتى .

والحق أن قد كان ، ولكنى لم أكن به عالماً . وقال روماس :

ـــ أرى أنهم قد خافوا ، ومع ذلك فلا تضرب بالقدوم إن حدث حادث ، وصاح فلاح صغير ، مجهول ، يعرج ويقفز كالشيطان :

ـــ أرجموهم بالحجارة من بعيد .

وأمسك بحجر ، وقذف به صدرى بكل ما يستطيع من قوة وقبل أن أرد عليه ، انقض عليه كوكوشكين كالعقاب ، وتدحرجا جميعاً إلى المستنقع .

وركض وراء كوكوشكين بانكوف وبارينوف والحداد ورجال كثيرون آخرون ، وعند ذلك صرخ كوزمين فى لباقة :

ـــ إنك رجل ذكى يامیخائيل أنطونوف . إنك لتعلم أن الحريق يثير جنون الفلاحين

وقال روماس : ـــ تعال إلى مقهى المستنقع يامكسيمتش ، وسحب غليونه من فمه وأعاده فى حركة عنيفة إلى جيب سرواله ، وقطع المستنقع مستنداً إلى المجرفة وقال يخاطب كوزمين وهو لا ينظر إليه : ـــ سر فى طريقك يا أبله !

ورأيت فى موضع بيتنا كومة من الجمر الذهبى ، ينتصب فوقها الموقد سليماً

كما كان ، ويخرج من أنابيبه دخان خفيف أزرق ، وكان حديد السرير الأحمر يمتد كأنه أرجل عنكبوت ، وجانبا الباب الخارجي يقومان كأنهما حارسان ، أحدهما متوج بجمرات حمر ، كأنها عرف الديك . وقال الاوكرانى وهو يتنهد :

— لقد احترقت الكتب وا أسفاه . . كان الاطفال يدفعون بالعصى جمرات كبيرة ثم يرمونها فى طين الشارع فتصفر ثم تضمحل ، وقد ملأت الهواء دخاناً كثيفاً أبيض .

وهنالك طفل ذو شعر أشقر ، وعيون زرق ، لا يتجاوز سنه خمس سنين ، يجلس فوق آجرة سوداء حارة ، وينقر بعصاه على سطل مخروق ، ويصغى فى رضا تام ، وانتباه مركز ، إلى نغمات النقر على الحديد ومشى رجال الإطفاء كالحين يكومون ما استطاعوا من إنقاذه .

وهنالك نساء يبكين ، ويتشاتمن ، ويتنازعن على قطع من الخشب الاسود .

ووراء الحريق فى البستان ، تنتصب أشجار لاتتحرك ، انضجت النار أوراقها فبدت حمراً زاهية وظهر التفاح أكثر ما يكون غزارة ووضوحاً .

سبحنا فى النهر واغتسلنا ، ثم ذهبنا نشرب الشاى ، فى مقهى على الشاطىء ، وقال روماس :

— لقد خسر الأكابر موسم التفاح كذلك .

وقدم بانكوف مفكراً ظريفاً أظرف ما يكون . وسأله الاوكرانى : — ما وراءك يا صاحبى ؟

وهز بانكوف كتفيه وقال : — أما بيتى فمضمون . . .

جلسنا صامتين ، نتبادل النظر ، كأننا أغراب قال بانكوف :

وماذا تريد أن تفعل الآن يا ميخائيل أنطونتش :

— سأفكر فى ذلك .

— يجب أن تسافر — سأرى . وسكت بانكوف ثم قال : — عندى مشروع تعال نخرج ونتحدث .

والتفت إلى بانكوف وهو عند عتبة الباب وقال : — أنت غير خجول .

وتستطيع أن تعيش عندنا وسيرهب الفلاحـــون جانبك.....

خرجت أنا أيضا إلى النهر ، واستلقيت تحت القصب ، وأنا أنظر إلى النهر وكان الحر شديداً ، رغم أن الشمس كانت قد جنحت إلى الغروب ، ودارت أمام عيني ، فى خيط طويل ، أيامى كلها فى القرية ، وكأنها رسمت رسماً ملونا ، على صفحة النهر العريضة ، كنت حزيناً مرهقاً ، فاستسلمت للتعب ونمت نوماً عميقاً.

وسمعت فى نومى قائلا يقول :

ـــ هيه أميت أنت ؟

وهنـــاك وراء النهر ، فوق المروج كان القمر الأحمر يلمع كـــأنه دولاب كبير .

وبارينوف يهزنى : ـــ تعال ، الأوكرانى يبحث عنك ، وهو قلق عليك

ومشى ورائى مدمدماً :

ـــ أنت لا تستطيع النوم حيث تشاء ، قديم إنسان على السد ، فيعثر ، فتسقط على أم رأسك صخرة من الصخور أو قد يهديها هو اليك عمداً ، نحن لانعرف المزاح. إن الشعب ياصاحبى يتذكر الشر وحده ذلك لأن الشر هو كل مايجده ويلقاه فى حياته ليتذكره .

وهناك بين القصب ، رجل يوزعه فى رفق فتضطرب الأغصان ، ويسأل :

ـــ هل وجدته ؟

هذا ميجون وصوته الرنان . وأجاب بارينوف :

ـــ هاهو معى . وابتعد عنى خطوات وقال وهو يشير إلى ميجون ويتنهد :

ـــ هاهو يستعد ليسرق السمك...

ـــ إن حياته شقية بائسة .

واستقبلنى روماس غاضباً لائماً :

ـــ أتتنزه ؟ أتصر على ضربات العصا ؟

وعندما خلونا إلى أنفسنا ، قال لى فى رفق ، وفى صوت أجش :

ـــ يعرض عليك بانكوف أن تبقى عنده فهو يريد أن يفتح دكاناً وأنا

لاأنصحك بالبقاء . وقد بعته كل مابقى عندى . سأسافر إلى فيانكا ثم ارسل فى طلبك . أتريد ؟

— سأفكر .

— فكر . واستلق على الأرض ، وتمتم قليلا ، ثم سكت ، وجلست قرب النافذة فى الحمامات أنظر إلى الفولجا .

كانت أشعة القمر تذكرنى بالحريق هناك وعند الشاطىء مركب تضرب جنباته الماء ضرباً قوياً . وتراءت لى فى الأفق مصابيحه الثلاثة كأنها تلمس النجوم حيناً وتخفيها حيناً آخر .

وسألنى روماس ناعساً :

— أكرهت الفلاحين ؟ لا ، لاتكرهم . إن خبثهم ليس إلا بلاهة .

ولكن كلماته هذه لم تنفعنى ولم تستطع أن تهدهد ما فى نفسى من كراهية حادة ، وتمثلت مرة أخرى تلك الأشداق الوحشية الحمر تقذف هذه الصرخة المرعبة :

— ارجموهم بالحجارة من بعيد .

كنت فى ذلك العهد لاأعرف نسيان ماليس مفيداً ، كنت أرى تماماً أن كل رجل من هؤلاء الناس إذا فصل عنهم ، فهو ليس ذا خبث كثير ، بل هو ليس بذى خبث فى غالب الأحيان . إنهم فى أعماقهم بهائم طيبة وليس عسيراً عليك أن تجعل أياً كان منهم ، يفتر ثغره عن ابتسامة طفل ، بل أنت تستطيع أن تحدث أيا شئت منهم ، فيصغى اليك فى ثقة صبيانية ، وأنت تتحدث عن العقل والسعادة والأعمال الكريمة . إن روح هؤلاء الناس الغريبة ، تحب كل مايجعلها تحلم بإمكان حياة رغيدة ، حياة تنظمها قوانين الإرادة الشخصية .

ولكنهم كانوا إذا اجتمعوا فى مجالس القرية أو فى المقهى . فى ليلة قاتمة ، أخفوا حيث لاأدرى كل مافيهم من خير و تلفعوا كما يلتفع الرهبان بثوب زائد منسوج من الأكاذيب والخداع .

إن عبوديتهم الكلبية للكبار تبدو وتتضح أحيانا فتشمئز من رؤيتهم نفس من يراهم ، وقد تستبد بهم فجأة وحشية ذئب من الذئاب فتصطك أسنانهم

ويتشاتمون شتائم وحشية ، ويستعدون للضرب ، بل هم يتضاربون فى الواقع ومن أجل ماذا ؟ من أجل شيء تافه حقير ، وهم فى مثل هذه اللحظات مخيفون بل هم قادرون على هدم الكنيسة التى يدخلونها فى المساء هادئين كأنهم غنم تعود إلى حظيرتها .

وشعراؤهم وقصاصوهم يعيشون بينهم فلا يحبهم أحد منهم. إنهم موضع سخريتهم اينما كانوا فتراهم يعيشون مهانين محتقرين منبوذين .

أنا لاأعرف بل أنا لاأستطيع أن أعيش بين هؤلاء الناس ، ولقد عرضت كل هذه الأفكار المرة على روماس حين افترقنا فلاحظ هذه الملاحظة وهو لى لائم:

ـ تلك أحكام لم تنضج :

ـ ولكن مالعمل إذا كنت قد انتهيت إليها .

ـ تلك أحكام جائرة لاأساس لها . ثم اجتهد طويلا ، وفى كلمات طيبة ، أن يقنعنى أنى مخطىء وانى مخدوع ، وقال :

ـ لاتعجل فى الحكم . إن الحكم سهل فلا تخدعنك سهولته ، لاحظ كل ماحواليك فى هدوء وضع نصب عينيك أن كل شيء يمضى ، كل شيء يسير فى اتجاه أرقى وأحسن وأسمى ، أتريد الأناة ؟ نعم الأناة المستمرة السائرة فى ثبات . أمتحن كل شيء والمس بيديك كل شيء ولا تخف ولا تعجل فى الحكم وإلى اللقاء ياصديق ...

والتقينا مرة أخرى بعد خمسة عشر عاماً ، فى سيدليتز ، وكان روماس قد نفى مرة اخرى فى قضية الديموقراطيين سنتين إلى مقاطعة الياقوت .

أرهقنى بعد رحيله سأم من رصاص فكنت أدور فى القرية كالكلب الصغير أضاع سيده وكنت أذهب مع بارينوف من قرية إلى قرية ، نشتغل عند الفلاحين الأغنياء ندرس الحنطة ، ونقلع البطاطا ، وننظف البساتين وكنت أسكن حمامات بارينوف .

قال لى مرة فى ليلة ماطرة :

ـ ياليكس مكسيمتش أيها القائد الذى لاجند له ، سنرحل غدا إلى البحر .

وماذا نصنع هنا يارب ؟ إنهم لايحبون أمثالنا من الناس وفى يوم من الأيام إذا سكروا ....

ولم تكن هذه هى المرة الاولى التى أسمع فيها حديثه هذا ، ولم أدر لم كان هو أيضاً كثير السأم ، كانت يداه تتدليان تدلياً طويلا كأنهما يدا قرد وعيناه تتطلعان إلى ماحوله ، فى حزن وأسى ، وكأنه إنسان تائه فى غابة .

المطر ينقر نافذة الحمامات ؛ وهناك سيل ينحدر من زاوية ، ثم ينصب فى المستنقع انصبابا ، وبروق العاصفة الاخيرة ؛ تلمع لمعانا خافتا وبارينوف يسألنى هامساً :

— سنسافر غداً ؟

وسافرنا

الفصل الرابع عشر

قابلت قبل كورولانكو ، كاتبين آخرين ، هما كورونين وستاروستين — مانانكوف . رأيت الأول فى قازان فقد لبث فيها بضعة أيام بعد عودته من منفاه ، وترك فى نفسى أثر ذلك الرجل الذى لايجد نفسه أبداً حيث يريد أن تكون .

— والخلاصة أن لافائدة من وجودى هاهنا .

هذه هى الكلمات التى استقبلتنى ، وأنا داخل إلى غرفة مظلمة فى بيت ذى دور واحد ، تحيط به ساحة وسخة تصنع فيها العجلات ؛ وانتصب فى وسطها رجل طويل القامة مقوس الظهر ، ينظر فى سماء المفكر إلى إطار ساعة كبيرة ، ويمسك بين أصبعيه سيجارة تنفث دخاناً كثيفاً . شرع يمشى ذات اليمين وذات الشمال على ساقين طويلتين ، وهو يجيب فى اختصار ، على الأسئلة التى يلقيها عليه رب المنزل ؛ وكانت نظرات عينيه الصافيتين صفاء طفليا تعبة مشغولة عما حوله ؛ وقد نبتت على خديه وفى ذقنه شعرات مختلفات الطول ، وعلى جمجمتـــه . ذات الزوايا ، شعرات فاحمات لم تغسل منذ زمن طويل ، وكانت يده اليسرى غاطسة فى جيب سرواله الممزق ، تلاعب وتران قطعاً من عملة نحاسية ويده اليمنى تحرك سيجارته كما يحرك رئيس فرقة موسيقية عصاه ؛ كان يعب الدخان ويسعل سعالا جافاً ، ولا يفتر عن النظر إلى ساعته ، وهو يمص ريقه مصاً حزيناً وكادت حركات هيكله العظمى المخلع تنادى أن هذا الرجل مرهق إرهاقاً مخيفاً .

دخل الغرفة ثمانية عشر طالباً وتلميذاً واحداً بعد واحد ؛ كانوا كلهم قاتمين كالحين ودخل معهم خباز وزجاج . قص علينا كورونين فى صوت أجش مسئول حياته فى المنفى . كان كأنه يتحدث إلى نفسه يقف وقفات قصيرة ، أو يجلس على طرف النافذة ، ثم يلتى حواليه نظرات لاتنظر إلى شىء . وكانت كوة الغرفة فوق رأسه مفتوحة والهواء الذى أشبعته رائحة التبن وبول الخيل ، يملأ الغرفة ويفعمها ؛

وشعرات رأسه تضج وتهتز ، فيمسها بيده الطويلة الجافة المتعظمة ثم يجيب على مايطرح عليه من أسئلة :

— هذا ممكن ، ولكنى لست متأكداً من أن ذلك كان كذلك ....لاأدرى.... ولا أستطيع أن أقرر هذا تماماً ....

لم يعجب كورونين هؤلاء الشبـــاب ، فقد تعودوا أن يستمعوا إلى أناس يعرفون كل شيء ، ويعرفون كيف يتحدثون عن كل شيء ، وقد أوحى إليهم حذره واحترامه فى قصته هذا المعنى الساخر فقالوا :

— إوزة غاضبة ....

ولكن رفيق أناطول الزجاج ، رأى أن الحزن الخفى فى عينى كورونين الطفليتين و«لاأدريته» التى لاتنقطع ، يمكن أن يفسر اغير هذا التفسير ويؤولا بخوف غير هذا الخوف . قال .

— إن الإنسان الذى يعرف الحيـــاة يخشى بل ويكره أن يغمر بالخطأ «الكلاب الصغار القاتمة(١)» إذا حدثها بأكثر مما يستطيع أن يحدثها به وهو مخلص صادق....

إننا أهل التجارب المباشرة ، مثلى ومثل اناطول ، نرتاب بعض الريبة فى أهل الكتب لأننا نحن نعرفهم تماما ، ونعرف أنهم يحاولون إذا كنا معهم ، أن يظهروا أمامنا أكثر جداً وأوفر رزانة مما هم عليه فى العادة .

وانتصف الليل ، فسكت كورونين بغتة ، ووقف منتصباً وسط الغرفة ، مغموراً بسحابة من دخان ، ثم مسح بيديه وجهه ، كأنه يغسله بماء لايرى ثم بحث فى منطقته عن ساعته ، فأخرجها فقربها من أنفه ، وقال مسرعاً :

— طيب إذن ..... يجب أن أذهب .. ابنتى مريضة .. مريضة جداً . الوداع

وبعد أن صافح بأصابعه الملتهبة الأيدى الممتدة إليه ، مصافحة قوية ، مضى وهو يتخلع . وشرعنا نتنازع ؛ أليس النزاع نتيجة محتمة لمثل هذه الأحاديث ؟

أما مانانكوف فعرفته فى بوريسو جليبسك ، من مقاطعة تامبوف . وكان موظفاً فى مكتب المراسلات فى سكة حديد غربا زى تسارتسين ، وكنت أنا

(١) الطلاب

حارساً فى محطة البضائع فيها .

كان ستاروستين ـ مانانكوف ضخم الجثة ربعة ، منتفخ الوجه أمعط ؛ تهب له عيناه اللتان لالون لهما ولا حياة فيهما سحنة الخصى ، مشيته ثقيلة ، وحركاته المترددة تزيد فى أوجه ذلك الشبه. كان جسمه المنهوك عرضة لمختلف الأمراض التى تزيدها أوهامه شدة ونضجاً .

كان يئن فلا ينقطع عن الأنين ، ويشتكى فلا ينى عن الشكوى ، ويسعل ويبصق فى كل صوب وجهة فى صندوق المكرونة الفارغ ، الذى يستعمله سلة مهملات ، وفى أوعية الأزهار التى تزين أطراف النوافذ ، وفى المرمدة او فى شكل أبسط وأيسر على الأرض ، من ناحية الباب . كان يبذل جهداً غير قليل ، ثم يبصق ثم يفحص النتيجة ، ثم يميل رأسه الأصلع فى حركة عصبية ويقول:

ـ فظيع ..... فظيع .....

رأيته ذات مساء ، فى غرفته الصغيرة ، ذات السرائر الحمر ، وقد صفت آنية الأزهار على أطراف النوافذ ، وفى زاوية من الزوايا قام تمثال القديسين الشهيدين: كيريك وأوليتا ، وكان جالساً وراء منضدته المرهقة بأكداس الأوراق المسودة وهو يشرب كؤوساً صغيرة من الفودكا ، ويأكل بعدها البصل ، ثم يشتكى وهو يصرخ صرخات حادات :

ـ إن كليب اوسبانسكى يسخر بالفلاحين . أما أنا فأكتب بدم قلبى: أنت أيها الرجل الذى تقرأ ، قل لى أين وفيم يختلف أوسبانسكى عن ليكين؟ ومع ذلك فإن أرقى المجلات تنشر له مايكتب أما أنا ...

كانت قصص ستاروستين تنشر فى صحف الأقاليم ، ومع ذلك فقد ظهرت له قصة أو قصتان فى صحيفة « ديلو » كما أعتقد ، وكان ستاروستين يحب أن يذكره الناس بهما ، فذكرته بهما .

وصرخ فى حزن خفت حدة الشكوى فيه .

ـ ولكن كم قصة كم قصة ؟ مع أنى لى ....

وترك كرسيه ومضى يحبو على أربع ، إلى السرير العريض ، وأخرج رزمة كبيرة ، ملفوفة فى قماش رمادى ، وضرب الرزمة بيده ، فأطار سحابة من الغبار ، ثم صرخ مختنقا

— انظر كل هذا مهيء ، معد ، لقد كتبته بنسخ قلمى .. نعم ، نعم بدمى ..

وتشنج وجهه وامتلأت عيناه بدموع سكير .

قرأ لى يوماً ، ولم يكن ثملا قصة كتبها حديثاً ، فيها أن فلاحاً أنقذ من الموت حرقاً ، حصان مفوض الشرطة ، وقد كان هذا المفوض نفسه قد كسر قبل ساعة من هذا الحادث سنين من أسنان هذا الفلاح البطل ، لأنه سرق معولا من المعاول وذكر المؤلف أن النار أحرقت الفلاح حروقاً خطيرة فنقل إلى المستشفى .

قرأ ستاروستين هذه القصة المؤثرة وبكى فرحا وهو يصرخ المرة بعد المرة :

— ما أجمل هذا ؛ ما أقوى الروح التى تنبض فيه نعم نعم يا ولدى ، نعم ، تعلم وأنت تستطلع خبايا النفوس .....

لقد ساءتنى هذه القصة مساءة كبرى ، ولكننى بكيت أنا أيضاً حين رأيت فرح المؤلف وحماسته ، إن إخلاصه فى عاطفته ، أوحى إلى عاطفة مخلصة صادقة قال :

— تعلم يا بنى . انت تنظم الشعر دائما ، ولكن الشعر عبث ، فدعه عنك ، فلن تكون أبداً ندسون ، لأنك لست من طينته وأنت ليس لك قلب . بل أنت إنسان فظ غليظ . تذكر أن بوشكين خان عبقريته الكبرى حين نظم الشعر . النثر هو الأدب الحقيق .. النثر المقدس

وقد كان هو نفسه فى عينى ، مجسداً لهذا النثر المقدس الذى يخنقنى دخانه الكريه

كنت فى ذلك العهد أقوم بحراسة إشارات الخطر ، والممرات ، واكوام الخشب من نهب قوزاق القرية المجاورة ، حالماً بأعمال بطولية ، وبأفراح صاخبة . قرأت هين وشكسبير ، ولكم حدث فى الليل وأنا أفكر بالواقع الذى يتفسخ حولى فى هدوء أن ظللت ساعات طويلة جالساً أو مستلقياً ، لا أفهم شيئاً ، كأن

ضربة عصا وقعت على أم رأسى فصعقتنى .

ولم يكن شبابى وضآلة ثقافتى يمنعانى من أن أشعر شعوراً قلقاً بما يمكن« للنثر المقدس » أن يوارى وراءه من حوادث عامية سطحية ، مرهقة ، ورأيت حولى مجموعة كبيرة من المثقفين تحوم حولهم كلهم شكوك وشبهات ، وأكثرهم عرفوا السجن والنفى والتشريد . كانوا يقرؤون كثيرا .. ويعرفون اللغات الأجنبية ، كانوا طلاباً مطرودين فى غالبهم . وكان فيهم ضباط فى البحرية وضابطان من الجيش البرى . وداعية مشهور عند المريدين فى منقطة الفولجا ، هو سلافانوف ، وكان منهم الصحفى ناتشانوف ، ومنهم واحد من الشعبيين فى كييف ، تخلص وشيكاً من حكم عليه بالنفى وكان اسمه مفروزى كوليش .

وقد أدخل هذه المجموعة التى تبلغ زهاء ستين شخصاً فى محطات مدن الفولجا ، رجل من رجال الأعمال يدعى م . ا . ادادوروف ، عرض على إدارة السكك الحديديه الاستفادة من كفاءات هؤلاء الأشخاص ، حتى تضع حداً لسرقات البضائع التى كثرت كثرة لاتكاد تصدق .

بدأ هؤلاء يقومون بأعمالهم ، فى حماسة ونشاط وفضحوا دنايا رؤساء المحطات ، ومدادى السكك ، والسواقين والعمال ، وافتخروا بما نجحوا فيه من تعقيبات .

وخيل إلى أنهم يستطيعون ، بل يجب عليهم أن يفرغوا إلى غير هذا العمل إلى عمل أكثر لياقة بكرامتهم ، وبكفاءاتهم ، وبماضيهم ، ولم أكن أفهم حتى ذلك الوقت فهماً واضحاً ان قد كان محرماً علينا فى روسيا أن نزرع « الحكمة والخير والخلود » (١) أحراراً طلقاء .

أما أنا الذى كنت أتردد بين الناس الابتدائيين فى المدينة ، وبين هؤلاء المثقفين . وهم من جنس نسيج وحده ، فكنت أميز تميزاً واضحاً ، ذلك البون الشاسع الذى يفصل بين الفريقين .

كانت المدينة كلها تعرف ولاشك أن هؤلاء «الأدادووفتيش » « سياسيون »

---

(١) بيت مشهور للشاعر نيكراسوف

من أولئك الذين يشنقون ، وكانت ترقب فى انتباه اعمال هؤلاء الذين تكرههم وتخافهم ، وكان مرعباً حقاً أن ترى نظرات هؤلاء السكان الخبيثة الحانقة عليهم ، الراغبة فى الثأر منهم . كانوا يكرهون الأدادوروفيتيش لأنهم يخافونهم كأعداء شخصيين فحسب ، ولكن لأنهم يرون فيهم أيضاً أعداء الإيمان والقيصر .

وكان بول كروكوف ، وهو حارس مثلى أعرفه ، يناقش نفسه فى صوت عال ، وهو جالس معى فى الحانة أمام زجاجة من الجعة :

— كيف يمكن استخدام هؤلاء الناس ؟ يجب أن ينفوا من الأرض نفياً ، إلى الجزر البعيدة والصحارى الخالية فيعيشوا فيها كما عاش روبنسون . وأحسن من ذلك كله ، أن يشنقوا جميعاً . لقد شنق منهم اثنان منذ سنتين فى بطرس (١)

وقد قرأ كروكوف كثيراً ، وكان يحب الجغرافية وأشعار جوكوفسكى وكان عنده عشرون كتاباً قيماً منها نسخة من كتاب قضايا أول آذار (مارس) (٢) طبعت فى الخارج .

أعطانى مرة هذا الكتاب سراً وقال :

— خذ واقرأ وانظر إليهم كيف هم ، ثم احذرهم

والحق أنه لم يكن هو وحده يفكر مثل هذا التفكير .

كل شىء فى هذه المدينة مشبع برائحة الشحم والصابون ، واللحم المتفسخ ، والعمدة يدعو القسس إلى إقامة الصلوات لتطرد الشياطين من آبار المدينة .

ومعلم المدرسة يضرب امرأته فى كل سبت عند الحمامات ، فتفر منه أحيانا عارية مترهلة اللحم ، وتركض فى البستان ، وهو يجرى خلفها ، وبيده قبضة من القضبان أما جيران المعلم فكانوا يدعون الناس إلى مشاهدة هذا المنظر من خلال ثقوب الجدار . وذهبت أنا أيضاً معهم لأنظر إلى النظارة ، فضربت الحارس وكدت أساق إلى دائرة الشرطة ، ولامنى أحد الحاضرين فقال :

— ولماذا غضبت أنت ؟ إن مثل هذا المنظر ليسلى كل انسان أيا كان . أما انت فلا نجد لك مثيلا حتى فى موسكو .

وكان مراقب السكة الحديدية يؤجرنى زاوية بروبل واحد فى الشهر ،

---

(١) بطرسبرج

(٢) قضية مصرع القيصر اسكندر الثانى (١٨٨١)

ويحاول فى إخلاص اقناعى أن اليهود كلهم ليسوا فقط نشالين بل إن كل واحد منهم خنثى يجمع بين الجنسين ـ الذكر والانثى ـ وكنت أناقشه فى هذا الموضوع الخطير . وذات ليلة جاء ومن ورائه امرأته وأخوه ، فاقترب من سريرى ،يريد أن يتحقق إن كنت يهودياً ، فاضطررت كى اتخلص منهم إلى كسر يد المراقب وتشويه وجه أخيه

وكانت طاهية مفوض الشرطة تضع فى الفطاير دم حيضها ثم تهديه إلى عامل ميكانيكى من أصدقائها ، ليأكلها فتوحى إليه الميل اليها والحب لها ، ووشت بها صديقتها إلى الميكانيكى ، وأخبرته بهذا السحر المخيف وهرع التعيس ، وقد تملكه الرعب ، يشكو إلى الطبيب أمره ويعلن له أن شيئا مايعتلج ويختلج ، ويضطرب فى بطنه . وسخر به الطبيب ولكن الميكانيكى عاد إلى بيتـــه فهبط إلى القبو وشنق نفسه .

وقصصت على «الأداد وروفيتيش» كل هذه الحوادث فكانوا يعتبرونها مضحكة مسلية ويضحكون لها من كل قلوبهم ، وأنا أعجب منهم كيف يضحكون .

ورأيت من بينهم أناساً نالوا اعجابى واحترامى لما فى أحـــكامهم من دقة ، ومعلوماتهم من تنوع ، ولإيمانهم بسلطان العقل...

وحدثنى أحدهم ،وهو طالب دينى ، من تومسك، يدعى بوجونوف، كان رجلا ضخماً كثيف الشعر ، فتى الوجه ، فى حماسة بالغة عن مذاهب القرون الأولى فى المسيحية ومللها ونحلها ، وساعدنى على قراءة سبنسر و« تاريخ العلوم الاستقرائية» لويفل .

ـ والخلاصة ياصاحبى أن العقل هو الذى يقرر كل شىء .إنه ذلك المخل الذى سيحول العالم كله مع الزمن .

وسألته عن نقطة ارتكاز هذا المخل فقال لى مقتنعاً .

ـ الشعب ، ثم أضاف فى تلطف :

ـ وأنت خاصة ، بل عقلك .

كنت أحبه حباً جماً وأثق به ثقة عمياء ، وقد انتحر ليلة عيد الميلاد بطلقة من مسدس فى حقل ، وترك لصديق له هذه البطاقة :

« ميتيا ، بع ماعندى وادفع ٧ روبلات و ٥٠ كوبكا إلى صاحب المنزل وارسل كتب ويفل الى بيشيكوف (١) مكسيمتش العظيم . ألا تذكره ؟ وارسل له سبنسر أيضا . الوداع يا ميتيا الوداع ...

« صديقك . أ . ب . »

وصلتنى هذه الكلمة وتلك الكتب ، فشعرت بسكين تذبحنى مبتدئة بقلبى ؛ وقد كان عسيراً على أن أقبل اختفاء رجل له مثل ذلك الفكر القوى الواضح .

تذكرت يوماً لنا فى الحانة ، وقد قدم إلى كأس جعة ، وقال لى ، وكاديدركه الخمار :

ـ أتدرى يامكسيمتش ماهى أجمل أغنية فى العالم ؟

وانحنى على المنضدة ثم نظر إلى فى عينى ، بعينى دب صالح زرقاوين ، وأنشد فى حزن ، وفى صوت أجش :

عند ما كنت صغيراً لم أكن شيئاً كبيرا
كنت أمضى لدروسى هكذا طفلا صغيرا (٢)

غنى وفاضت عيناه بالدموع ثم تابع :

ـ والله إنها لأغنية رائعة ، فيها بساطة بالغة وفيها كما ترى ذلك الحزن المضحك ! ثم ترجم إلى الروسية الأغنية ولم أدر ماالذى يثير مثل هذا العملاق صاحب مثل هذا الشعر الكثيف .

ولقد رأيت كثيراً من الناس بعد ذلك قتلهم هذا « الحزن المضحك » ...

كان لستاروستين خليلة ـ هى صاحبة منزله ـ امرأة ذات صدر يبلغ وزنه نصف قنطار ، لاتكاد عجيزتها تستطيع أن تستقر على كرسى ، وقد أهداها ، يوم عيدها ، مقعداً واسعاً من الجوز فهزتها الهدية هزاً عنيفاً ، وبعد أن

---

(١) اسم عائلة جوركي

(٢) بالفرنسية فى النص

طبعت على شفتى حبيبها الصـــادق ثلاث قبلات ، قالت وهى تخاطبنى :

ــ أرأيت أيها الشاب ؟ تعلم ممن هو أكبر منك ، كيف تدخل السرور على قلوب السيدات .

ووقف ستاروستين إلى جانبها ، تعلو ثغره ابتسامة سعيدة ، وهو يمسك بأصابعه شاربيه الأصهبين الناعمين كشاربى القط .

حدث ذلك فى يوم رائع من أواخر آذار (مارس) ، وعلى النوافذ كان النسرين يزدهر ازدهارا غزيراً ، ورقرقة المياه المرحة الربيعية تدخل إلى الغرف مع أريج الأزهار . فتختلط برائحة الأقراص والصابون والتبغ .

ومضت الأيام ، وأشرف ايلول (ابريل) على نهايته ، وسقت أمطار الخريف الأرض سقيا كريما ، وتشردت ريح صغيرة باردة فى الحقول المرهقة ، وتلونت الغابات بألوان رائعة ؛ إنه لفصل جميل ولكنه قل أن يلائم سفر المرء على قدميه ، ونعلاه ، ممزقتان مثقوبتان ...

كنت فى محطة البضائع فى موسكو ، أقوم بإقناع سائس ليدخلنى قاطرة من قاطرات البهائم ، وكان فيها ثمانى بقرات من تشيركاسى يقمن برحلة ، وهن راكبات ، إلى مسلخ « نيجنى » . وجدت فيها خمس بقرات طيبات السيرة حسنات السلوك ، ولا أدرى لم لم أحظ بإعجاب البقرات الثلاثة الباقية ، فقد كن ، طول الطريق ، يتعبقرن فى إزعاجى وإرهاقى ، فإذا نجحن كن ينفخن ، وينخرن راضيات مغتبطات .

أما السائق ، وهو رجل صغير ، سكير ، ذو ساقين غليظتين ، وشاربين متعبين فكان يكلفنى باطعام رفيقاتى فى الرحلة ، ويكوم عند كل موقف ، فى باب القاطرة ، أكواماً من البرسيم ويأمرنى قائلا :

ــ أطعمها .

وقضيت أربعاً وثلاثين ساعة مع البقرات ، وأنا أفكر تفكيراً صادقاً أن لن أجد ، ماحييت ، بهائم أشد فظاظة ، وأقسى قلباً منها .

وكان فى حجرى دفتر أشعار ، وقطعة جميلة من نثر وشعر عنوانها « أغنية الجوزة العجوز » . لم أكن قط مريضاً فى شعورى بما أنا له كفء ، وكنت فى ذلك

العهد أحس إحساساً تاماً بضآلة معلوماتى ، ولكنى كنت أعتقد فى إخلاص أنى كتبت مؤلفاً ثميناً ، ولقد وضعت فيه كل مافكرت فيه خلال عشر أعوام، من حياة كثيرة الحوادث قليلة الهدوء . وكنت مقتنعاً أن الإنسانية المتعلة ، إذا قرأت قطعتى هذه فستؤخذ بما فيها من جدة وطرافة ، وأن مافى قصتى من صدق سيدغدغ قلوب سكان الكرة الارضية جميعاً ، وأنى سأحيا رأساً بعدها ، حياة شريفـــة ، نقية ، مرحة ، ولم أكن أطلب سوى ذلك ، ولم يخطر فى بالى أكثر من ذلك .

كان كورونين يسكن نيجنى وكنت أزوره حيناً بعد حين ، ولكنى لم أجسر على تقديم مؤلفى الفلسفى إليه . كان نيقولا البيد يفوروفتش(٢) مريضاً ، يثير فيمن يراه عاطفة حارة من الإشفاق ، وكنت إذا رأيتـــه ، شعرت شعوراً لم يفارقنى طيلة عمرى ، أن هذا الإنسان يتابع فى عناد أليم فكرة ثابتـــة فى رأســـه .

كان يقول وهو يقذف من فتحتى أنفه موجات كثيفة من الدخان :

— قد يكون ذلك كذلك ...

ثم يتنهد تنهداً عميقاً ، ويضيف إلى ذلك قوله ، وهو يكثر عن أنيابه :

— وقد لايكون ذلك كذلك ...

وكانت خطبه تحدث فى نفسى ترددا قاسياً ، وخيل إلى أن هذا الرجل ، الذى كاد يتهدم ، يحق له ، بل ويجب عليه ، أن يتحدث حديثاً على غيرهذه الشاكلة ، أن يتحدث حديثاً أكثر وضوحاً ويقيناً ، كل هذا ، وكذلك حبى الصادق له ، دفعانى إلى أن تكون لى فى علاقاتى ببتروبافلوفسكى(١) شىء من الحذر الدقيق ، كنت أخاف أن ألمس فيه ناحية حساسة ، وكنت أخاف أن أحدث له الماً .

وكان يلاحظ ، فى انتباه شديد ، الحركة التولوستية بين المثقفين ، ويساعد على تنظيم المستعمرات فى ولاية سمبرسك ، وقد وصف فى إحدى قصصه «مستعمرة

١ — اسم كورونين

٢ — اسم كورونين المستعار

الذوات ، إخفاق هذا المشروع ذلك الاخفاق السريع .

نصح لى مرة فقال :

— حاول أنت أيضاً أن تعود إلى الأرض ، فقد تلائمك ...

ولكن التجارب القتالة لهواة احتقار الجسد وتعذيبه ، لم تكن ترضينى أبدا

نعم ، كنت أعرف أن فى نيجنى ب . ج . كورولانكو ، وقد قرأت له « حلم ماكار » ولم تعجبنى ، ولست أدرى لم كان ذلك . وكنت أعرف حياة الكاتب من أحاديث روماس عنه ، فقد عاشا معاً فى المنفى فى إركوتسك . ولكن روماس إذا كان يستطيع إلى حد بعيد ، أن يصور الأفكار تصويراً يكاد يكون مجسداً ملموساً ، فقد كان يتحدث عن الناس فى أسف وفى جفاء وفى أثارة من كره البشر . كانت الأفكار فى عينيه مخلوقات تكاد تكون حقيقية خالدة ، بينما كان الإنسان عنده تجريداً طارئاً وكفى ، وعلى الرغم من أن هذه المجردات الملتحية ذات القدمين ، كانت فى شخوص فلاحى كراسنوفيدوف ، تحاول بكل الوسائل أن تجعل حياته مستحيلة ، فان ذلك كله لم يؤثر فى شىء من عواطفه نحو البشر ، إلا فى بعض استثناءات نادرة ، كان ينظر إليهم دائماً كأنهم شىء زائد فوق سطح هذه الكرة الأرضية .

كنت مرة أسير مع صديق لى فى الشارع ، فى يوم ماطر ، فقال لى غامزاً :

— كورولانكو !

ومشى على الرصيف فى قدم ثابتة ، رجل بدين قصير ، عريض المنكبين ، يلبس معطفاً مانعاً ، ورأيت لحية مجعدة تخرج من تحت مظلة مبللة .

ذكرنى هذا الرجل بتجار البهائم فى تامبوف ، وعندى أسباب قوية تدفعنى إلى كره الناس الذين هم من هذا الجنس ، ومن أجل ذلك لم أشعر بأية رغبة تدفعنى إلى معرفة كورولانكو ولم توقظ هذه الرغبة كذلك تلك النصيحة التى أسداها إلى يوماً قائد الدرك العام . وهنا أقف لأذكر مغامرة مسلية تصور جانباً من الحياة الروسية الغريبة :

ألقى القبض على قبل أن أقابل كورولانكو ، وكان الجنرال بوزنانسكى يضرب بيده القرمزية المنتفخة الأوراق التى وجدت عندى ويقول لى ، وهو ينفخ:

ـ أرى أنك تنظم الشعر ، وبصورة عامة .... حسناً ، انظم ... قصائد جيدة ... ماألذ قراءتها ...

على أن اللذة التى أحسست بها حقاهى أن أجد مثل هذا الجنرال قابلا لبعض الفضائل ، ولم أكن أحسب أن صفة « جيدة » يمكن أن توصف بها أشعارى ، ومن المؤكد فى ذلك العهد أن كل المثقفين كانوا لايوافقون الجنرال على رأيه فى الشعر .

وتحدث ا. ا. سفيدير تسيف ، وهو ضابط فى الحرس ، ومنفى قديم ، حديثاً طيباً عن الشعبيين وخاصة عن فيرا فيجنر ، وكان هذا الضابط أديباً نشر قصصه فى مجلات كبرى ، وهو يجيد ثلاثة لغات ، وقد قرأت له مرة بيت فوفانوف «ماذا تقول لى؟ أنا لم أسمع» ، فضرب الأرض بقدمه غاضباً وقال :

ـ ألفاظ ، ولم لم تسأله عن الساعة ؟ أما ذلك الأبله فسعيد .

ولنعد إلى الجنرال . كان قوى البنية يلبس صداراً بنياً ، نزعت أزراره ، وسروالا أسمر ذا عصابة ، وسخاً مهترئاً ، وكان وجهه منتفخاً عليه شعرات بيض تلونه أوردة قرمزية ، ورأيت عينيه نديتين مضطربتين ، لهما نظرة حزينة تعبة ، وبدا لى منبوذاً يثير الرحمة ، ولكنه لطيف ، وأما سحنته فكانت سحنة كلب عجوز من عرق طيب ، لاينبح قط إلا فى تعب وسأم .

وقد عرفت من ملخص الدعاوى عند محام شهير ، أن فى حياة هذا الجنرال مأساة ، وعرفت أن ابنته ضاربة على البيان ذات نبوغ ، وأنه هو نفسه حشاش . وكان مؤسس « الجمعية الفنية » ورئيسها فى نيجنى ، يناقش فى اجتماعاتها أهمية الصناعة الخفيفة ، وقد افتتح فى شارع المدينة الرئيسى ، مخزناً تباع فيه منتجات أصحاب الحرف الصغار فى المقاطعة ، وكان يرسل إلى بطرسبرج تقارير ضد « رجال زيستفوك » وضد كورولانكو . وضد الحاكم فارنوف ـ الذى كان يحب هو أيضاً تسطير التقارير .

كل ماحول الجنرال قذر ، وعلى مقعده النحاسى ووراء منضدته تمتد أغطية سرير عتيقة ، ويخرج من تحت الديوان حذاء وسخ وقطعه كبيرة من الرخام الأبيض

وهناك عند النوافذ ، أوان تنبت فيها أنواع كثيرة من الازهار من بنفسج وفل ونرجس ، وفى زاوية من الحجرة منضدة كبيرة تتراكم عليها أدوات الطبيعه ، وعلى منضدة أخرى أمامى ، كتاب كبير بالفرنسية عن نظريات الكهرباء وكتب لسيتشنوف « ردود الدماغ » .

كان الشيخ يدخن دون انقطاع لفائف كبيرة قصيرة أزعجنى دخانها الكثيف وأوحى إلى هذه الفكرة المضحكة وهى أن التبغ مشبع بالمورفين .

قال لى فى لهجة لوم :

ـ أثورى أنت ؟ رغم أنك لست يهوديا ولا بولونياً ، اسمع إنك تنظم الشعر ، فإذا اطلقت سراحك فاعرض مخطوطاتك على كورولانكو . أتعرفه؟ كلا ؟ إنه كاتب كبير لايقل شأنا عن تورجنيف .

كان الجنرال يرسل رائحة ثقيلة خانقة ، لاأعرفها ، ولم يكن يريد الكلام بل كان ينتزع حديثه كلمة كلمة فى كسل وصعوبة ، وضجرت ، فتطلعت إلى المنضدة فرأيت عليها زجاجة صغيرة فيها شارات معدنية مصفوفة .

ولاحظ الجنرال نظراتى ، فقام ثقيلا وسألنى :

ـ أتريد أن تراها ؟

وقرب كرسيه من العلبة ثم فتحها وقال :

ـ إنها أوسمة تخلد ذكرى حوادث التاريخ وأبطاله ، هذا سقوط الباستيل وهذا انتصار نلسون فى أبى قير ، أتعرف تاريخ فرنسا ؟ وهذا هو الاتحاد السويسرى . وهذا كالفانى الشهير ، أنظر ماأحسن صنعه . أما ذلك فكوفيه ، ولكنه أقل جودة .

وكانت نظراته تهتز فوق أنفه القرمزى ، وعيناه الرطبتان تتحمسان وتنشطان ، وأصابعه الكبيرة تداعب الأوسمة فى رفق كأنها ليست من برونز بل من زجاج ناعم .

وقال متمتما :

ـ فن جميل ، ثم فتح شفتيه ونفخ الغبار عن الأوسمة .

وقد أعجبت وتأثرت تأثراً صادقاً بجمال هذه الشارات ، ورأيت أن العجوز

يحبها فى حنان . وأغلق العلبة وهو يتنهد ، وسألنى إن كنت أحب الطيور المغردة وكنت عرفت ، أكثر من ثلاثة جنرالات ، حدثونى جميعاً عن هذا الموضوع ، فقامت بيننا مناقشة من أكثر المناقشات حياة وحماسة .

ونادى الجنرال دركيا ليقودنى إلى السجن . وعلى الباب قام منتصباً حارس شديد البأس ، بينما كان الجنرال يقول لى آسفاً :

— أتعلم أننى لم أستطع شراء صداح ؟ وهو كما تعلم عصفور ممتاز . والخلاصة ما أعجب هذا الشعب ، شعب العصافير . أليس كذلك ؟ حسناً ، مع السلامة . آه نعم ، — وكان كمن تذكر — يجب أن تتعلم وأن تكتب . . . واترك ماعدا ذلـــك . . .

وبعد أيام كنت أيضاً جالساً عند هذا الجنرال ، وكان يتوعدنى غاضباً :

— أنت تعرف ولا شك أن سوموف قد سافر . يجب أن تقر وتعترف ، وإذا اعترفت أطلقت سراحك حالا . لاتسخر بالضابط الذى يفتش بيتك . . وبصورة عامة . . .

ولكنه فجأة مال إلى ، وسألنى فى لهجة إنسان وصل به الصلاح إلى درجة الضعـــف . . .

— قل لى ألست تصيد العصافير فى هذه الأيام ؟

ومضى على هذه العلاقة المضحكة بالجنرال اثنا عشر عاماً وجلست أيضاً فى مركز درك نيجنى أنتظر استنطاقى . واقترب منى ضابط شاب من ضبـــاط الاتصال وسألنى :

— أتتذكر الجنرال بوزنانسكى ؟ هو والدى وقد توفى فى تومسك . كان كثير الاهتمام بك ، يتتبع نجاحك الأدبى ، ويقول دائماً إنه هو أول من اكتشف نبوغك ، وقد سألنى قبل أن يموت ، أن أهديك الأوسمة التى أعجبتك . فأذا شئت . . .

الحق أنى تأثرت تأثراً صادقاً مخلصاً . وعندى خروجى من السجن أخذت الأوسمة وأهديتها إلى متحف نيجنى . . .

الفصل الخامس عشر

لم تنلنى الخدمة العسكرية . فقد صرح طبيب ضخم مرح يشبه الجزار ، ويتحرك كما يتحرك هذا فى المسلخ ، قال :

ـــ ردىء . رئته مخروقة . وريد ساقه متمدد ، غير صالح .

وقد صعقت لهذا حقا ؛ ذلك أنى قبل أن أدعى إلى الجندية عرفت ضابطاً طوبوغرافياً ، يدعى باسكين ، أو باسخالوف ، لاأذكر أيهما هو تماما ، وكان قد اشترك فى معركة كوشكا ، فوصف لى وصفاً جذاباً حياته فى جبهة أفغانستان ! وكان عليه أن يسافر فى الربيع القادم ، إلى بامير ليشترك فى تخطيط الحدود الروسية كان كبير الجسم ، قوى العضلات ، ثائر الأعصاب ، يرسم فى مهارة كبرى بريشة ناعمة لوحات صغيرة مسلية رسماً زيتيا ، ويمثل صوراً من الحياة العسكرية ، على طريقة فيدوتوف . وكنت أحس فيه شيئاً من عدم الانسجام ومن التناقض ، أو على الصحيح شيئاً غير طبيعى . وكان يحضنى على الدخول فى شعبة الطوبوغرافيا .

ـــ سآخذك معى إلى بامير . وسترى أجمل مافى العالم : الصحراء . إن الجبل هو الفوضى ، أما الصحراء فهى الأنسجام .

وكان يغمز بعينيه الكبيرتين الشهلاوين اللتين تتشرد نظراتهما تشرداً غريباً ، ويتحدث حديثاً سحرياً عن جمال الصحراء فى صوت رقيق لطيف ؛ يخفت حتى يتحول إلى تمتمة ، وكنت أصغى اليه وقد أخرست وبهت ، أعجب كيف يستطيع الناس أن يتحدثوا فى مثل هذا الإعجاب ، عن الفراغ : عن رمال لاشاطىء لها ، وصمت لاتحركه نأمة وسماء تحترق ، ومسافر يقتله الظمأ .

عرف أنى رفضت فقال لى :

ـــ لا بأس عليك ، قـــدم طلباً تصرح فيه أنك تريد الانتساب ، متطوعاً ،

إلى شعبة الطوبوغرافيا وتتعهد بقضاء الامتحانات المطلوبة .

كتبت الطلب وأرسلتـــه ، وانتظرت النتيجة. وأنا أتنفض ارتقاباً وانتظاراً.

جاءنى باسخالوف بعد أيام مضطرباً قلقاً يقول :

— يظهر أنك متهم سياسياً .

ثم أطرق وقال :

— وكيف ساغ لك أن تكتم عنى هذا الأمر ؟

وأجبته أنى لاأعرف أكثر مما يعرف هو عن هذا « الأمر » وخيل إلى أنه لم يصدقنى . سافر بعد قليل ؛ وقرأت صباح عيد الميلاد فى صحيفة من صحف موسكو ، أنه حز حلقه بموسى فى الحمام .

وتتابعت حياتى معقدة صعبة ، فاشتغلت فى مستودع للجعة ؛ أدحرج البراميل فى قبورطب ، وأغسل الزجاجات واختمها . وكان هذا العمل يمتص أيامى كلها ، ثم دخلت فى مكتب معمل من معامل الفودكا ، ولكن كلب زوجة المدير وهو إنكليزى — أى المدير — انقض على فى اليوم الأول ، فضربته على أم رأسه ، ضربة قضت عليه ، فطردت من عملى رأساً ؛ وأخيرا قررت أن أطلع كورولانكو على نشيدى ، وفى يوم عصيب كان رابع أيام ثلاثة استمرت فيها العاصفة الثلجية ، فتراكم الثلج فى الشوارع وغطى السطوح بقبعات من الفضة ، وسترز جاج النوافذ بستائر بيض ، وسطعت فى السماء المبيضة أنوار تعشى العين ترسلها شمس حادة متجمدة ، فى هذا اليوم قررت تنفيذ قرارى .

كان فلاديمير جالا كتيونوفيتش يسكن ضاحية المدينة ، فى الدور الثانى من بيت خشبى ، ورأيت على الرصيف أمام السلم رجلا ضخما ، قصيراً يحرك فى مهارة رفشاً عريضاً ، وعلى رأسه قبعة من الفرو تغطى أذنيه ، وهو يرتدى معطفاً قصيراً رديئاً ، لايتجاوز الركبتين وينتعل حذاء من جلد فيانكا .

وشققت لنفسى بين الثلج طريقا الى السلم .

— من تريد ؟

— كورولانكو .

ـ أنا هو .

ونظرت إلى ، من خلال ذقن مجعدة يكسوها الثلج ، عينان طيبتان زرقاوان، وكان طبيعياً أن لاأعرف كورولانكو فأنا لم أروجهه حين صادفته من قبل فى الشارع ؛ واعتمد على رفشه وأصغى إلى فى صمت وأنا أقص عليه الدوافع التى دفعتنى إلى زيارته ، ثم أغمض قليلا عينيه كمن يبحث عن أمر يحاول أن يتذكره وقال :

ـ أعرف اسمك . ألم يكتب إلى عنك ، منذ سنتين ، رجل يدعى روماس ميخائيل انطوفيتش ؟ نعم . . . . . تذكرت ..

وسألنى وهو يصعد السلم :

ـ أما تحس بالبرد ؟ أرى ثيابك خفيفة جدا . ثم قال فى صوت خافت ، كأنما يتحدث إلى نفسه :

ـ إن روماس لرجل عنيد روسى صغير ذكى ، أين هو الآن؟ فى فيانكا ؟ ها ها..

ودخلنا غرفة صغيرة على شكل زاوية ، تطل نوافذها على بستان ، فيها مقعدان اثنان ، وخزائن للكتب وكراسى ثلاثة ، فقال لى وهو يخفف لحيته المبللة بمنديله ويتصفح مخطوطى الضخم :

ـ سنقرأه... خطك غريب . يظهر لمن يراه بسيطاً واضحاً ولكن قراءته صعبة.

ووضع المخطوط على ركبته ، والقى على الأوراق وعلى نظرات مائلة ، وشعرت بارتباك .

ـ كتبت هنا مصير إنها ..... هفوة قلم ؛ وهى صرير .

ولقد أفهمتنى وقفته القصيرة قبل كلمة ـ هفوة ـ أن كورولانكو يستطيع أن يراعى كرامة من حوله .

ـ كتب لى روماس أن الفلاحين حاولوا نسفه ثم أضرموا النار فى بيته . هل هذا صحيح ؟ وهل كنت معه فى ذلك العهد ؟

كان يتكلم وهو يتصفح المخطوط .

ـ يجب أن لاتستعمل الكلمات الأجنبية ، إلا إذا لم يكن لك منها مناص.

وخير لك أن تتجنبها دائماً ، فاللغة الروسية غنية غنى كافياً ، وفيها ينابيع قادرة على التعبير عن الإحساسات المختلفة وعن الفروق الدقيقة فى الأفكار .

قال ذلك عرضاً وهو لايزال يسألنى عن روماس وعن الريف .

ثم قال لى بغتة .

— ماأقسى وجهك ! وسألنى وهو يبتسم — أترى الحياة عسيرة عليك ؟

كان كلامه العذب يختلف اختلافا بيناً عن لهجة الفولجا القاسية ، ذات الواو المشددة . ومع ذلك فقد رأيت أنه يشبه بحارة هذا النهر شبها لايبدو فى بنيته القوية وصدره العريض ولا فى نظرته الخبيثة التى تشع من عينين ذكيتين فحسب ، بل فى هذه الوداعة الهادئة الخاصة بأولئك الرجال الذين يرون الحياة تجرى كما يجرى النهر الأعوج بين الرمال والمغاور .

— إنك تجيز لنفسك غالباً تعبيرات جافية يظهر أنك تراها قوية . وقد يقع هذا أحياناً .

وأجبته أنى أدرك ميلى الى الجفاء ولكن ليس لى الزملن الذى أستطيع فيه أن أنال ثروة من الكلمات العذبة الرقيقة ، والعواطف الحلوة . وليس لى كذلك المكان الذى أستطيع أن أدركها فيه .

ونظر إلى فى انتباه ، وتابع فى عذوبة .

— تقول : لقد خلقت كى لاأستسلم لأنه كذلك ... لأنه كذلك .. أرأيت أن فى هذه الجملة دورانا غير جميل ولا ماهر ؟ أتشعر بذلك ؟

سمعت كل هذا لأول مرة وشعرت تماماً بصواب هذه الملاحظات .

وكان فى نشيدى إنسان يتدلى على خرائب معبد فقال كورولانكو وهو يبتسم

— هذا المكان لا يلائم هذا الوضع . ثم لاحظ « هفوة وهفوة وهفوة » صعقتنى كثرتها . فاحمر وجهى ، فكأنه قطعة من جمر ملتهب . ورأى كورولانكو ماحل بى ، فحدثنى وهو يبتسم عن أغلاط كليب أوسبانسكى ؛ وقد كان ذلك كرماً منه ، ولكننى كنت لاأسمع شيئاً ولا أعى شيئاً ، ولم يكن لى إلا أمل واحد هو الفرار ، فقد كفانى مالقيت من خجل . ألا يعرف الناس أن المتأدبين والممثلين

يحبون ذاتهم كما تحب الكلاب الصغيرة نفسها ؟

مضيت ، وقضيت عدة أيام ، أقاسى ضغطاً فكرياً أسود. رأيت فى كورولانكو كاتباً لايشبه فى شىء كورونين المحبوب غير المتوازن ، أما ستاروستين المضحك فلا داعى للحديث عنه ، ورأيت كذلك أن ليس من صلة تصل بينه وبين سفيد انتسوف ايفانوفيتش السوداوى ، مؤلف تلك القصص الثقيلة الذى قال لى ذات مرة :

— يجب أن تقع القصة على روح القارىء وقع العصا على الجسد حتى يشعر شعوراً تاماً أنه حيوان وأى حيوان .

أما كورولانكو فقد كان هواه هواى ، وكان أول من حدثنى حديثاً متوازناً إنسانياً ، عن أهمية الشكل والصورة ، وعن جمال الجملة والعبارة ولقد أخذت بما فيه من صدق بسيط وأدهشنى أن الصدق قريب تناوله وشعرت ، وأنا أصغى إليه ، شعوراً خاطفاً بأن الكتابة ليست عملا هيناً يسيراً .

مكثت معه ساعتين أو أكثر فحدثنى عن أشياء كثيرة ولم يقل لى كلمة واحدة عن موضوع نشيدى .

وعرفت عند ذلك ، أنى لن أسمع فى هذه الناحية شيئاً طيباً .

وبعد خمسة عشر يوماً حمل الى . أ . و . دياجين مخطوطى ، وكان دياجين أشقر جميلا ذكيا ، فقال لى جازما :

— يرى كورولانكو أنه قد أفزعك . ويقول إن لك مواهب ولكن يجب أن تكتب كتابة طبيعية لاتتفلسف فيها ، ثم إن لك لتهكماً ، وإن كان شديداً بعض الشدة ، ولكنه حسن . أما شعرك فهذيان . وقرأت على غلاف المخطوط « من العسير ، إذا نظرنا الى « أغنيتك » أن نحكم على استعداداتك ، ولكن لك استعدادات فيما يظهر . اكتب موضوعاً عشته أنت شخصياً ، وأطلعنى عليه إذا ما كتبته ، وأنا لاأستطيع اكتناء الشعر . وقد بدت لى أبياتك غير مفهومة ، على الرغم من أن بعضها قوى ملون » .

ولم أجد كلمة واحدة عن صميم القصيدة ، و « أعماقها » فماذا قرأ منها هذا الرجل الغريب ؟

سقطت ورقتان من المخطوط على الأرض، فيهما قصيدتان، أما أولاهما فعنوانها: «ماقاله الجبل لمن يستيقظ» وأما الثانية فعنوانها «حديث الشيطان والدولاب» ولست أتذكر تماما موضوع حديثهما، ولعله عما فى الحياة من دوران، متواتر رتيب، ولست أذكر كذلك ماقاله الجبل لمن يهب من نومه. مزقت القصيدتين ومزقت المخطوط وألقيت بها كلها فى الموقد المشتعل وجلست على الارض أفكر فى معنى قوله «اكتب ماعشته».

إن كل مافى الموقد من الأغنية عشته أنا شخصياً، أما القصيدتان فقد سقطتا سهواً فى المخطوط، وكانتا أعمق ماأسره وأخفيه، ولم أطلع عليهما أحداً، وكنت أنا لا أفهمهما فهما كاملا.

رأيت أصدقائى يفضلون على بوشكين، وعلى قصائد فوفانوف أيضاً، ترجمات كوبى، وريشبان، وغيرها من القصائد من هذا الطراز، وكان ترجمها لبخاتشيف وباريكوفا ورأيتهم يعتبرون نيكراسيف ملك الشعر وكان الشباب يعجبون بندسون أما الكهول فكانوا يقرون به متجوزين.

كان أصدقائى يعتبرونى رجلا جاداً غير عابث، ويحدثنى أفاضلهم، ممن أحترم، مرتين فى الأسبوع عن أهمية الصناعة الصغيرة وعن مطالب الشعب وواجبات المثقفين وعن عدوى الرأسمالية التى لن تصيب روسيا الفلاحة الاشتراكية

أما الآن وبعد هذا الحادث فماذا سيكون؟ سيعرف الناس أجمعون أنى أنا الذى كتبت تلك الأشعار الهاذية، ولكم خشيت أن يغير هؤلاء من رأيهم الطيب فى، فقررت أن لا أكتب شعراً، وأن لا أكتب نثراً، والواقع أنى لم أكتب شيئاً خلال إقامتى كلها فى نيجنى، وقد امتدت سنتين كاملتين. وهكذا حملت إلى النار المطهرة ثمرة تجاربى وقدمتها قرباناً لها وأنا عليها جد آسف وحزين.

الفصل السادس عشر

سهرت ليلة من ليالى الصيف على ضفاف الفولجا ، أنظر إلى السهول القاحلة وراء النهر ، وأرمق مجراه من خلال الأغصان ، كان كورلانكو جالساً على مقعد بالقرب منى ، لا أراه ولا أسمعه ، ولم أحس به إلا عندما دفعنى بمنكبى وهو يقول:

ــ هيه . أى حلم أنت غارق فيه ؟ لقد أردت أن أسلبك قبعتك ، ثم خشيت أن أرعبك .

كان يسكن بيتاً بعيداً عن هذا المكان ، فى الجانب الآخر من المدينة ، والساعة الآن قد جاوزت الثانية صباحاً ، كان جالساً منهوك القوى ، وهو يمسح وجهه بمنديله ، ورأسه ذو الشعر الأجعد حاسر .

ــ أفى مثل هذه الساعة تتنزه ؟

ــ أتشركنى فى العمل ، وتفردنى بالتعجب ؟

ــ ذلك ما كنت أبغى ، لقد تأخرنا كلانا فى نزهتنا . وكيف حالك ؟ وماذا تصنع ؟

وبعد جمل كثيرة لا معنى لها سألنى :

ــ قيل لى إنك عضو فى منظمة بافل سكفورتسوف . فما رأيك فيه ؟

كان ب . ن. سكفورتسوف فى ذلك العهد ، أحد من يعرف نظرية ماركس معرفة جيدة ، ولم يكن يقرأ إلا « الرأسمال » وكان بذلك فخوراً . وقبل سنتين تقريباً ، من نشر كتاب ب. ف . ستروفى « ملاحظات انتقادية » ألقى سكفورتسوف فى قاعة المحامى تشيجلوف بحثاً يذكر فيه مثل آراء ستروفى ، ولكنها كانت أكثر حدة وأوفر جرأة .

وقد جعله هذا المقال هرطقياً ، ومع ذلك فلم يحل هذا بينه وبين أن يضم حواليه حلقة من الشباب لعب كثير منهم فيما بعد دوراً ممتازاً فى تشكيل الحزب الاشتراكى ــ الديمقراطى .

كان حقاً إنساناً ، ليس من هذا العالم ، زاهداً متقشفاً يتنزه شتاء وصيفاً ، وهو يرتدى معطفاً خفيفاً ، ويلبس حذاء منقوباً ، ويأكل أكلا لم يشبعه قط ، ومع ذلك فقد كان منهمكا أيضاً فى « القضاء على شهواته » فبقى بضعة أسابيع وغذاؤه السكر وحده بمعدل ١٠٠ جرام فى اليوم ، لا أكثر ولا أقل . ولقد أدت هذه التجربة الغذائية الاقتصادية المقننة إلى إنهاك قواه العضوية العامة وإلى إصابته بمرض خطير فى الكبد .

كان قصير القامة أشهب ، فى عينيه الزرقاوين ابتسامة ذلك الانسان المختار الذى يعرف الحقيقة التى لا ترد ، فى كل سعتها وامتدادها فيما يتصل بكل موجود ماعداه . كان يعامل كل الهراطقة ، فى كره خفيف ناعم ، ليس فيه أثارة من احتقار . وكان يدخن لفافات غليظة يزرعها فى حامل طوله قدم ، يحمله كالخنجر فى منطقته .

رأيته بين عصبة من الطلاب يغازلون مغازلة مشتركة ، فتاة نادرة الجمال ، قدمت المدينة من قريب ، وكان سكفورتسوف ينافس الشبان الظرفاء الرشيقين ، فيدور هو أيضا حول الفتاة ، رماديا أغبر ، كالدخان الخانق الذى حوله ، وفى فمه لفافته الطويلة . كان ذلك مضحكاً جليل الإضحاك ، وقف صاحبنا فى زاوية أمام الموقد الأبيض ، ينشر فى نظام وهدوء ، وفى لهجة الانفصالى الموقن وفى كلمات رصينة ، آراءه فى إنكار الشعر ، والموسيقى ، والتمثيل والرقص ، وكان ينفث الدخان على الفتاة دون انقطاع .

— قال سقراط : إن الانحرافات مضرة .

وبدت له هذه الوثيقة صحيحة ، لا يأتيها الباطل ، من بين يديها ولا من خلفها ، ولقد أصغت اليه الفتاة الرشيقة ، ذات الشعر الكستنائى ، والثوب الأبيض الموصلى وهى تؤرجح عابثة قدمها الصغيرة ، وتثبت على الفيلسوف ، فى لطف مصطنع ، نظرة عينيها الشهلاوين الرائعتين ، هذه النظرة التى كانت فتيات أثينا الجميلات يلقينها من قبل على سقراط الحكيم ذى الأنف الأفطس . وكانت نظرتها تقول له خرساء ولكنها فصيحة :

— متى تنتهى ؟ متى تروح ؟

أما هو فظل يثبت لها أن كورولانكو أشد المثاليين والمتافيزيقيين خطراً ، وأن كل الأدب — وكان لا يقرؤه — يجتهد فى رد الحياة إلى جثة الشعبية المتفسخة ، وأخيراً أعاد إلى منطقته حامل لفائفه ومضى ناعساً ، وقد شيعته الفتاة ثم استلقت على المقعد محطمة — وفى كثير من الدلال طبعاً — وصرخت شاكية:

— يا إلهى . ولكنه ليس رجلا ، إنه يوم من أيام المطر .

أصغى كورولانكو إلى مبتسما ، وظل زمناً صامتاً ينظر إلى النهر ، وهو يغمض عينيه ، ثم شرع يقول فى صوت خافت وفى صداقة :

— لاتعجل فى اختيار عقائدك ، ولقد قلت اختيار العقائد ، لأنى أرى الناس اليوم لايصنعونها ، ولكنهم ولاشك يختارونها . وهكذا أصبحت المادية طرازاً حديثاً فى سرعة ، فهى تغرى ببساطتها ، وتجتذب خاصة أولئك الذين فيهم كسل التفكير بأنفسهم ، ولقد تقبلها الأغرار متطوعين ، وهم الذين يغريهم كل جديد ، وإن كان لايلائم طبائعهم وأذواقهم ونزعاتهم .

وظل يتكلم مفكراً كأنه يحدث نفسه ، ويقطع أحياناً حديثه . فيصغى إلى صفارة تدوى فى مكان ماهناك على الشاطىء ، أو إلى مجاذيف زورق تضرب الماء أو إلى بوق يرن على النهر ، ثم قال :

— إن كل محاولة معقولة فى تفسير حوادث الحياة ، تستحق الانتباه والاحترام ، ولكن يجب أن لاتنسى أن الحياة تتألف من أقواس لاتحصى متشابكة تشابكاً عجيباً ، متقاطعة تقاطعاً غريباً ، وأن الصعوبة كل الصعوبة قائمة فى حصرها فى مربع المنشآت المنطقية .

ثم قال وهو ينهد ويروح بقبعته :

— عسير عليك أن تضع هذه الأقواس المتقاطعة فى أعمال الناس وعلاقاتهم ضمن نظام من الأنظمة مهما كان هذا الوضع نسبياً .

ولقد رضيت ببساطة حديثه ، ولهجته العذبة المتأملة ، أما كل مايتعلق بصميم الموضوع ، مما ذكر عن الماركسية ، فقد كنت طالما سمعته ، وإن اختلفت على صور

التعابير. وسكت كورولانكو فسألته مسرعاً : من أين له هذا الهدوء وهذا المرح المستمر المتساوى ؟

وأعاد قبعته إلى رأسه ، ثم حدق فى وجهى وأجاب مبتسماً :

ـــ أنا أعرف مايجب على أن أقوم به ، وأنا مقتنع بفائدة ماأقوم به ، ولم تسألنى هذا السؤال ؟

وشاركته عندئذ فى شكوكى وفيما يقلقنى ، فابتعد عنى ، ثم انحنى على ليرانى تماماً ويتفرس بى ، وأصغى الى فى صمت منتبه ، ثم قال فى رفق :

ـــ ذلك حق . وملاحظاتك صحيحة .

ثم ابتسم ووضع يده على كتفى وقال :

ـــ كنت أظن أن مثل هذه القضايا لاتشتغل بالك ولا تقلقك ، ولقد حدثونى عنك كرجل ذى طبع ... مرح ، هجومى قليلا ، يكره المثقفين ....

وعندئذ حدثنى عن المثقفين فى قوة خاصة . إنهم كانوا فى كل زمان ، وفى كل مكان منفصلين عن الشعب ، وذلك لأنهم يمشون أمامه ـــ فإن ذلك كان دورهم التاريخى :

ـــ إنهم خميرة كل تخمر شعبى ، وهم حجر الأساس فى كل صرح جديد : سقراط ، جيودارنو برونو ، جاليلى ، روبسبير ، أصحابنا من الدسمبريين ، بيروفسكايا جوليابوف ، وكل أولئك الذين لايزالون يتحملون آلام الجوع فى المنفى ، وكل أولئك الذين لايزالون ، هذه الساعة من الليل ، ساهدين ساهرين ، يدرسون ويطالعون ، استعداداً للنضال فى سبيل العدالة ، وكل أولئك الذين ينتظرون السجون ، أولئك هم أعظم قوة حية فى الحياة ، وأولئك هم أشد أسلحتها إحساساً ومضاء .

وكان قد نهض ثم مضى رائحاً غادياً أمام المقعد ، وتابع هائجاً .

ـــ لقد بدأت الإنسانية تخلق تاريخها فى اليوم الذى ظهر فيه أول مثقف ، فأسطورة بروميتيه هى تاريخ الإنسان الذى عرف إيقاد النار ، ففصم عندئذ ، بضربة واحدة ، بين الإنسان والحيوان . لقد أدركت إدراكاً صحيحاً أخطاء

المثقفين وما فيهم من كتبية وتخلع جذور . ولكن المهم أن نعرف إذا كانت هذه الأخطاء أخطاء حقيقية، إنا نضطر أحياناً لكى نرى جيداً إلى أن نبتعد عما ننظر إليه لا إلى أن نقترب منه واستمع إلى ، فقد جربت الدنيا أكثر منك ، أنصحك نصيحة صديق : زد فى انتباهك إلى حسنات الناس وتجاوز عن عيوبهم فتعداد عيوب الناس لذيذ كثير الإغراء . إن فولتير ، على عبقريته ، كان إنساناً شريراً ، ومع ذلك فقد قام بمهمة عظمى فدافع عن رجل اتهم ، وحكم عليه جوراً وظلماً . لست أتحدث عن تلك الاحكام السابقة المظلمة ، التى هدمها ، ولكنى أتحدث عن ذلك الدفاع العنيد عن قضية نفض الناس أيديهم يأسا منها ، نعم إن ذلك عمل خطير: لقد فهم أن الإنسان يجب أن يكون قبل كل شىء إنساناً ، وأن العدالة ضرورية له ، وأنها ستتجمع وتتراكم شراراتها شيئاً فشيئاً وستتحول إلى نار عظيمة تحرق كل ماعلى الأرض من كذب ووحل ، وعند ذلك فقط سنرى تحول مافى الحياة ، من تكاليف قاسية حزينة مخجلة . يجب أن نعمل فى عناد ، دون أن نوفر شيئاً أو شخصاً ، على إشباع الحياة بالعدالة — هذا ماأفكر فيه وأذهب إليه .

وبدا عليه التعب ، فقد تكلم مدة طويلة ، فجلس على المقعد ، ينظر إلى السماء ويقول :

— ماأدرى إن كنا مصبحين ، أو ممسين ، فالأفق منير . والسماء تنذرنا بالمطر فيما أرى ، لقد آن لنا أن نعود

وكنت أسكن على بعد خطوتين ويسكن هو على بعد فرسخين ، فعرضت عليه أن أرافقه ومضينا فى شوارع المدينة النائمة تحت سماء قاتمة الغيوم.

— ولكن ! هل تكتب ؟

— كلا .

— ولماذا ؟

— لاوقت عندى .

— تلك إذن مصيبة ، ومع ذلك فأنت مخطىء لو أردت لخلقت الزمن .

أنا أرى حقاً أن لك استعدادات .... ولكن جسمك شاذ ، ياسيدى ...

ثم شرع يتحدث عن كليب أوسبانسكى الذى لا يني ولا يفتر ، وداهمنا غيث صيفى غزير ، غطى المدينة ، بشبكة قاتمة ،فالتجأنا إلى بوابة نحتمى فيها ثم رأينا أن المطر سيمتد ويطول فافترقنا . سافرت إلى تفليس ثم عدت منها إلى نيجنى وكان كورولانكو فى بطرسبرج ؛ وكنت عاطلا عن العمل فكتبت بضع قصص صغيرة ، أرسلتها إلى « بريد الفولجا » لصاحبها ريبهاردت وكانت فى هذا العهد أكثر جرائد المقاطعة أهمية بفضل اشتراك كورولانكو المنظم فيها . ووقعت القصص بالحرفين — م . ج ، وقد نشرت سريعاً . وأرسل إلى ريبهاردت كتاب ثناء ومبلغاً كبيراً من المال ، لا يقل عن ثلاثين روبلا ، ولقد حرصت على إخفاء وضعى الجديد ككاتب حرصاً شديداً حتى عن أقرب أصدقائى إلى مثل أ . ز . فاسيليف و أ . ا . لابين وذلك لأسباب لاأتذكرها اليوم .

لم أكن أعلق على هذه القصص كبير أهمية ، ولم أدر أنها هى التى ستقرر مصيرى وقد ذكر ريبهاردت اسمى إلى كورولانكو وقيل لى حين عاد من بطرسبرج ، إنه يريد أن يرانى .

كان لايزال يسكن فى آخر المدينة ، وفى نفس البيت الخشبى ، ووجدته جالساً أمام مائدة الشاى ، فى الغرفة الصغيرة ، التى غصت بالكتب والجرائد ، وأطلت نوافذها التى تكسوها الأزهار على الشارع .

كانت امرأته وأولاده ، قد انتهوا جميعاً من شرب الشاى ،واستعدوا للخروج إلى النزهة وظهر لى كورولانكو أكثر قوة من ذى قبل ، وأكثر ثقة بنفسه ، وأكثر تجعداً .

— الان انتهينا من قراءة قصتك — « كنار » .إذن فقد بدأت الصحف تنشر لك .تهانى لك ولكن ماأشد عنادك ، إنك ماتزال تؤثر التعريض والرمز وهما جيدان إن كان فيهما ذكاء ، كما أن العناد ليس أمراً مكروها .

ثم قالى لى كلمات طيبة ، وهو ينظر إلى فى عطف ، وعيناه يكاد يغمضهما ، ورأيت لفحة الصيف قد لوحت جبهته وعنقه ، وأزالت لون لحيته . وكان يلبس

قميصاً من القطن الأزرق ، وحزاماً من النحاس وسروالا أسود يختفي فى حذائه ، وخيل إلى أنه آت من بعيد ، وأنه يريد أن يعود إلى البعيد . وعيناه الهادئتان الذكيتان ، تسطعان حذرتين مرحتين .

قلت له إنى كتبت قصصاً أخرى ، وإن إحداهما نشرت فى جريدة « القوقاز »

— ألا تحمل معك مانقرأ ؟ تلك إذن خسارة . إنك لتكتب كتابة ذات طابع جد شخصى ، ولا يقوم أمامك قائم ، كل شيء فيك محصور ، ولكنه طلعة ، يقال إنك طالما تنقلت على قدميك ، وأنا أيضاً قمت بنزهاتى ، طيلة فصل الصيف فى الشاطىء الآخر من الفولجا . وأنت أين كنت ؟

حدثته فى اختصار عن رحلاتى ، فصرخ موافقاً مسروراً :

— إذن فقد طوفت فى الآفاق ، لذلك فقد أصبحت فى خلال هذه السنوات الثلاث أقوى أيداً وأشد رجولة .

قرأت له قبل أن أزوره رواية « النهر اللاعب » فأعجبنى جمالها وموضوعها كثيراً ، فحدثته فى حماسة عنها ، وأنا مفعم بفضل مؤلفها على .

كانت شخصية تولين التى أبدعها كورولانكو ، مثالا لفلاح روسيا الكبير ، فهم حق الفهم وأدى خير الأداء ، وهو بطل ساعة واحدة . إن مثل هذا الرجل يستطيع فى سهولة وبساطة أن يقوم بعمل كريم ، ثم هو بعد قليل ، يضرب امرأته حتى يغادرها بين الموت والحياة ، ويكسر رأس جاره بفأسه ، إنه قادر على أن يسحر لبك بابتساماته الطيبة ، وبألف كلمة وكلمة تنبثق من القلب ، زاهية كالازهار ، ثم هو فجأة ، وبدون سبب ، يمشى على وجهك بقدميه الوحلتين ، إنه قادر مثل قدرة لوسيامينين على تنظيم حركة شعبية رائعة ثم تراه يستهتر فى الخمرة ويسلم نفسه فريسة للقمل .

أصغى إلى كورولانكو ، ولم يقاطع حديثى الذى جعلته نظراته مضطرباً ملجلجاً ، كان يغمض عينيه حيناً ، وينقر على المكتب أحياناً ثم نهض واستند إلى الجدار ، وقال لى وهو يبتسم فى عطف وحب :

— لقد بالغت ، ولنقل كلمة أبسط من كل ذلك ، لنقل إن الرواية ناجحة

وذلك يكفى . أنا لا أخفى عليك أنها تعجبنى . نعم إنها ناجحة . ولكن أحق أن الفلاح ، بصورة عامة ، مثل تولين ؟ ذلك مالا أعرفه . ولكن حديثك طيب فيه تموجات وألوان والتفاتات متينة . اسمع أرد إليك ماكلت لى من مديح . أشعر أنك قرأت كثيراً وتأملت كثيراً ، وأنا أهنئك بذلك من أعماق قلبى .

ومد إلى يداً جعلها المنشار والفأس شثنة قاسية ،فقد كان يحب تكسير الحطب، فصافحنى ثم قال لى :

— حدثنى عن مشاهداتك .

وحدثته ، فيما حدثته، عن لقائى لكثير من الباحثين عن الحقيقة . إنهم يطوفون مئات ومئات من مدينة إلى مدينة ، ومن دير إلى دير فى الطرقات الروسية، فقال كورولانكو ، وهو ينظر إلى ماوراء النافذة ، فى لهجة مفكرة غارقة فى التفكير :

— إنهم فى غالبهم جبريون ، وأبطال مخفقون يحبون أنفسهم حباً سحرياً ، ولقد لاحظت أنهم كلهم أو أكثرهم رجال خبثاء ، لايبحثون قط عن « الحقيقة المقدسة » ، ولكن عن كسرة سهلة من الخبز ،وعن إنسان يستغلونه ويستثمرونه.

ولقد صعقتنى فجأة هذه الكلمات الهادئة المتأملة ،التى كشفت لى عن حقيقة كنت أحس بها إحساساً غامضاً مشوشاً .

— إن بينهم قصاصين ممتازين ، لغتهم غنية خصبة ، وبعضهم يتحدث فكأنما يطرز ثوباً من حرير .

لقد كان هؤلاء « الباحثون عن الحقيقة » و « حجاج المدينة الفاضلة المستقبلة » أبطال الأدب الشعبى المقدمين ؛ وهاهو كورولانكو يتهمهم بأنهم جبريون وأنهم كذلك رجال خبثاء . ولقد أخذت هذه الكلمات، التى تكاد تكون تنبؤات خارقة ، فى فم كورولانكو لهجة حازمة مفكرة ، فزادت فى شعورى بالتضامن الأخلاقى الذى يوحيه إلى .

— وهل زرت فولينى وبودولى ؟ إن تلك الأرجاء رائعة .

وحدثته عن جان دوكرونستادت ، فصرخ فى لهفة :

ـــ وما رأيك فيه ؟ وكيف تراه ؟

ـــ هو مؤمن مخلص مثل الكثيرين من القساوسة الجهلاء فى الريف ، نبيل وطيب . ويخيل إلى أن شهرته تخيفه ، وتثقل عليه ، وأنها أطول منه . وإنك لتحس فيها أنها كانت عرضاً واتفاقاً ، وأنها لاتتعلق بإرادته الشخصية . وهو لايفتر عن سؤال ربه : أكذلك يارب ؟ وهو يخشى دائماً أن لا يكون ذلك كذلك .

وقال كورولانكو مفكراً :

ـــ كل ذلك غريب :

ثم حدثنى هو عن محاوراته للفلاحين فى لزكيابوف ومقاطعات كيرجينيتس فى تهكم نافذ ، وكان يستطيع أن يستخرج من تعابير محدثيه ، خليطاً مضحكاً من الجهل والحياة ، وألح فى مهارة على ذوق الفلاح السليم وعلى حذره من الغرباء .

ثم قال :

ـــ أرى أحياناً أن ليس فى العالم حياة عقلية أكثر تنوعاً من حياتنا نحن هنا فى روسيا . وإذا لم يكن ذلك حقاً فإن فيها ، على كل حال ، تنوعاً لانهاية له فى طبائع الناس المؤمنين ، والمفكرين ، الذين نعيش بين ظهرانيهم .

وتحدث فى رصانة وتفكير ، عن ضرورة دراسة الحياة العقلية فى الريف دراسة جديدة ، ثم قال :

ـــ إن علم أحوال الشعوب « الاتنوجرافيا » لايكفى لمعرفتها ، فيجب أن نقاربها مقاربة أعمق وأدنى . والريف هو الأرض التى يجب أن نبذر فى تربتها فى مهارة ونشاط بذور « الحكمة والصلاح والخلود » . كان لى فى هذا الصيف حوار بينى وبين شاب ليس أبداً غبياً ، ولكنه كان يريد جاداً إقناعى بأن هجرة الفلاحين من القرية ظاهرة من ظواهر التقدم . فالهجرة تنمى الرأسمال ، وزعم كذلك أن روسيا ستصبح فى المستقبل دولة رأسمالية .

وضحك وهو يشيعنى ، وتمنى لى مرة أخرى نجاحاً طيباً فسألته :

ـــ إذن فأنت ترى أنى أستطيع الكتابة ؟

فصرخ فى شىء من الدهشة :

— ولكن ذلك مؤكد ، بل إنك كتبت ونشرت فعلا ، وماذا تريد أكثر من ذلك ؟ تعال واطلب إلى نصائحى ، واحمل إلى مخطوطاتك نتحدث عنها .

وخرجت من لدنه مرحاً خفيفاً ، خفة إنسان سبح فى ماء غدير باردفى غابة ، بعد نهار قائظ مرهق .

أوحى إلى كورولانكو ، شعوراً راسخاً من الاحترام ، ولاأدرى لم لم أحس بشىء من الميل اليه ، وكنت لهذا متألماً ، ولعل ذلك عائد إلى أن الحماة والمرشدين كانوا يثقلون على بعض الثقل ، وكنت شديد الرغبة فى التخلص منهم ، وفى لقاء إنسان يتحدث إلى ، وأتحدث إليه ، فى بساطة أخوية ، عما يعتلج فى نفسى . كنت إذا حملت إلى الأساتذة نسيج مشاعرى الشخصية قاسوه ، وفصلوه ، وخاطوه على مايرون من طراز ، ومن تقاليد ، تتفق مع مقاييس السياسة والفلسفة اللتين كانوا هم خياطيها ومفصليها . وشعرت أن من المستحيل عليهم أن يخيطوا أو أن يفصلوا على شكل آخر . وأنهم من أجل ذلك يخرقون نسيجى .

حملت إلى كورولانكو بعد خمسة عشر يوماً مخطوط رواية « الصياد والحورية » وقصة « الشيخة ازيجيل » ولم أجده فى بيته ، فتركتهما له ، وجاءنى بعد ذلك كتاب منه ، يقول لى فيه : « تعال مساء نتحدث . ك »

واستقبلنى على السلم والفأس فى يده . وقال لى وهو يحرك فأسه :

— لاتظن أنها هى سلاح النقد . كلا ، لقد كنت أصنع رفوفاً فى سقيفة ، ومع ذلك فإن نوعاً من قطع الأعناق فى انتظارك .

كان وجهه يلمع بالمرح ، وعيناه تملأهما بسمة طروب ، وكان كالفلاحة الروسية الطيبة التى تتمتع بالعافية تفوح منه رائحة رغيف طازج خرج حديثاً من التنور . قال :

— لقد كتبت طيلة ليلتى هذه ثم نمت بعد طعام الإفطار . فلما استيقظت شعرت بأن على أن أشغل نفسى قليلا .

كان لايشبه فى شىء ذلك الرجل الذى رأيته منذ خمسة عشر يوما . لم أشعر

قط فيه بالأستاذ ولا بالمعلم بل وجدت أمامى رجلا طيباً صديقاً لكل مافى الوجود.
تناول من على المنضدة مخطوطاتى ، وضرب بها ركبته وقال :
ــ قرأت روايتك ولو أنها كتبتها آنسة طالعت كثيراً أشعار موسيه والتى ترجمتها تلك الشيخة الطيبة ميسوسكايا أيضاً ، لقلت لهذه الفتاة الظريفة :
« لابأس يا آنستى ولكن تزوجى » ولكن الغريب أن شيطاناً كبيراً مثلك يكتب هذه الأشعار الرقيقة . ذلك شىء فظيع ، بل هو اكثر من ذلك ، إنه جريمة ، ومتى بضت هذه الرواية ياصاحبى ؟
ــ كتبتها فى تفليس .
ــ وجدت فيها روح التشاؤم فاعلم ياصاحبى ، أن التشاؤم فى الحب مرض من كان فى مثل سنك ، وهو أكثر النظريات مخالفة للواقع العملى . إننا نعرفكم يامعاشر المتشائمين ، ولقد سمعنا أخباركم ... ثم غمز بعينيه غمزة خبيثة وضحك وقال جاداً غير عابث :
ــ لايمكن أن ننشر من هذه المجموعة إلا قصيدة « الصياد والحورية » فهى قصيدة فذة وسننشرها . أما « الشيخة » فهى أحسن منها كتابة وأكثر منها جداً ولكنها أيضاً رمز وتعريض . والتعريضات لاتجدى شيئاً . ألم تكن أنت فى السجن ؟ وإذن ، فستعود اليه . ثم فكر وهو يتصفح المخطوط وقال :
ــ كتابك هذا كتاب غريب ، وهو من صميم الرومانطيقية . ولكنها ماتت منذ أمد بعيد وأنا أشك كثيراً فى أن يكون لازار هذا أهلا للبعث والنشور . يخيل إلى أنك لاتغنى بصوتك وأنك لاترسل نفسك على سجيتها . أنت واقعى لارومانطيقى . أجل أنت واقعى . وجدت مقطعاً ، تذكر فيه ذلك البولونى ، ورأيت أنه بارز الشخصية بروزاً خاصاً ، ألست ترى ذلك معى ؟
ــ هذا ممكن .
ــ آه ، آه ، أرأيت ؟ لقد قلت لك ذلك . نحن لانعرفك إلا قليلا . ولكن ماهو شخصى أمر لانستطيع له قبولا . يجب أن تنقذ نفسك منه ، وأعنى بالشخصى ماكان كذلك بمعناه الضيق !

وتحدث حديثاً غزيراً وهو مغتبط مرح . كانت عيناه تلتمعان لمعاناً عظيماً وكنت أنظر إليه فى دهش متزايد كأنى أراه للمرة الأولى ، ثم ألقى كورولانكو المخطوط على المنضدة ، واقترب منى ، ووضع يده على ركبتى .

— اسمع : أتريد أن أتحدث إليك حديثاً أكثر بساطة ويسراً ؟ إذن . خذ عنى ما أقول لك : أنا اعرفك معرفة قليلة ، ولقد سمعت الناس يتحدثون عنك كثيراً ، ولاحظت أنا نفسى غير قليل من الأمور . إن حياتك شاقة ولست أنت فى المكان الذى يليق بك . وفى رأيى أن عليك أن تغادر هذه البلاد ، أو أن تتزوج فتاة طيبة وغير حمقاء .

— ولكنى متزوج .

— ومن هنا جاء الشر !

وقلت له أنى لا أستطيع مقاربة هذا الموضوع ، فقال :

— إذن فمعذرة .

وشرع يمزح ، ثم سألنى بغتة سؤال مشغول :

— آه أسمعت مايشاع من أن روماس قد ألقى القبض عليه ؟ أذلك منذ زمن بعيد ؟ أنا لم أسمع بذلك إلا أمس . أين ؟ فى سمولنسك ! وماذا كان يصنع فيها ؟

والحق أنه قد وجدت ، فى منزل روماس ، مطبعة صحيفة (الدمقراطيين) التى أسسها ، وقال كورولانكو مفكراً :

— إنه لرجل نشيط . وسينفى من جديد ! وكيف صحته ؟ هو من أشد الفلاحين بأساً وأصلبهم عوداً ،

ثم تنهد وهز منكبيه العريضين :

— كلا ، كل ذلك غير صحيح ، وهو لن يؤدى إلى شىء . ولقد كانت قضية استيروف درساً لنا وعظة . إنها تعلمنا مايلى : قم بعمل غامض ، بعمل شرعى وانقطع إلى العمل التربوى فى كل يوم . إن الارستقراطية ضرس مريضة ، ولكنها قوية ، جذورها راسخة عميقة ، وجيلنا الحاضر لن يقلع هذه الضرس ، فيجب قبل كل شىء ، أن يزعزع أركانها .

وألح طويلا على هذه النقطة . فشعرت أنه يتحدث عن موضوع يملك عليك لبه .

وعادت زوجته أفدونيا سومونوفنا ، من النزهة وسمعت ضجة الأطفال فاستأذنته ، وانصرفت مسرور الفؤاد .

يعرف كل الناس أن من عاش فى القرية ، فكأنما يعيش فوق كرة من زجاج شفاف ، فالناس يحيطون علماً بكل مايتعلق بك ، ويعرفون مافكرت به يوم الأربعاء فى الساعة الثانية ، ويوم السبت عند العصر ،وهم يعلمون حق العلم مراميك الخفية ويغضبون غضباً شديداً إذا لم تبرر تخميناتهم وافتراضاتهم .

ومن الواضح أن كل المدينة ، عرفت رعاية كورولانكو لى ، وكان حقاً على أن أقاسى عدداً كبيراً من مثل هذه النصائح :

ــ احترس ، فستشوه هذه العصابة من « العقل » تفكيرك ...

وهم بذلك يشيرون إلى قصة ذائعة الصيت ، عنوانها « لقد عقل » كتبها بوبوريكين وذكر فيها ثورياً اشترك فى عمل جماعة « زيمستفوس » الشرعى ، وأضاع ، على أثر ذلك ، مظلته ، وهجرته امرأته . وقيل أيضاً :

ــ إنك ديمقراطى ،وأنت من أبناء الشعب وليس لك ماتتعلمه من الجنرالات.

شعرت منذ زمن طويل أن الشعب كان كالرابة (١) على ، وأن عباد الشعب كانوا أيضا فى مثل هذا الوضع ، وذكرت لهم ذلك . فصرخوا بى:

ــ أرأيت ؟ لقد شوهوا تفكيرك منذ اليوم ...

دعيت إلى حفلة عيد صغيرة ، عند ظلاب التجهيز فى ياروسلاف . وبينما أنا أتلو عليهم مالا أذكر ، صبوا فى كأس الجعة ، التى كنت أشربها جرعاً من الفودكا،وهم يجتهدون فى إخفاء ذلك على.،وعرفت عبثهم وفهمت أنهم يريدون إثارة عصابى ، دون أن يكشفوا عن غايتهم . وهتف بى واحد منهم ، كثير الإعجاب بنفسه ، مسلول :

ــ ألق فى جهنم ؛ الأفكار والمثل الأعلى ، وكل هذه الأوشال المختلطة ، ثم اكتب فى بساطة . ولتسقط الأفكار ...

وقد أرهقتنى كل هذه النصائح حقاً .

---

(١) امرأة الأب

كان كورولانكو كما يكون كل إنسان مشهور، عرضة لمناورات سكان المدينة، فبعضهم يقدرون له اهتمامه بغيره، ويجتهدون فى دعوة الكاتب ليتدخل فى أمورهم الشخصية البسيطة، وبعضهم يوافقون على ذلك وهم يدسون. ولم يكن أصدقائى ممن يستحسنون قصصه وقالوا لى :

— بل إن كورولانكو لايؤمن بالله .

ولم أدر لم غاظتهم قصة « وراء الصورة المقدسة » خاصة، ورأوا أنها من علم أحوال الشعوب لا أكثر من ذلك ولا أقل .

— إنها من يا كوشكين .

وأكدوا أن سجية البطل، وكان حذاء، مسروقة من رواية أوسبانسكى « أخلاق شارع راستيريافا » .

وخلاصة القول أن هؤلاء النقاد، ذكرونى براهب من فورونيج، أصغى إلى قصة مفصلة عن رحلة ميكلوخا - ميكلى، ثم سأل مرتبكاً مدمدماً :

— عفواً ... تقولون إنه جاء إلى روسيا بزنجى، ولكن أخبرونى لم جاء بزنجى أولا ؟ ولم جاء بزنجى واحد ثانياً ؟

الفصل السابع عشر

عدت ذات صباح جميل من نزهة لى فى الحقول قضيت فيها ليلى كله فصادفت كورولانكو عند باب منزله فسألنى مستغربا :

ــ أين كنت ؟ أما أنا فأريد أن أقوم بنزهة ، وحبذا لو رافقتنى

كان هو أيضاً لم ينم ليلته ، فقد ظهرت فى عينيه الحمراوين الجافتين نظرة متعبة ، وكانت لحيته وثيابه مشعثة غير منظمة .

ــ قرأت فى صحيفة « ابن الفولجا » قصتك « الجد أرخيب » ، وهى لا بأس بها ، وكان من الممكن أن تنشر فى مجلة ؛ لم لم تعرضها على قبل نشرها؟ ولم لا تزورنى؟

وأجبته أنى طلبت البعد عنه ، منذ تلك الحادثة ، التى أقرضنى فيها ثلاثة روبلات ، فقد ناولنيها وهو لاينبث ببنت شفة ، وقد أدار لى ظهره . أصمتنى هذه الاهانة وطالما كان عسيراً على أن أستدين ، وكنت لاأبلغ هذه الغاية إلا عند ضرورة مطلقة .

فكر كورولانكو ، ثم قال ، وهو يفرك حاجبيه :

ــ لاأتذكر هذه الحادثة ، ولكنها وقعت حقاً مادمت أنت الذى تخبرنى بها . وعلى كل حال ، فأرجو أن تغض الطرف عن ذلك الاهمال ، فما أظن أنى كنت عندما ارتكبته ، طيب النفس ، وذلك أمر أقع فيه كثيرا فى هذه الأيام الأواخر ، فترانى بغتة أشرع فى التفكير كأنى ترديت فى إعماق بئر ، فلا أرى شيئاً ولا أسمع شيئاً ، ومع ذلك فأنا أصغى إلى شىء لاأعرفه ولا أتبينه ، وفى كثير من الجهد والعناء .

وتأبط ذراعى ثم حدق فى عينى :

ــ دع مامضى عنك ، ولا تكونن ممن يعنى بالشكليات . أنا ميال إليك . وليس مما يضرك أن تلقى إهانة أو جراحة ، فنحن قليلا مانحس ، وذلك شىء

غير محمود . إذن فقد نسينا مامضى ؛ فاسمع ماأريد أن أقول لك . إنك تكتب كثيراً وفى سرعة . وكثيراً ماأشعر فى قصصك بشىء من الإهمال وعدم الوضوح فى « أرخيب » مثلا وجدت وصفك البطر شعراً ونثراً ، وصفاً غير موقع ولا متناسق ، وهذا مالا أرضاه .

وحدثنى حديثاً طويلا ومفصلا عن قصصى الأخرى ، ورأيت فى وضوح أنه كان يقرأ ، فى انتباه شديد ، كل ماأنشر . ولا حاجة بى إلى القول إن ذلك أثر بى تأثيراً عنيفا .

وقال لى مجيباً على شكرى :

— يجب أن يعين بعضنا بعضاً ، فنحن قليلون ، ونحن كلنا بائسون .

وخفض صوته ثم سألنى :

— أحق مايقال من أن آنسة تدعى ايستومين قداشتركت فى قضية نانانسون ورومانس وأصحابهما ؟

كنت أعرف هذه الفتاة ، فقد أنقذتها من الفوجا ، وكانت قد ألقت بنفسها فيه ناكسة على رأسها من مؤخرة زورق ، وكان إنقاذها يسيراً جداً على فقد حاولت الغرق فى مكان قليل الغور . وكانت فتاة لالون لها ولا ذكاء ، فيها استعداد للهستريا ، وحب مرضى للكذب ؛ وأظن أنها أصبحت بعد ذلك مدرسة عند ستولوبين فى ساراتوف ، ثم قتلت هى وغيرها بالقنبلة التى نسف بها البلاشفة قصر الوزير فى جزيرة « الصيادلة » .

وأصغى كورولانكو إلى حديثى ، ثم قال غاضباً :

— إن إشراك مثل هؤلاء الأطفال فى مثل هذه الحوادث الخطرة جريمة من الجرائم ، لقد صادفت هذه الفتاة منذ أربع سنوات تقريباً ، ورأيتها كما وصفت ، فهى فتاة لطيفة ، أقلقها مافى الحياة من ظلم واضح ، وكان من الممكن أن تغدو مدرسة ناجحة فى الريف ويقال إنها ثرثرت عند الاستنطاق ؛ ولكن ماذا تستطيع أن تعرف هذه الفتاة ؟ كلا ، إنى لاأقبل ولا أوافق أبداً على أن يضحى بالأطفال على مسرح السياسة .

ثم أسرع خطاه ، وكنت مصاباً بالروماتزم فسرت وراءه ، وأنا أعرج .

— مابك ؟

— روماتزم .

— سرعان ماأصابك هذا الداء . أرى أنك كنت كثير الجور على هذه الفتاة . وعلى كل حال فأنت قصاص ماهر . اسمع : حاول أن تكتب أشياء أكثر أهمية لتنشر فى مجلة ، فقد آن لك . ستنشر ماتكتب فى المجلات ، وستكون كما أرجو ، أكثر جداً ، أليس كذلك ؟

لست أذكر مثل حديثه فى هذا الصباح سحراً ولطفاً ، ونحن نمشى فى حقل بلله يومان لم ينقطع فيهما الغيث .

وجلسنا أمداً طويلا على ضفة مستنقع قريب من مقبرة اليهود ، نعجب بلآلىء الندى على الأعشاب وعلى أوراق الأشجار ، وقص على نوع الحياة المبكية المضحكة ، التى يحياها اليهود فى المنطقـــة الحرام ، وكانت ظلال التعب تكبر وتتسع حول عينيه .

وبلغت الساعة التاسعة ، فعدنا إلى المدينة ، وودعنى وهو يقول :

— إذن فستحاول تأليف قصة كبرى .

وبدأت فور عودتى إلى منزلى فى تأليف رواية « تشيلكاش » وهى تاريخ متشرد فى أوديسا ، وكان جارى فى مستشفى نيقولاييف ، وقد كتبتها فى يومين وأرسلت المسودة إلى كورولانكو .

وبعد أيام أعاد كورولانكو جماعة من الفلاحين كان أساء إليهم من أشتغل عنده فهربوا وتشردوا ، ثم ، هنأنى فى عاطفة صادقة ، هو وحده قادر عليها :

— لابأس لابأس بما كتبت ، بل إنها قصة جيدة تماماً .... يجرى فيها نفس واحد .. ثم أخجلتنى مدائحه :

وجلس عند المساء فى مكتبه ، وقال لى فى حرارة :

— لابأس لابأس . إنك قادر على خلق الطبائع ، وأشخاصك يتكلمون ويتحركون من أنفسهم ، بحركتهم الشخصية الخاصة ، وأنت قادر على تجنب التدخل

فى تلاعب عواطفهم وخيوط تفكيرهم ، ولقد طلب الناس ذلك طويلا فلم يدركوه وأدركته أنت ؛ وشىء آخر خير مما مر ، هو أنك تقدر كل إنسان حق قدره ؛ وأنت تعلم أنى طالما قلت لك إنك واقعى .

وفكر لحظة ثم أضاف :

— وأنت أيضاً فى الوقت ذاته رومانطيقى ... وشىء آخر: أنت هنا منذ ربع ساعة ، وهذه هى لفافتك الرابعة .

— أنا شديد الارتباك ...

— ولماذا ؟ وليس هنالك مايستدعى ذلك ؛ ثم أنت دائماً قليل النشاط ، ومن أجل ذلك يقال عنك إنك تشرب وتسرف فى الشراب . إن لك كثيرا من العظام ، وقليلا من اللحم ، وأنت تدخن فى غير فائدة وفى غير سرور . ولم ذلك كله ؟

— لاأدرى

— وأنت تسرف فى الشراب كما يقولون ؟

— هذا خطأ .

— وأنت مستهتر .

ضحك وهو ينظر إلى ، ثم حدثنى عن حوادث تتعلق بى كانت كلها مشوهة تشويها غير قليل ، ثم قال :

— إذا مشى إنسان فى طريقه قدماً ، ضربه الناس على أم رأسه ، فى كل مناسبة ، هذه حكمة جاء بها طالب من الطلاب ولكن دع عنك هذا كله ، فسننشر « تشيلكاش » فى « روسكو بوكاستفو » وفى أبرز مكان ، وليس هذا شرفاً قليلا. فى مخطوطك مناوشات مع النحو ، جارت عليه جوراً ، وبخسته حقه ، وقد أصلحتها . ولم ألمس غير ذلك ، أتريد أن تلقى عليها نظرة ؟

ولقد رفضت طبعا .

ومشى يقطع الغرفة الصغيرة رائحاً غاديا ، يفرك يديه ، ويقول :

— أنا مسرور بنجاحك !

وأحسست إحساساً بما فى سروره من إخلاص عميق ، ورأيت لأول مرة فى حياتى ، رجلا يتحدث عن الأدب كما يتحدث الرجل عن المرأة ، إذا كان يحبها حباً هادئاً صلداً ، وشعرت ، وأنا مع مثل هذا المرشد ، بشعور لايمكن أن أنساه ، هو شعور الراحة والاطمئنان ، وكنت أتبع فى صمت نظرته وقد ترقرق فيها العطف العذب الأخوى .

ماأقل مانظفر بمثل هذا العطف ، على أنه أعظم لذة فوق ظهر الارض !...

وقف كورولانكو أمامى ، ووضع يديه الثقيلتين على كتفى وقال :

— اسمع ،لوسافرت من هنا ، مثلا إلى سامارا ، فلى فيها صديق فى صحيفتها . أتريد أن أكتب إليه ليجد لك عملا ؟ أأكتب ؟

— ولكن هل أزعج هنا أحداً ؟

— بل أنت الذى يزعجك الناس .

أيقنت أنه يعتقد بما يشاع من إدمانى على الخمرة ، ومن استهتارى فى الحمامات « وبصورة عامة من حياتى المتفسخة » — وبؤسى كان رأس تفسخى ، وقد آلمنى إلحاح كورولانكو على بالسفر ، ولكن رغبته فى انتشالى من « أعماق الرزيلة» وقعت فى قلبى موقعاً طيباً .

وصفت له متأثراً هائجاً حياتى ،فأصغى إلى صامتاً ،يفرك حاجبيه،ويهز كتفيه :

— عليك أن تعرف أن الصبر على ذلك كلـــه مستحيل . أنت لست فى المكان اللائق بك فى وسط هذه الخزعبلات . كلا فاصغ إلى ؛ يجب أن تسافر ، وأن تبدل حياتك .

وانتهى إلى إقناعى .

وكنت بعد ذلك ، إذا نشرت فى جريدة سامارا مقالات سيئة أوقعها باسم « ألجوديا خلاميدا » المستعار ، أرسل إلى كورولانكو،ينتقد عملى اللعين ساخراً صلباً قاسياً حيناً، وصديقاً دائماً

لاأزال أتذكر هذا الحادث خاصة :

أرهقنى حتى كاد يقتلنى شاعر له هذا الاسم الخبيث سكوكين (المضجر) . وكان يرسل إلى مكتب التحرير كيلومترات من القصائد رديئة الخط ، كثيرة

الميوعة ؛ ولم نكن نستطيع نشرها ، ولكن الظمأ إلى المجد أوحى إلى هذا الشاعر بفكرة فذة ، فكان يطبع قصائده ، فى منشورات موردة ، ويوزعها على بقالات المدينة ، فيصر البقالون بها الشاى ، وعلب المربى ، والمحفوظات والسمن ، وتنهال على السكان كما تنهال على الناس الجوائز ، أنصاف قصائد ، تمجد السلطات المحلية تمجيداً هائلا : نقيب الأشراف والحاكم والأسقف .

ولقد كان كل واحد من هؤلاء الناس الممتازين ، كل بحسب نوعه ، أهلا للانتباه ، ولكن الأسقف كان اكثرهم مزايا ، فقد عمد بالقوة فتاة تترية فأثار كل المقاطعة ، ونظم محاكمة ملة هليتسى ، ولقد كانت هذه المحاكمة شاذة ومستهجنة حقاً ، حكم فيها على أشخاص ممن أعرفهم برآء براءة وإليكم أعظم مشاريعه :

كان حاكم مدينتنا ، يقوم بجولة تفتيشية ، فى يوم عاصف . فتكسرت عربته عند قرية صغيرة ضائعة ، واضطر إلى الالتجاء إلى بيت فلاح .

ووجد الحاكم فى هذا البيت فوق رف ، رأساً رخامياً يمثل (زوس) إلى جانب الصور المقدسة ، فأدهشه ذلك ، وقد أظهر استنطاق السكان وتفتيش المنازل الأخرى ، أن صور سيد الأولومبياد ، وكذلك تمثال الإلهة فينوس موجودان كذلك عند غيره من الفلاحين . ولكنهم أنكروا جميعاً مصدر هذه التماثيل

وقد كفى ذلك لإحالة هذه الملة الوثنية ، فى سامارا ، إلى محكمة الجنايات ، لانها تعبد الآلهة المزيفين فى روما القديمة ؛ وألقى القبض على الوثنيين وألقوا فى غياهب السجون ، وظلوا فيها إلى أن بين التحقيق ، أنهم قتلوا وسرقوا بائع تماثيل من فيانكا ، ثم تقاسموا بضاعته .

كنت كارها للحاكم ، والأسقف ، والوجود ، ولنفسى ، ولكثير من الاشياء ؛ ولذلك فقد كنت أشتم عند غضبى ونقمتى ، شتماً قبيحاً ، ذلك الشاعر « ابن الكلب » الذى يمجد من أكره .

وعلى أثر ذلك أرسل إلى كورولانكو كتاباً طويلا يشرح فيه هذه الموضوعة : « إذا شتمت إنساناً مهما كان يستحق الشتم ، فعليك أن تحافظ على إحساسك

بالمقاييس والمعايير» .وكان كتاب كورولانكو كتاباً ممتازاً ، ولكنه ضاع مع ماضاع فى عهد من عهود التفتيش ، فقد أخذه الدرك .

أما وقد مر ذكر الدرك فلا بد من حادثة تتعلق بهم :

فى سنة ١٨٩٤ ، وفى أوائل الربيع ألقى على القبض فى نيجنى ، وساقونى سوقاً ليس كثير الأدب إلى تفليس . وقال لى القائد كونيتسكى وهو يستنطقنى ، وقد أصبح بعد ذلك قائداً عاما لدرك بطرسبرج ، فى صوت حزين.

ــ ماأجمل الرسائل التى يكتبها اليك كورولانكو ، إنه خـــير كاتب فى روسيا .

ولقد كان هذا القائد رجلا غريباً صغير الجسم ، لطيف الحركات ، متحفظها ومترددها تقريباً وعليه أنف شيطانى الضخامة ، حزين الهبوط ، أما عيناه الحيتان فكأنهما غريبتان عن وجهـــه ، يختفى بؤبؤاهما خلف أرنبـــة أنفه اختفاء مضحكاً

ــ أنا من مدينة كورولانكو نفسها ، من فولهينى ، وأنا منحدر من صلب الأسقف لوينتسكى الذى ألقى كما تذكر ، أمام كازين الثانية ، ذلك الخطاب الحافل الشهير « دعوا الشمس » .. الخ ... وأنا به فخور .

وسألته فى أدب أيها أكثر فخريه : فخره بسلفه ، أم فخره بمواطنه كورولانكو ؟ فقال :

ــ بالأول وبالثانى ، نعم بالأول وبالثانى .

وطرد بؤبؤيه وراء أرنبة أنفه ثم نفخ نفخة صاخبة فعادا إلى مكانهما مهرولين .

وكنت مريضاً خبيث النفس ، فنبهته إلى أنى لا أفهم فهماً صحيحاً كيف يفتخر بأن يكون مواطن رجل أحال حياته حدب الدرك عليه إلى جحيم لايطاق وسيجعلها أصعب وأقسى . فأجاب لونيتسكى متأثراً :

ــ هذا حكم الله ونحن جميعاً ننفذ إرادة خالقنا ، لنستمر ...

ــ إذن فأنت تقول .... ومع ذلك فنحن نعلم ...

كنا جالسين فى غرفة صغيرة ، عند قنطرة مدخل القصر ، ومن الكوة العالية القريبة من السقف يهبط على المنضدة المثقلة بالأوراق شعاع محرق من الشمس يضيء فى وضوح ، وأنا جد مستغرب قطعة من الورق كتب فيها بخط واضح : —

أيكون السمك مغفلا إذا قضم الغزال أشجار السرو ؟

نظرت إلى هذه الورقة الملعونة وأنا أفكر :

« بماذا أجيب القائد إذا سألنى عن معنى هذا المقطع؟»

قضيت ست سنوات ، لاأرى كورولانكو امتدت من ١٨٩٥ إلى ١٩٠١ ، ولم نكن نتراسل إلا نادراً ثم زرت بطرسبرج لأول مرة فى سنة ١٩٠١ ، وهى مدينة طرقها مستقيمة ، وسكانها عوج ؛ وكنت من آخر « طراز » وقد كان « المجد » الذى يغمرنى يمنعنى حقاً من التنفس ، فقد كنت مشهوراً شهرة شعبية عميقة . أذكر أنى كنت أجتاز جسر انتيشكوف فمر بى رجلان — أجيران عند حلاق كما يظهر — ونظر إلى أحدهما محدقاً بى ، ثم قال فى خوف وفى صوت خافت لرفيقه :

— انظر ، جوركى

ووقف الثانى وفحصنى فحصاً دقيقاً من رأسى إلى أخمص قدمى ؛ ثم تركنى أمر أمامه وقال فى إعجاب :

— يا سلام ؛ لابس كاوتشوك .

ولذة أخرى من اللذات أن أذهب لأبتسم عند المصور بين أعضاء تحرير « ناتشالو » ، وبينهم الجاسوس المحرض م . ن جوروفيتش...

نعم لقد كان حبيباً إلى قلبى أن أرى ابتسامات النساء المعجبات ، ويخيل إلى أنى اصطنعت مظهر الديك الرومى ، مثل كل الشباب الذين حيرهم المجد .

ولكنى كنت أحياناً ، إذا هدأ الليل ، وخلوت إلى نفسى ، وجدتنى كالمجرم الهارب . عرفت أن كل من حولى من جواسيس وقضاة ممن يزعمون أنهم يعتبرون الجريمة «شقاوة وتعاسة » ، « وضرباً من طيش الشباب » ، وأن «اعترافك به يكفى

للعفو عنك عفواً كريماً ، نعم عرفت أن كلا منهم يخفى فى أعماق نفسه رغبة قوية، فى أن يقبض على المجرم متلبساً بجريمته، ليصرخ فى وجهه ظافراً منتصراً :

— إيه ... إيه . .

وكنت غالباً أضطر إلى أن أضع نفسى موضع تلميذ ، يسأل فى المجتمعات، عن كل فرع من فروع العلم . كان المؤمنون بالمذاهب ، وكهان المعابد، يسألونني دائماً

— ماذا تعتقد ؟

وكنت امرءاً لطيفاً ، فأعددت نفسى لهذه الامتحانات، وتجلدت تجلداً راعنى تماسكه ، ولم ألبث أن فضلت ، على هذا العمل ، أن أنقب كاتدرائية إسحق بأبرة الموصلة ، أو أن أقوم بأية مغامرة أخرى لا تقل عنها خطراً وهولا .

يخفى الروس وراء طيبتهم ، التى تكاد تكون دائماً مصطنعة ، بعض التصنع ، شيئاً يشبه الغلظة والجفاء . وهذا الطبع — أو فى تعبير أصح ، هذه الطريقة فى البحث ، تظهر فى أشكال مختلفة ، وخاصة فى نزعتهم ، إلى زيارة روح القريب كما يزار المنزل المتنقل ليروا ما فيه من تلافيف ؛ ولينبشوه ؛ وليتمشوا فيه وليوسخوه ، وأحياناً ليقلبوا فيه شيئاً ما رأساً على عقب .

وهم على حسب تعبير روماس ينشبون أصابعهم فى كل شىء وهم يظنون ولاشك أن ارتياب النبى مثل فضول القرود .

ولقد رأى كورولانكو فى بطرسبرج الحجارة نفسها، بيتاً ريفياً من خشب، ألواحه مدهونة تفعمه رائحة القدم الناعمة .

لقد لعب الدهر به فى هذه السنوات الأخيرة ، فأشاب نواصيه ، وطوى ما تحت عينيه ، وجعل نظرته شاردة متعبة ؛ وشعرت رأساً ان هدوءه الذى طالما أرضانى قد حل محله ضجر رجل يعيش فى توتر فكرى حاد .

— أصابنى أرق يعذبنى عذاباً أليما ؛ وأنت أما تزال تدخن كثيراً غير محترس من السل ؟ وكيف حال رئتيك ؟ سأسافر الى البحر الاسود . أتريد أن نسافر معاً ؟

وجلس وراء المنضدة أمامى وكان يتطلع إلى من وراء السماور ويحدثنى عن مؤلفاتى :

— « مارنكا — أو ليسوفا » وأمثالها أكثر نجاحاً من « توماس جارديف » فهذه الرواية عسيرة على القارىء ففيها مادة كثيرة ، ولكن لانظام ولا انسجام .

ونصب ظهره ففرقعت فقراته وسألنى :

— اذن فقد أصبحت ماركسياً

وأجبته أنى من الماركسى قريب جداً ، فابتسم كورولانكو مسروراً وأبدى هذه الملاحظة :

— الماركسية عندى غير واضحة . وأنا لا أفهم الاشتراكية بدون مثالية . وأنا لا أعتقد أن فى الامكان بناء الأخلاق على الشعور باشتراك المنافع المادية . ولن نستطيع شيئاً بلا أخلاق .

وسألنى وهو يشرب الشاى :

— قل لى كيف رأيت بطرسبرج ؟

— إن المدينة أدعى إلى الاهتمام من السكان .

ورفع حاجبيه ، وضغط بأصابعه عينيه المرهقتين وقال :

— سكان بطرسبرج أقرب الى الأوروبية من سكان موسكو ، وسكان نهرنا الفولجا ، يقال إن موسكو فذة الشخصية . ولست أعلم ذلك ، بل أنا أرى أن شخصيتها فى نوع من المحافظة الثقيلة السطحية . فهنا لك دعاة للجامعة السلافية مثل كلاتكوف ، وهنا ديسمبريون مثل تشيرنشيفسكى .

— وبوميدو فوستسيف . . .

— وقال كورولانكو ساخراً :

— ماركسيون ، وغير أولئك من الذين يتحرقون فكراً تقدمياً أو ثورياً . أما بوميدو نوستسيف فله عبقريته مهما قلت عنه . أقرأت له « مقتبسات موسكوفية » ؟ ولاحظ على الأخص كلمة موسكوفية . وأخذته ثورة من حماسة عصبية ، فحدثنى هازلا عن صراع الحلقات الأدبية ، وعن المناقشات بين الشعبيين والماركسيين . وكنت أعرف شيئاً منها ، فقد حدث فى اليوم التالى من وصولى إلى بطرسبرج أن كدت أقع فى « واقعة » لا تزال ذكراها تزعجنى ، وقد زرت كورولانكو لأقصها عليه .

وهذا ملخص الحادثة :

نظم ف . أ . بوسى رئيس تحرير مجلة « جيزن » (الحياة) حفلة لذكرى تشيرنيشيفسكى ودعا إلى المشاركة فيها كورولانكو ومخايلوفسكى ومليكشين وسترونى ، وتوغان بارانوفسكى وغيرهم من شعبيين أو ماركسيين ، وقد وافق الأدباء وسمحت الشرطة .

وزارنى فى اليوم التالى ، من وصولى إلى بطرسبرج طالبان رشيقان وآنسة لعوب ، وقالوا إن مشاركة بوسى فى ذكرى تشيرنيشيفسكى لا يمكن أن تقر : « إن بوسى فى نظر الشباب لا يمكن قبوله لأنه يستثمر المشتركين فى الـ « جيزن » .

وكنت أعرف بوسى منذ أكثر من سنة ؛ ورأيت أنه عصامى ، وذو موهبة ليست فى القدرة على استثمار المشتركين ، وأنه صديق لهم ؛ وأنه يعمل كالحصان فى سبيل راتب ضئيل ، يعيش به فقيراً هو وعائلته الكبيرة . وحدثت بذلك الزائرين الشباب — وعند ذلك حدثونى عن موقف بوسى السياسى وأنه مشكوك فيه ؛ فهو متردد بين الشعبيين والماركسيين ، وأنه يعرف ذلك من نفسه فيوقع مقالاته باسم « ويلد » المستعار . ونقم حماة الأخلاق والأرثوذكسية على ، وخرجوا يعلنون أنهم سيقابلون كل الذين دعوا إلى الحفلة ويقنعونهم بالتخلف عنها .

وظهر بعد ذلك أن هذا الحادث لم يكن حملة شخصية على بوسى بل « ظاهرة من ظواهر النزاع بين تيارين سياسيين » ، فقد كان الماركسيون الشباب يعتقدون أن ليس من الملائم أن يظهر ممثلو مدرستهم فى حفلات عامة ، إلى جانب ممثلى الشعبية (المهترئة المحتقرة) وقد عرضت كل هذه الفلسفة ، فى كتاب طويل كالتقرير وشرحت فى تعابير علمية ، جعلتنى أشعر بعد قراءته أنى غريب . وبعد هذا الكتاب الذى أرسله إلى من لم أرهم قط ، وصلتنى بطاقة من سترونى يخبرنى فيها أنه يرفض حضور الحفلة ؛ ثم وصلتنى بطاقة أخرى منه ، يخبرنى فيها أنه رجع عن رفضه ؛ ثم وصلتنى بطاقة ثالثة فى اليوم التالى يقول لى فيها إنه عاد فرفض نهائياً ، ولم يبين أسباب رفضه ، أو قبوله ، فى كل بطاقاته ورفض حضور الحفلة توجان بارانوفسكى أيضاً .

أصغى إلى كورولانكو وقال مازحاً :

— يدعونك إلى الكلام فإذا صعدت المنبر ، قبضوا عليك فحلوا سراويلك وجلدوك .

وتمتم مفكراً وهو يغدو ويروح فى الغرفة ويداه وراء ظهره :

— ما أصعب هذا الزمان . إن فيه شيئاً غريباً يفسخ الناس . أنا لا أفهم تفكير الشباب حق الفهم ؛ ويخيل إلى أنه يعود إلى العدمية ، وأن الدعاة المهنيين إلى الاشتراكية قد ظهروا . الارستقراطية تقتل روسيا ؛ ولكنا لا ندرى أية قوة نستبدلها بها .

تلك هى المرة الأولى التى أرى فيها كورولانكو فى مثل هذا الاهتمام والتعب ؛ ولقد آلمنى ذلك حقاً .

وجاء أعضاء مجلس من المجالس المحلية فى الريف ليزوروه ، فاستأذنت وخرجت ، وسافر بعد يومين أو ثلاثة ليستريح ، وكان هذا آخر عهدى به ، كما أذكر .

تمت

استدراك

حدثت اخطاء مطبعية ، وخاصة فى الملزمة الثانية وقد سجلنا تصحيحاً لأهمها ونحن نعتذر لحضرات القراء عن هذا الخطأ ونرجو أن نتلافاه فى الطبعة الثانية .

وكنا نود أن ننشر النص كاملا ، لقيمة المؤلف الأدبية والفكرية . ولكن حالت الظروف الراهنة دون ظهور بعض الاجزاء .

ويقيننا أن القارىء سيجد فى مادة الكتاب عوضاً عن النقائص التى اضطررنا اليها .

« الناشر »

جدول الخطأ والصواب

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
٣	١١	ستورات	ستوارت
٦	٢	بكذب	تكذب
١٣	٢٤	استطاعنا	استطعما
١٩	١٣	إنارة	أثارة
٢٠	١٤	الحبرين	الجبرين
٢١	١٧	الأنشوي	الأنثوى
٢٢	٩	ينقشه	نيتشه
»	١٥	دورانكون	دورانكوف
٢٣	١٤	بالتهم	بالهم
٢٤	١١	مهم	منهم
٢٥	٧	فتحففت	فتخففت
٢٦	١٢	يهزئون	يهزؤون
»	١٥	حان	حاق
»	»	ماحق	ما حاق
»	٢٠	مرربرة	مربرة
٢٧	٢	أصبوا	أصبو
»	١٠	إطلقن	أطلقن
»	١٨	أنال	أزال
»	»	ولما	ولم
٢٨	١٥	الغرفة	الغرف
٣١	٢٠	كانة	كاية
٤٠	١١	عشر	عشرة
»	٢٦	منا	منها
٥٤	٧	يخرج	يخرج
٥٥	١٨	قربيات	قربيات
٦٠	٩	غدائرة	غدائره
٧١	٢٥	يعينني	يعينني
٧٧	٥	تشريتيا	تشريتياً
٧٩	٣	لا	—
٨١	٢	يبلغك	يبلعك
٨١	٤	القائمة	القائمة
٨٢	٨	هدوء	هدوءه
٨٣	١٨	طرفيها	طرفيهما
٨٥	١٧	مفراً	مفكراً
»	١٨	نفسين	نفسي
٨٨	١٠	يبني	يبى
٩١	١١	البحت	البحث
٩٦	١٤	أكيفكن	أكيفكن
٩٨	٢٠	إلا بالغى	(الأبالغى)
١٠٠	٦	يكرهوه	كرهوه
»	١٩	لانبلغ	لانبلغ الهدف
١٠١	١	لايزال	لايزال يوارى
١٠٢	١٧	مخبرتان	مخبرتان
»	١٩	يبعث	يبعث
١٠٥	١١	الليله	الليل
١١٥	١١	يقرر	يقر
١١٦	٢٥	تستطيع	تستطع
١١٨	٦	تنبحس	تنبجس
١٢٠	٢	زووقه	زورقه
١٢٢	١١	فستضارب	فستضارب
١٢٨	٢١	نسيسة	نسيسه
١٣٤	١٠	من	—
١٣٩	١٣	تران	ترن
١٤١	١٢	السرائر	الستائر
١٤٤	١	انتباة	انتباه
١٤٦	١١	الخمر	الخمار
»	١٥	شيدا	شيخا
١٤٧	٩	(ابريل)	(أغسطس)
١٥١	٢١	نظراته	نظارته

4104

الناشر: دار القرن العشرين للنشر
ص.ب ١٩٢٤ - القاهرة

VETVS
TESTA
NOVVM
MENTVM
DEI·STVB·NVMINE·VIGET
PRINCETON
UNIVERSITY
LIBRARY

WERT
BOOKBINDING
Grantville, Pa
Nov.-Dec. 1988
We're Quality Bound

Princeton University Library
32101 060770177